سامي الجندي

عرب ويهود

سامي الجندي

عرب ويهود

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت لبنان

دار النهار للنشر ش.م.ل.
بيروت – لبنان
١٩٦٨

مقدّمة

الملك حسين

لا شك في انه من المفيد والمستحسن ان يناقش المثقفون العرب الامم الاخرى ، بلغاتها ، كجزء من نشاطهم . فالرأي العام العالمي درج على تقبل هذه المجابهات التي نرى انها تقربنا من الامم الاخرى وتوضح قضايانا التي نحتاج في حلها إلى المساعدة الجدية وإلى تأييد جميع الاشخاص ذوي الارادة الحسنة . أوليس ذلك ما تؤمنه العلاقات بين انسان وآخر ، من دون تفريق في اللغة وفي الوطن ؟

وارتكازاً إلى هذا المبدأ ، فاننا نتقبل باحترام ورضى هذا العمل الجليل الذي حققه الدكتور سامي الجندي : فهذا الكتاب يخاطب القارىء الاوروبي الذي بلغ من المدنية اوجها ، والذي نادى بالثورة من اجل الحفاظ على حقوق الانسان ، ومن اجل توطيد حريته وشرفه . فالكتاب يتطرق إلى قضايا عدة للعالم العربي اسيء فهمها في الخارج كما انه يشير الى بعض التناقضات داخل هذا العالم العربي .

إن الدعاية المضللة تخفي حقيقة النزاع بين العرب والصهاينة ، اذ انها تدعو إلى الاعتقاد بوجود حقد على العرق اليهودي . والواقع ان ذلك مخالف للحقيقة . فاليهود الذين استوطنوا اكثر البلدان العربية ، عاشوا كطائفة دينية لها كيانها ، وتمتعوا بالحقوق الكثيرة التي لم تؤخذ منهم قط . ولا ريب في ان موقف العرب هو موقف من يتحسس طبيعة العقيدة الصهيونية المشحونة بالخطر ، حيال الرداء الصهيوني الذي يدثر به بعض من اليهود الذين ارادوا السيطرة على الشعب العربي والأرض العربية . وموقف العرب هو الموقف ذاته الذي وقفه الشعب

الفرنسي الذي قاسى من الاحتلال النازي والذي عرف ، مع ذلك ، كيف يفرق بين النازية والشعب الالماني . فقد كره النازية عن حق ، لكنه اظهر الصداقة والاحترام للالمان كشعب وكعرق . والامر ذاته يتكرر لدينا نحن العرب ، اذ لا أسباب لدينا لكره اليهود والحقد عليهم كشعب ، وانما لنا اسبابنا ضد الصهاينة الذين يلحقون الضرر بالشعب العربي والأرض العربية ، بأهدافهم العدوانية والتوسعية .

إننا نأمل ان يتفهمنا الآخرون وان يستنكروا النوايا الصهيونية المنطوية على الاهداف العدوانية التي تحمل في نفسها خطراً على العالم وعلى السلام . بل إننا نأمل ما هو أكثر من ذلك ، وهو ان تتزايد في أوساط الشعب اليهودي من يعلن على الملأ ان الصهيونية تشكل خطراً على ذاك الشعب ، وتبذل جهدها لوضع حدّ لموبقات الصهيونية .

ان الدكتور سامي الجندي كاتب يقول الحقيقة ويتنزه عن الرياء عندما يقول ، تحت وطأة نكسة حزيران ١٩٦٧ : « انني ارجو ألا تصبح نتيجة النكسة كره اليهود ، اذ ان بينهم اشخاصاً يستحقون المحبة والاحترام ، كذاك الشاب الذي ينتمي إلى اسرة يهودية صديقة لي والذي اختار لنفسه مصير العرب الذين يعيشون في اسرائيل » .

ان اي عربي في الوضع نفسه قد يقول هذا الكلام . بيد ان كل انسان ، له شرفه وضميره ، يحتقن بالقرف عندما يرى كيف قضت قنابل النابالم على الابرياء من النساء والاطفال والشيوخ .

ثم إن المؤلف يحقق بعد ذلك في التناقضات القائمة اليوم في العالم العربي ، وهو يعيد بدايتها إلى تلك الحقبة من الزمن ، حين رزحت شعوب المشرق تحت وطأة النير العثماني وفقدت حريتها واستقلالها . فما ان اندلعت نيران الحرب الكونية الأولى ، حتى ظن العرب انهم يستطيعون تحرير وطنهم وتوحيده عن طريق التحالف مع الغرب والمشاركة جنباً إلى جنب في معارك القتال . بيد ان آمالهم كانت واهية : فالحرية لم تكن من نصيبهم ، وارضهم لم تتوحد . وبدلا من ان يقوم وطن موحد ، قام وطن مجزأ ومفتت . بل كان هنالك ما هو اسوأ :

لقد وقع الغرب على اتفاقات تعد العرب بالاستقلال والوحدة ، لكنه اصدر وعد بلفور الذين اقتطع من ارض العرب جزءاً عزيزاً غالياً ليقدمه هدية إلى أغراب قدموا من الشرق والغرب ومن كل بقاع الدنيا ، يوماً بعد يوم ، وما يزالون . إن هذه التناقضات اثارت الاستياء في صدور العرب وقتلت الضمير الانساني .

إن جدي ، الملك حسين الاول ملك الحجاز ، وقف على رأس الثورة العربية الأولى ووقع ، كممثل للمصالح العربية ، معاهدات مع الدول الغربية تعد العرب بالاستقلال والوحدة . وقد هب العرب من جميع البلدان ، تحت لواء الثورة ، للنضال من اجل القضية الكبرى . ثم انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ومعها الثورة العربية الاولى . ومع ذلك ، فقد كان مصير زعيم هذه الانتفاضة ، حليف الحلفاء الغربيين ، خسارة عرشه والنفي ، ثم الموت في منفاه .

لقد تألم الشعب العربي لهذا الاختبار الذي رمى بثقله على صدورهم والذي ، رغم كل شيء ، لم ينل من وضوح تفكيرهم ومن قدرتهم على الحكم السليم في الامور . فكان على العرب ، في سبيل تخطي كل ذلك ، ان يزيلوا من جميع حقول حياتهم ذلك التخلف الذي توارثوه عبر اجيال طويلة من التحكم الخارجي بهم . والواجب الملقى على عاتق العرب الان هو مضاعفة نضالهم من اجل السير في طريق المدنية الحديثة ومن اجل التساوي بالانسان المتمدن . ان هذا وحده يطابق «فكرة الحضارة» التي تنتشر في العالم العربي اليوم . فمن يراقب الحركة العربية المعاصرة يستطيع ان يتعرف إلى عنصرين هامين جداً .

الاول : ان العرب لم يحيدوا عن السبيل المستقيم ولم يديروا ظهورهم إلى الغرب ، رغم الموقف المترجرج الذي وقفه العالم الغربي منهم . بل على النقيض من ذلك ، لقد تقبل العرب بشغف كبير ما حمل اليهم الفكر الغربي من فن ومعرفة .

والثاني : ان الغرب بدأ يتفهم الحركة العربية ، ولو ببطء ، كما بدأ يتقبلها ويشعر معها . والعلامة الطيبة هي ان الامة العربية ستجد

سهولة بالغة في الوصول إلى مرحلة من التطور تمكنها من الاسهام في الحضارة العالمية ، ولاسيما الحضارة الغربية التي غرفت منها الكثير .

ان شعوب العالم ، ومنها الشعب العربي ، تبحث اليوم عن التفهم المتبادل فيما بينها . فالاكتشافات العظيمة في جميع الحقول ، التي تفرض الاعجاب ، تدعو هذه الشعوب إلى تعزيز تعاونها وإلى توحيد جهودها من اجل دفع هذه الاكتشافات إلى الآفاق البعيدة التي تكشف عنها التقنية الحديثة .

لماذا تشقى الشعوب وتضحي في سبيل هذه الاكتشافات التقنية العظيمة ؟ انها تفعل ذلك من اجل تحسين مصير الناس كلهم . فالحضارة الغربية الحديثة ، بما توصلت اليه من ابداع ، لا تفيد العالم الغربي وحسب ، بل الانسانية كلها . وهذا ما يميز كل حضارة .

وانه لمن المرغوب فيه ان تتابع الشعوب في النصف الثاني من القرن العشرين ما بدأته في النصف الاول منه ، فتتوصل إلى ايجاد نظام يناسب العالم ويكون قادراً على تمتين السلام وعلى كبح جماح العدوان . فانتشار السلام وتوافر المأمن من العدوان يستطيعان ان يوجدا في العالم جواً ملائماً للتقدم وللحياة الشريفة . ومن اجل ذلك يجب ان يتوافر الاقتناع التام بان العدالة هي المجال الوحيد لتقدم الشعوب .

أنحلم ؟ أنسير على الدرب التي اختطها في جميع العصور اولئك المفكرون الذين حلموا الاحلام نفسها ؟ كلا ، ان هذا هو ما يفرضه عصرنا الذي اتى بالنّعم كما لم يأتِ بها غيره ، وبوسائل الدمار كما لم يأتِ بها غيره ايضاً . ونحن العرب نسعى للوصول إلى هذا الهدف . هذا ما تفرضه علينا التقاليد والدين والحضارة .

ان كل ما في هذا الكتاب يستحق ان يستمع اليه وان يناقش . والفضل في ذلك يعود إلى الدكتور الجندي الذي اهدانا هذا الغذاء الثقافي ، وهو اجود غذاء واعظمه .

الحسين بن طلال

مقدمة المؤلف

على الرغم مما حدث ، آبى على نفسي أن أغمس قلمي في محبرة الحقد . أنا انسان بسيط ، ومع ذلك فالاحداث الاخيرة هزت مني اعمق أعماقي ، وبدلت من رؤيتي الامور . وها أنا اجترها واستعيدها ، حتى لغدت جزءاً أصيلا من ذاتي . ويوماً بعد يوم ، يكبر شعوري بالمرارة ويغزو السواد قلبي . فثمة احداث صغيرة تصدعني وتصفعني بسياطها الهوجاء ، وتدفعني إلى تبديل موقفي الذي علقته مند سني العقل الاولى ، فكان في اسّ حياتي نفسه . اخترت هذا الموقف ببساطة القروي السوري . فهو ليس ثمرة الدراسات الفلسفية المعمقة ، إذ لم أكن في العمر الذي يتيحها لي . علمتني جدتي وامي أن احب . اذ كانت الأولى تحفظ أشعاراً صوفية ، ترويها على مسمعي ، كلما لجأت إلى حضنها . وكانت أمي تروي لي ما حفظته عن جدتي ، في إصرار المؤمن بكلمة الآباء والأجداد . قالت لي ، آخر مرة رأيتها فيها : « يا بني ، احبب هذا العالم ، هذا العالم هو الله » . وامتزجت هذه الجملة مع روائح الحصيد خلّفه الحاصد. ودغدغت صبا الصيف قلبي ، فاحسستها زرقاء ، زرقة ليالي بلادي ، كنفحة من سمائنا المستيقظة على غروب الشمس ، لتغرقنا بالاف النجوم .

منذ خلفت حضن جدتي ، ولم اعد اسمع صلوات امي ، سافرت كثيراً ، وقرأت كثيراً . وعلمتني التجارب ما لم اعلم ، وتعاظم حبي

للعالم ، وتقديسي الانسان ، لاني اخترت ذاتي ، وما أنا إلا جُزَيْء من الأرض الحبيبة ، حيث السماء صافية ، والنسيم يكنس الحقد من قلب الإنسان ، كل إنسان .

غير أن المدفع جأر على مسامع ابنائي ، والعاصفة هزت السكينة إلى الأبد ، والنابالم احرق وجوه القرويين أمثالي ، واللاجئين بعثرهم الخوف كل مبعثر خلال ساعات ، وجردت افئدتهم من كل شعور إنساني ... كل ذلك زلزل إيماني ، وانبثق في ذهني سؤال مفزع : هل أحب حقاً هذا العالم لأنه الله ؟ هل أحب ؟ وهل الحب حقيقة سرمدية ؟ وهل يصنع الحب التاريخ ؟

قد أكون آخر من طرح على نفسه هذا السؤال في الشرق الأوسط . لأن الناس هناك قد اتخذوا ، في ما يبدو لي ، موقفاً آخر . اني اتصورهم الآن ، وقد انتزعوا من ذواتهم مئات القرون ومزقت اعصابهم كل الأمثال ، وكل الأفكار السابقة ، بل أراهم وقد شرعوا يفسرون كل الكتب المقدسة على أساس منطق جديد .

أما نحن ، من نؤمن بالحب ، فان سهاماً مسمومة تثقبنا كل يوم ، فتدفعنا إلى أسئلة قاسية .

منذ أيام ، قالت لي صديقة فرنسية محترمة ، أكنّ لها كل تقدير : « لقد استطعنا الحصول على ألف غطاء للنازحين السوريين . » النازحون السوريون ؟ لقد شعرت بالعار ، والمرارة ، والخوف . إن الجيش الإسرائيلي على بعد خمسين كيلو متراً من دمشق ، حيث يقيم أبنائي الستة . أيجب عليّ يوماً أن ابسط كفي سائلا غطاء للارواح البريئة ؟ نحن عائلة كثيرة العدد ، وقد لا نحتاج إلى غطاء اذا هربنا صيفاً ، أما في الشتاء ؟

ثمة ستة وتسعون ألف نازح سوري ، لكل ستة وتسعين نازحاً

منهم غطاء واحد من تلك التي جمعتها الصديقة . ولو لم يكونوا عرباً سوريين لاستطاعت السيدة جمع عدد أكبر ! وباريس مدينة كريمة ، لكن الوضع يختلف حين يكون النازح عربياً سورياً . فلماذا ؟ هل يكرهنا الفرنسي ؟ كلا ، وأنا واثق من ذلك . لكنه لا يستطيع مساعدتنا ، لأن قوة خفية تشلّ يده !

وفيما كانت السيدة تحدثني ، شطح خيالي إلى نازح فلسطيني كنت أعرفه حق المعرفة وما يزال يقطن قرب الجبهة السورية . تعرفت إليه ذات عطلة من عام ١٩٦٤ ، حين ذهبت مع ابنائي لأزور ضابطاً من أقربائي . وكنا على وشك الإياب مع مقدم الليل ، حين جاء ذلك النازح يدعونا لقضاء الليلة لديه . فقلت : « ذلك صعب فنحن كثر » . فقال : « لا تبتئس ، فابنائي ثمانية ، وقد تزوج البكر حديثاً ، وشرعت امرأتي تعدّ مرقد الأطفال ،وأنا واثق من أن ثمة مكاناً للجميع ». قبلت دعوته وقضينا ليلة لطيفة عند علي اليافاوي . علمت أنه نازح من يافا . وأنه كان فيها غنياً ، وأنه قدم إلى تلك الزاوية من الجبهة السورية عام ١٩٤٨ . فبنى بركة في المسكن الذي بناه وعاش فيه باطمئنان منذ ذلك الحين . في العاشر من حزيران ١٩٦٧ فكرت فيه طويلا . أما يزال على قيد الحياة ؟ لا أعتقد . كان قلبه ، حين تعرفت إليه ، عامراً بحقد إنساني مذهل ، لا يعدله إلا الحقد الذي يعمر نفوس ابنائه . تحدثنا كثيراً تلك الليلة . كان إنساناً من نوعية خاصة . لم يكن يرى الحياة إلا من زاوية واحدة : هجوم جاره البولوني على قريته ، وكان أول المهاجمين . قال لي : « لقد أوصى الله بالجار إلى البيت الاربعين . وكان جاري البولوني يزورني وكنت أزوره . وقد أكلنا معاً أكثر من مرة حين كنا نعمل في حقولنا . كان أول من هاجم قريتنا حين بدأت الحرب . لكن الله انتقم منه إذ قتل

في المعركة .

حين كان يتحدث إلي ، كنت أفكر في باسم ، زميلي في كلية طب الأسنان ، كان قبلي بصفين . ولم يسترع انتباهي أول دخولي المعهد ، رغم أني شديد العناية في استطلاع وجوه رفاقي . وذات يوم بلغت المعهد متأخراً عن العادة . فلم استطع التوقف في المكتبة ، فدلفت رأساً إلى قاعة الدرس . كان ثلاثة من رفاقي هناك ، يتناقشون في المعاهدة الألمانية الروسية . وكان باسم يدافع عن المعاهدة بحماسة شديدة. وشعرت من نقاشه أنه شيوعي ، يدافع عن وجهة النظر الروسية مهما كانت . فقد كان الرأي الصواب يكمن في تفكير ستالين وحده . سألته في ختام النقاش : «لم أنت شيوعي ؟ » أزعجه السؤال ، وكأنما أوقعه في فخ ، فاصر على القول : «إني ماركسي التفكير . »

— هل تعتقد أن هتلر يمكن أن يكون ماركسياً ، مثلاً ؟

— كلا ، لكن ستالين ماركسي ، وقد يتحد مع أي كان في سبيل ضمان نصر الثورة العالمية . إن على معذبي العالم أن ينتظروا بعض الوقت ريثما يحقق الاتحاد السوفياتي استقراره .

منذ ذلك الحين ، بتّ احييه كلما لاقيته ، حتى كان صباح اقبل علي فيه باسماً ، حاملاً في كفه جريدة كنت نشرت فيها مقالاً صغيراً :

— مرحباً أيها البذرة الماركسية .

أجبت : «ماذا تقصد ؟»

— أرى في تفكيرك جذور اتجاه صاف ، واحساساً عميقاً بآلام المعذبين : فبعض عباراتك عامرة بالمشاعر النبيلة، لكن تنقصك التجربة. فهل أنت فقير ؟

— لست غنيا .

– تعال نتعشّ معاً هذا المساء .
– اتفقنا .

ألفيت مائدته عامرة ، رغم ما يجلبب البيت من شقاء انساني عجيب . تحدث إلي طويلا عن الشيوعية . وصارحني أنه يثق بي ، فلا يعنيه أن يخفي عني كونه شيوعياً عاملاً ، وأنه هو الذي يعين المخبرين الشيوعيين الذين يكتشفون أحياناً على مقاعد المدرسة .

قال لي : « كيف تريد ألا أكون شيوعياً ؟ حين واجهت الحياة ، كنت عاملاً بسيطاً ، أدرس واعمل معاً لأضمن العيش . بينما كنت أرى حولي الأغنياء وثرواتهم الطائلة . قد تعجب لو سردت عليك ما كنت أفعل لأكسب العيش .

كنا نتلاقى كل صباح تقريباً . وذات يوم ، لقيته في المعهد ، فإذا هو حزين بائس . فسألته عن حاله ، فقال :

« هل بلغتك انباء اليوم ؟ »
– لا !
– لقد اعلن عن تشكيل الفرقة اليهودية .
– وماذا في ذلك ؟
– إن ذلك لمخيف ... مخيف ...
– لماذا ؟
– ألا تعلم أني يهودي ؟

لم يكن في اسمه ما ينبيء عن ذلك . فاسم باسم يمكن أن يطاق على المسلم أو المسيحي . أما اسم عائلته فكان : لاطي ، وقد يكون اسماً مسيحياً أو مسلماً .

قلت : « كلا . ثم ما يعنيني في ذلك ؟ »

قال : « لقد شكلت هذه الفرقة لترسل إلى فلسطين . قد ترى

فيها جيشاً أجنبياً آخر سيغزو بلادنا . أما بالقياس إلي فالأمر يختلف . باستطاعتي فهم الأمر أكثر لو دعيت الفرقة الصهيونية أو الإسرائيلية . بعد سنوات سينظر جاري المسيحي إلي في حذر . أنت نفسك ستتجنبني ولن تثق بشيء أقوله لك . كأني أرى جداراً يرتفع بيننا ... وهذا ما يرعبني .

بدأ حديث باسم عن السياسة يتضاءل . وصار يثير شفقتي عليه . كان يفصح عن ذاته بيسر ، وكنت الوحيد الذي يعرف عقدته التي خلقها لنفسه . ولم يعد يردد أنه مخلص ، وأنه لا يكذب ، وأنه عربي منذ آلاف السنين ، وأنه لن يتخلى عن هذه الصفة ، وأنه لولا بعض التفاصيل لآمن بالاسلام ، لأنه دين الأكثرية الساحقة من بلاده . لكنه ماركسي ولا يؤمن بالدين . وراح قناع حزين ينسج على أعماق نظراته . كنت أزوره حيناً بعد حين ، وبدأت أتأقلم شيئاً فشيئاً مع الوسط الذي كان يحيا فيه .

أقبلت لطيفة ، ذات مساء ، وكنت أعرفها منذ زمن بعيد . لكني علمت من سياق حوارنا أنها يهودية كذلك .

قلت لها : « أعرفك منذ شهور ، لكني كنت أجهل أنك يهودية .

– وأنت ؟ ما دينك ؟

– لن أقول لك .

فقالت : « لقد تعرف أخي باسم منذ أيام إلى جندي أردني دعاه إلى بيتنا . هل تعلم عما تحدثنا ؟ »

– عمّ ؟

– عن دولة إسرائيل . قال إنه ذاهب إلى فلسطين ليسهم في الفرقة اليهودية ، وأنه كان يحيا على أمل أن يرى حدود إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات .

– ألم تطرديه من بيتك ؟
– لكن أخي حاييم أقره على موقفه .
– حاييم ؟
– نعم ؟
– اطرديهما معاً .
– لكن لست إلا امرأة . واحرى بهما أن يطرداني !

أجل ، لم أكن أعلم أن لطيفة يهودية . ولم يخطر لي يوماً أن اسألها عن دينها . كل ما كنت اعلمه أن عينيها سوداوان ، وقامتها سامقة مكتنزة ، وان في صوتها عذوبة شامية . وتساءلت عندئذ ، لم كنت مسلماً ، وكانت لطيفة يهودية ؟ ولم اشأ أن أتوقف عند هذا التساؤل ، إذ لم يكن له من معنى . ولقد علمني اساتذتي أن الاستعمار هو الذي يدفع بنا إلى العناية بمثل هذه الأمور ! لم تكن لطيفة إلا جاذبية واغراء . كانت تجسيد دمشق نفسها . بل صورة تتسرب عبر أحلام هذه المدينة . وكما يعبر الشاعر عن ذاته في قصيدته ، تجسدت دمشق ، عبر التاريخ ، في تلك الكيانات السمراء ، ذات العيون الغزالية الضائعة في البوادي القريبة من بساتينها .

سألها باسم « وأبوك ، وأملك ؟... »
– انهما ضد أخي ...
– وكوهين ؟
– إنه يداري أمي وأبي ، لكني اعتقد أنه يمالىء حاييم . أنت تدرك طبعه ، فهو يتكلم قليلاً وبدراية !

تناول باسم سيجارة ، وأعطاني واحدة . وقد لاحظت أنه بدأ منذ بعض الوقت يدخن كثيراً . وكان من قبل يدع السيكارة تحترق ببطء في زاوية فمه ، أو يدعها طويلاً بين إصبعيه . لاحظت أنه يشد

السيكارة إلى راحته ، فإذا وضعها بين شفتيه ،عبّ منها بكل شراهة أنفاساً عميقة . كنت من قبل أنهي تدخين سيكارتي قبله ، وغدا يفوقني سرعة تدخين ، فإذا أطفأها بعنف في قاع الصحن ، اجتذب أخرى وأشعلها بسرعة .

قالت : « ما رأيك ؟ »

فقال : « أرى مستقبلاً مرعباً . سنوصم يوماً بأننا منهم وأنهم منا . باستطاعتي في دقائق أن اغير ديني . »

مضت سنتان لم انقطع خلالهما عن زيارته ، فتوطدت صداقتنا أكثر فأكثر . كنت شاباً ، مرحاً ، منفتحاً على الحياة ، ولم أكن أحفل كثيراً بما كان يقول لي .

لم أكن أشاطره الرأي ، لكنه كان يشتد في إصراره على آرائه ، ويتسم منطقه بالحماسة. وكان مستحيلاً إقناعه بغير ذلك .

أنهى باسم دراسته ، وافتتح عيادة فقيرة جداً . وكنت أزوره فيها . وكان زبائنه في معظمهم من فقراء الأحياء المجاورة ، وكان يعاملهم باحترام كبير . وذات يوم وجدته حالماً ، بل بدا لي وكأنه يبكي . فسألته : « ما بالك ؟ »

– أنا راغب في الزواج .

– ولكن هذا خبر سار .

– غير أن خطيبتي ترفض واحداً من شروطي !

– أيها ؟

– ألا يكون لي أبناء ...

– لماذا تتزوج ، إذن ؟

– إني أحبها . لكني لا أريد أن ألد ابناً في عالم يسيطر عليه الحقد والرعب . إني حزين ولا أعلم ما أفعل !

بعد أيام أنبأني بأنه يريد أن يلقاني على جناح السرعة .

كان في حال تثير الدهشة ، كان منتشياً بعض الشيء ، كما خيل إلي ، بائساً حزيناً وعاشقاً . قال لي : « قررت أن أتزوج هذا اليوم . فهل تستطيع أن تحل محلي في العيادة خلال خمسة عشر يوماً ؟ فليس لدي ما يتيح لي شهر عسل كاملا ، ولا أود أن يجد زبائني الفقراء باب عيادتي مقفلاً . »

قلت : « لكنك تعلم أني ما زلت في السنة الدراسية الثالثة . »

قال : « أرجوك ، أدّ لي هذه الخدمة . »

عاد باسم في اليوم السادس عشر إلى العيادة ، وفيما كان يشكرني على خدمته ، فتحت الدرج وقلت : « هذه حصيلة الأسبوعين ».

– ولكنها لك .

رفضت ورحت أضحك ، فسأل : « ما الذي يضحك ؟ »

– لقد سرقتك .

– كيف ؟

– لم أكن ذات مساء أملك قرشاً ، و كانت بي حاجة إلى الشراب ، فأخذت بعض مالك .

– تعال نتناول كأسا عندي هذا المساء .

تعرفت ذلك المساء إلى شالوميت الجميلة . كانت كأنها أقبلت من عالم مجهول ، كأنها رسالة حكمة الهية فائقة الكرم .

قالت شالوميت : « علينا أن نعثر على هدف ، أن نحقق نصراً . »

وأجاب باسم : « والأنسان ؟ .. والدم ؟ ... تريدين أن تنحري البشر من أجل إكليل غار ، أو طاقة زهر . البراري مليئة بالزهور ، وعرف الزهر أشد فوحاً حين يكون على أغصانه ! تريدين انتصارات؟ إحلمي ، إذن ، بالخلود الإنسانية المعلقة !... الانتصار غريزة بربرية يعيد

الإنسان إلى صفوف الحيوانات المتوحشة . إن كلماتك أنياب وأظافر ! وأنك لمخلوق بشري ، لا ذئبة ! »

– لكم أحلم بارتداء الكاكي ، والسير تحت علم ما ، أي علم ، لا فرق !

ثم تحدثت إلى شالوميت عن الشعر ، عن الأشعار ، عن الأغاني. أحسست أني منجذب إليها وأنها منجذبة إلي . كنا نلتقي أحياناً ، ونحلم ببيت صغير ، وأطفال يلعبون في حقول قريتي النائمة في حضن السهل المخضوضر الأحلام .

أنهيت دراستي ، وأقمت عيادة في قريتي ، وكنت أعود بين الحين والحين إلى دمشق فألقى باسم ولطيفة وشالوميت .

كان باسم ينحل . وفيما يزداد زبائنه ، يتهالك باستمرار. وكان له طفلان وطفلة حتى ذلك الحين . وكانت لطيفة تعشق شاباً مسيحياً ، وكان عليها أن تواجه مشكلة موسية . أما حاييم شقيقها فقد التحق بالهاغاناه في فلسطين . وكان ابناء حيها يتجنبونها ، وخطيبها يؤجل الزواج . لقد فقدت بهاء الشباب ، وغدت عيناها السوداوان كابيتين . أما شالوميت فكانت حائرة بين أطفال يلعبون في الحقول ، وبين إكليل غار تحت علم ما .

ذهبت عام ١٩٤٨ بعد الهدنة الثانية إلى دمشق ، ولقيت باسماً منهارا . مدّ إلي كفاً ضعيفة رخوة . سألته : « كيف أنت ؟ » فانفجر باكياً . حاولت أن اهدىء من روعه ، لكن نحيبه تملك منه ثانية . قال لي : « أتعلم أني راحل ؟ »

– أوه ...

– إلى فلسطين ...

– أنت ؟

– نعم أنا ، فلم يعد لي خيار . أنا ليست لي شجاعة لطيفة .
– ماذا تريد أن تقول ؟
– لقد انتحرت !
– ماذا تقول ؟
– بلى، انتحرت . رحل أخوها الثاني إلى هناك . كانت تتألم وتود أن تتمرد ، وأن تؤكد موقفها الذي أختارت ، دون أن يكون ثمة شك في ذلك . انتحرت لتثبت لكل من عرفها أنها ترفض الحقد . لو كانت لي شجاعتها ، لما ترددت . فهل تفهم اليوم لماذا لم أكن أريد أن يكون لي أطفال ؟ يشبهني كل الناس ، لكني أشعر أنهم حذرون ، أرى في عيونهم نقصاً في الثقة ! وزبائني لا يأتون إلي ليجدوا فيّ الصديق والأب ، بل الطبيب الرخيص الأسعار . احيي جيراني فيردون ، لكن بغير ابتسامة عام ١٩٤٠ . سأرحل ، سأذهب إلى فلسطين . سأتمرد على طريقتي . سأقطن قرية عربية ، ولن أتلفظ بكلمة عبرية ، ما أن تبارح قدماي هذه الأرض .

قلت له : وشالوميت ؟ إنها لم تكتب إلي منذ زمن ، ولا تجيب على رسائلي .

– الحقيرة .. لقد اختارت الكاكي تحت علم ما . وقد علمت أنها قتلت والرشاش في يدها .

لم أر باسماً بعد ذاك . ولن أراه ، في ما اعتقد . إني أجهل كل شيء عنه ، لكني مقتنع أنه شقي حتى اليأس .

خرجت من عنده إلى مقهى كنت أرتاده أحياناً ، وسألت عن نادل اسمه يوسف . وجدته سكران وهو الذي لم يكن يشرب قط . كان يهذي : تركني ابنائي ... ابناء الكلب ... لا أحد يصدقني .... وأمهم زناء ... سأقتلها . »

سألت صاحب المقهى : ما الذي حدث له .

– تركه كل أبنائه ورحلوا إلى فلسطين . وهو يعتقد أن الناس يظنون أنه المسؤول عن رحيلهم . لذلك يظل سكران ويروي قصته لكل الناس . وهو في الواقع لا يستطيع العمل ، لكنك تعلم أنه يعمل لدي منذ أكثر من ثلاثين عاماً . ومهما يكن من أمره ، فسأحتفظ به . فبفضله نجحت في أعمالي .

عالج كثيرون قبلي موضوع فلسطين . وسيتحدث عنه كثيرون بعدي . وقد تمضي هذه الانطباعات السريعة التي أسجل دون أن يعبأ بها أحد ، لأن العالم دائماً ، مثل شالوميت ، يحلم بالدماء ، والضحايا ، وبأكليل غار تحت علم ما ، أي علم ... وسيهرق حبر كثير في معالجة قضية فلسطين ، وسينقسم العالم تجاهه إلى معسكري مراقبين ، أشبه بمشاهدي حفلة مصارعة ، يجتذب فيها كل مصارع عاصفة من تصفيق جانب من الجمهور وحماسته . ولكن الجمهور سيتفرق في نهاية الصراع ، بعضهم إلى المقهى ، وبعضهم إلى الدرس ، وبعضهم إلى النوم قرب الحبيبة . أما المتصارعون فيمضي كل منهما ليلته مرهق الجسد ، متحفز الأعصاب . الغالب والمغلوب يقضيان الليل معذبين . لأنهما وحدهما أضاعا بعض حيويتهما وفتوتهما .

قرأت كتباً عديدة ، أكثرها يناصر القضية الاسرائيلية . وما من برهان في أحدها إلا وتجد ما ينقصه في الآخر ! يزعم بعضهم أن لإسرائيل الحق في طرد العرب من فلسطين ، لأنهم كانوا غزاتها منذ آلاف السنين ، ويسألون العرب أن يعودوا إلى حيث جاؤوا ، إلى الصحارى والخيام والجمال ... فإذا قلنا لهم أن الصحراء لم تعد خياماً وجمالاً ، بل اصبح فيها شعب يبني مستقبله في جدية وبساطة متناهيتين ، لم يصدقوا ذلك . إنهم ببساطة يدعوننا إلى الرحيل ... وهم في الواقع ،

قلما يكترثون إلى أين سنرحل . فإذا قلنا لهم أنهم يدفعون بنا دفعاً إلى الحرب ، لم يفقهوا قولنا ! إن علينا ببساطة أن نرحل ، فليس لنا حق في الجبل والشجرة والنبع ...

بعضهم يريد لنا أن نقتل اليهود ، لأنهم يهود . ولكننا الشعب الوحيد ، خلال التاريخ ، الذي حفظهم من الإضطهاد . ولقد عاش اليهودي العربي كأي عربي آخر ، ولم نسأله يوماً سبب كونه يهودياً ، لأنه لم يسألنا يوماً لماذا كنا من دين آخر .

وما الحالات التي سقتها آنفاً إلا حالات أفراد عشت معهم وعاشوا معي . إنهم يحسّون مثلي ، إن لم أقل أكثر مني.فقد اضطرب وجدانهم ، واقتلعت جذورهم من التاريخ . اني لعلى يقين من أني لم أكن لأعلم أنهم يهود لولا قضية فلسطين . وما كان ليعنيني أن أعرف ، أو يعنيهم أن يطلعوني على ذلك . بل أستطيع القول إن بعضهم كانوا يهوداً ، لمجرد كون آبائهم يهوداً . فباسم لم يصلّ أبداً في الكنيس . وكان يدلف ببساطة إلى الجامع الأموي حيث كنا نجتمع لنعد تظاهراتنا .

كثيرة هي الفصول التي كتبت لتنقض النظريات المعاكسة ، فمن كان على حق ؟

بحثت في تلك الكتب عن الإنسان ... الإنسان البسيط الذي يريد أن يحيا دون صراع ،أو خوف ، أو تهديد ، أو رعب ، أو حرب ، في عالم ناء عن الحقد. وقليلة هي المؤلفات التي طرحت قضية مصير إنسان تلك المنطقة الحساسة في عالمنا ، فخرجت من قراءاتي مفعم النفس بالخيبة المريرة . إن سبب خيبتي ليبدو لي بالغ البساطة ، إذ حاولت أن احلل تلك الوقائع بمنطق الإنسان .

منذ العهود البربرية يسيطر على التاريخ منطق الأمر الواقع .... بل ، منذ تلك العصور التي ما تزال حية في نطاق حضارتنا الحديثة .

نكاد نعاصر عهد ارتياد القمر . وسنفيق ذات صباح ، لنقرأ رواية ، حادثة حب ، شبيهة بـ« آتالا » يتمثل الديكور فيها بمنحدرات جبال الكوكب الذي كان يقدسه أجدادنا . وسنعجب بتقدم الحضارة وندهش له . ولكن ، هل تقدمنا إنسانياً ؟

سنقول ببساطة لسكان القمر ، لو وجدوا : « نحن هنا ، وهذا منطق الأمر الواقع. » غير أن هؤلاء لن يعنونا في شيء ، لأنهم ليسوا بشراً ، وليس من حقهم أن يعيشوا .

وإسرائيل هناك ، ذلك واقع . وقد توسعت إسرائيل ، وهذا واقع كذلك . وستحاول أن توسع حدودها . وذات صباح ، قد أستيقظ ، لا لأقرأ حادثة حب شبيهة بحادثة اتالا على منحدرات جبال القمر ، بل لأجد مصيراً اختاره لي قدر غريب . سأجد نفسي نازحاً ، دون وطن ، أو عائلة ، بل دون إسم ، ضائعاً مشرداً ، زمني بلا مكان ، وحياتي دون وجود . كل ذلك لأن الأمر الواقع لم يعترف بصفتي إنساناً ، ذا حق ، ككل إنسان ، بوطن وعائلة واسم . ثمة أمور بسيطة لا أقوى على فهمها . فالشعوب التي اضطهدت اليهود تساعد إسرائيل اليوم بكل الوسائل . حاولت إحدى البواخر المحملة باليهود ، في أثناء الحرب الكبرى الأخيرة ، أن تلقي مراسيها في ميناء ما . ظلت طويلاً تجوب البحار من مرفأ أوروبي إلى آخر ، لكن أيا منها لم يستقبل تلك الشحنة الإنسانية . هذه المرافىء ذاتها تحمل اليوم المواد والأسلحة الحربية لإسرائيل ، كي تمتلىء مستشفياتنا بمشوهي النابالم .

أرى أن ثمة ميلا جديداً ينبثق في أوروبا نحو الإضطهاد ، كذلك الذي يستيقظ في الشعوب حين ترتد إلى بدائيتها . ما الذي سيحدث عندئذ ؟ قوافل جديدة من النازحين ، وحروب أخرى في الشرق الأوسط .

أتساءل أحياناً عن نتيجة تلك الحرب . بعد كل انتصار إسرائيلي يزداد عدد النازحين . وسيكونون ملايين بعد سنوات . لقد كانت الحرب دائماً، خلال التاريخ ، سبب الضحايا والإنكسارات . فماذا سيصنع النازحون لو قدر لهم أن ينتصروا مرة واحدة ؟ إن خيالي عاجز عن تصور ذلك .

قد يرى القارىء أني منحاز ، وقد يكون ذلك صحيحاً . ذلك أن الخوف يدفع بي إلى منطق لا يقوى على إدراكه مشاهدو حلبة الصراع . منطقي هو منطق المصارع الذي يلقي بنفسه على فراشه ويحاول النوم عبثا ، لأن وجه خصمه حياله أبداً .

نعم ، قرأت كثيراً من الكتب والمقالات ، وفهمت منطق كتابها . وفكرت بمصير الإنسان العربي أو الإسرائيلي في الشرق الأوسط ، فلم أقع إلا على منطق الأمر الواقع.إن فلسفته لبسيطة : على الأحياء أن ينسوا ، أما الموتى فلهم القبور !

الأمر الواقع يتطلب منا أن نقبل ما حدث ، وما يمكن أن يحدث ... أو أن نظل نواجه الذبح والتقتيل. وإذا كان التعلق بالأرض أعمق غرائز الحياة ، فإن مسيرة تاريخنا ستظل نسيج الحقد الأبدي .

يسألنا العالم أن ننسى كل ما قاله الأنبياء ، والمفكرون ، والشعراء الصوفيون ، حول الحب .

يسألنا أن نبدل من طبيعتنا لنعترف بالأمر الواقع وأحقاده .

يسألنا العالم أن نغمس أيدينا في النار والدم، حتى دون أن نأبه بمن نقتل.

نحن شعب في طريق التطوير التقني ، ولكننا شعب متطور إنسانياً ، وحضارته عريقة الجذور في التاريخ ، ولم تتبدل قيمها . ولكن الأحداث تحدونا على طرح قضايا حول ما يجب أن نفعل . الإنسان أحد مثلنا العليا ، فهو هدف بحد ذاته ، فماذا سيكون وضعنا تجاه الإنسان

نفسه ؟

لقد أثرت الأفكار ، عبر التاريخ ، على شعبنا أكثر من أي شعب آخر . وكانت الأفكار عاملاً أساسياً في جعلنا نتقبل الطغيان ، والاضطهاد . كانت عاملاً أساسياً في ما يقبل به شعبنا أو ما يرفضه .

عاش الأنبياء ، يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين ، رسالاتهم ، ولم يعيشوا لغيرها ! لم تضطهد المسيحية أحداً في بلادها ، بل أحبت الجميع . ومع ذلك ، فقد قضت في بلاد أخرى على آلاف المخلوقات الإنسانية باسم الحب .

ما سيقوله الأنبياء الجدد ، وقد اصطبغت رؤيتهم بالوان قنابل النابالم وقبور النازحين ؟ ما سيقدمون للعالم من أفكار جديدة ، ولجماهيرنا من غذاء روحي ؟

إني أرفض ، مع ذلك ، ورغم كل ما حدث ، أن أغمس ريشتي في محبرة الحقد . من هذا المنطلق ساعالج القضية الفلسطينية .

١

كيما نفهم ما يجري الآن في الشرق الأوسط لا بد لنا من أن نقف قليلاً مع التاريخ ونناقش بعض المفاهيم .

شاء الفلاسفة، في العصور الأخيرة ، أن يجنبوا الانسانية الخطأ التاريخي لما يمكن أن ينشأ عنه من نتائج ، فحضّوا المؤرخين على لزوم الحياد المطلق في دراساتهم واستنتاجاتهم ، كيما يساهموا في تكوين المفاهيم الصحيحة، تدفعهم الى هذا رغبة عميقة في سيادة العدالة والسلام. ذلك أن الحروب لم تعد غزواً لمجرد الغزو وإنما – كما يزعم كثيرون – في سبيل بعض المثل . وعلى هذا عمد قادة الدول للبحث عن ذريعة ، فجعلوا من التاريخ مطية سهلة لمنطق الاهواء .

الحضارة الحديثة ترفض جنكيز خان وتيمورلنك ، ولكنها قبلت حرب ١٩١٤ باسم القانون الدولي ، وحرب ١٩٤٠ باسم الديمقراطية .

كانت الحرب عملاً غريزياً يؤكد فيها الإنسان وجوده ، حتى امتدت جذور الديانات البوذية واليهودية والمسيحية والإسلام ، وتشعبت في جماهير البشرية ، فحصل تطور كبير في عقل الإنسان ،وفي كل ما له علاقة بالعمل الجماعي من أي نوع ، واختلفت قيم كثيرة ، وألقى الإنسان على نفسه أسئلة كبرى من أهمها : لماذا الحرب ؟

أصبحت الحرب بعدئذ، على طريقة بابل ونينوى ، عملاً همجياً . وما عاد الملوك يتبجحون على طريقة نظير بانيبال وأشور بانيبال بسلخ جلود الأسرى وتهديم المدن وإحراقها ، بل أخذوا يجدون مبرراً للحرب يعلنون قبل القيام بها أنهم يقومون بعمل إنقاذي لمصلحة البشرية .

غير أن مدناً كثيرة أحرقت وهدمت ، وحضارات وأوابد أنطوت . وقد ذبح الخلق وشردوا، وبات أمن الإنسان في خطر دائم. وقد لا تسلخ جلود البشر بعد الآن ، غير أن هيروشيما ليست سوى المدينة الأولى التي سحقتها الذرة من أجل الديمقراطية .

لست في هذا الصدد في سبيلي إلى مناقشة الديمقراطية والتساؤل عن قيمتها . ولكني قرأت عنها كثيراً ، فما وجدت صفحة واحدة مما قرأت تبرر زوال مدنية في زمن جد قصير وباسم الديمقراطية ومن أجلها .

يظل هنالك تساؤل يثقل على فكر الإنسان : إذن، ماذا نفعل إذا هددت الديمقراطية ؟ أجاب غاندي باللاعنف ، ولكن هند (انديرا) غاندي نفسها تتسلح وتقاتل أحياناً . ماذا نفعل إذا هددت الديمقراطية ؟ أبسط جواب هو الحرب لأننا نكون عندئذ على حق . هوذا تعليل تاريخي قد يقنع بعض البشر من الأجيال المقبلة ، ولكنه لا يقنع أبداً موتى هيروشيما، ومن ظل من هيروشيما علىقيد الحياة، والمدن الأخرى التي يتهددها نفس المصير .

لا شك أن فلاسفة التاريخ يقفون أمام حرج كبير : هل كان تهديم هيروشيما مقبولاً من أجل ربح حرب تكون جسر سلام أبدي ؟ أم كان ينبغي ألا تلقى عليها القنبلة ولو طال أمد الحرب سنوات أخرى ؟

الرأي العام يجنح الآن الى رفض مبدأ تهديم هيروشيما. لكن التاريخ لن يعدم السياسيين الذين يأخذون بالرأي الأول ، والقادة العسكريين الذين يجهدون، في بحثهمعن أكاليل غار مصبوغة بالدخان والدم، لتحويل الرأي العام بما لديهم من وسائل .

ليست غايتي من هذه المقدمة الصغيرة أن أزعم القدرة على تبديل مفاهيم الإنسان ، وبالتالي مقاديره . لكن واجب المفكر أن يقول رأيه في خطأ تاريخي .

إن كثيراً من أحداث التاريخ الماضية قامت على أخطاء ، وسوف

يشهد المقبل من تاريخ الإنسان أن الأخطاء التاريخية تبني جزءاً كبيراً منه ، لأن العنف المشفوع بالتكنيك الدعائي ، والتأكيد التربوي على الخطأ ، يجعلان من الوهم حقيقة يعيش البشر تحت خطرها . ولو حاولنا أن نقتلع من ذهن الإنسان كل ما حشر فيه من أخطاء ، لوجدنا المهمة شاقة . غير أن واجب الفكر أن يحاول ولا ييأس ، لأنه الوحيد الذي يستطيع إنقاذ الإنسان من الكوارث . وأمانته لرسالته تحدو به للتمرد على السياسي والعسكري وعلى المكيافيلية التي استطاعت أن تحقق نجاحات كثيرة ، ولكنها لم تنجح أبداً في أن تحقق للإنسانية شيئاً من مطامحها الحقيقية وهي : أن الواسطة المبررة تسيطر على الغاية . والقول إن هذه تبرر تلك يزيل عن المثل الأعلى نقاءه الروحي ويجعل منه هو نفسه ، واسطة ، فلا يحلم الإنسان بتحقيقه وإنما يعمل لزواله .

أستعرض في هذا الفصل الشرق الأوسط من الناحية البشرية وانعكاسها على الأوضاع السياسية ، حتى قيام الحرب الأخيرة بين العرب وإسرائيل . ولن أتحدث إلا عما يهمنا من الموضوع . ولو شئت أن اسهب لاضطررت لكتابة مجلدات .

يحار المرء ، عندما يتأمل هذه المنطقة من العالم وكيف تراكمت فيها الموجات البشرية، كما يحار المنقبون عن الآثار عندما يحفرون ترابها. فهم كلما غاصوا في التربة وجدوا آثاراً أقدم وحضارات بادت . فالماضي لا نهائي الغنى : شعوب تأتي من أطراف الصحراء ، حتى إذا فاءت إلى ظل الشجرة وارتاحت عند ينابيع المياه ، بنت الأوابد ، وشادت المعابد . حتى إذا جاءت موجة بشرية أخرى ، بنت حضارة جديدة على حطام أخرى بادت .

جاءها الغزاة من كل أطراف العالم ومروا ، تاركين آثارهم بعد أن امتزجوا بالسكان امتزاجاً يختلف بين غازٍ وآخر .

وضع الشرق الأوسط الجغرافي جعل منه ضرورة محتومة لكل فاتح تغريه آسيا أو أفريقيا أو أوروبا ، فكان دائماً الجزء الشهيد من

العالم ... حمل إكليل الشوك منذ الأبدية ... لكنه كان مع ذلك مهد العالم المتمدن وحضاراته ، لأنه رغم النكبات كان يظل مستعداً للعطاء الإنساني ، يعتبر نفسه مسؤولاً عن مستقبل لا شوك فيه ولا دماء .

صلبت هذه المنطقة أكثر من مرة ، وشربت أرضها الفقيرة بالماء من دم النبيين والأقوام عبر تاريخها ، غير أنها ظلت على أمانتها للخير ، تبحث عن منح الإنسانية غذاءها الروحي. فالإنسان فيها عطاء فقط .

جهد العلم في أن يحصي القبائل والشعوب التي قطنتها، فلم ينته حتى الآن إلى نظرية نهائية : الأشقر والأسمر ، مستطيل الجمجمة وعريضها، تجده أنى حللت حتى في العائلة الواحدة .

والعلم يحاول دائماً أن يبسط موضوع دراسته كيما يصل إلى نظرية . فيجزىء الموضوع ويرده إلى عناصر أولية ، غير أن أية فرضية عن الوضع البشري توضع بالنسبة لتلك المنطقة تحمل بذور أخطاء جسيمة. ولا بد للعلم، قبل البداية بالفرضيات ، أن يتصور الحركة الدائمة السريعة للشعوب : بناء الحضارات وزوالها .

وأنا لا أريد أن أضع نظرية هنا عن أصل شعوب الشرق الأوسط وإنما أود أن أبين بعض الأخطاء الشائعة التي أدت إلى كوارث .

أظن أن أول من استعمل كلمة سامية هو العالم الالماني شلوتزر (Schlozer) . ذلك حين أراد أن يدرس أصل لغات المنطقة ، فقسمها إلى نبعين تبسيطاً للدراسة : سامي وحامي . ومنذئذ استعملت كلمة السامية . ولا أعني بذلك أني أنسب اللاسامية (Anti-semitisme) الى شلوتزر ، غير أنها أخذت سبيلها بعده إلى منطق وأدب معينين. ونظرة بسيطة إلى تاريخ المنطقة تثبت أن الشعوب والحضارات وجدت فيها قبل سام وحام بمدة طويلة .

حين بلغ إبراهيم سيشم (نابلس) سمع الرب يقول له « لابنائك واحفادك أمنح هذه البلاد» . وقد اتخذ الصهاينة هذا القول ليدعموا حقهم في احتلال فلسطين ، مدعين أنهم احفاد إبراهيم . وأنا قمين بفضح هذا الخطأ الذي بني عليه منطقهم .

لم يكن إبراهيم وحده حين ترك مدينة أور . فقد رافقه خمسمائة رجل ، وهو عدد ضخم في ذلك العهد . وبحسب أكثر النظريات صحة ، ينحدر إبراهيم وصحبه من قبيلة أقبلت من الصحراء العربية لتستقر في أور . ولا تزال الدواعي التي حملتهم على مغادرتهم بلدهم الأصلي غامضة حتى اليوم . في ذلك الوقت لم تكن فلسطين ولا الأردن صحراويين ، وكان على إبراهيم أن يشن الحرب ، فلما دحره الكنعانيون كان عليه أن يجتاز نهر الأردن ، لذلك يبدو لي أن نسبة اليهود إلى إبراهيم عن طريق إسحاق ، ونسبة العرب إلى إسماعيل لا ترتكز على قاعدة علمية صحيحة .

ولم يكن اندماج القادمين الجدد ببقية سكان البلاد سهلاً . وما كان هؤلاء القادمون حريصين على أصلهم وتقاليدهم فحسب ، بل كانوا ايضاً يصرون على أن يميزوا أنفسهم عن الآخرين ، وعلى ان يحملوا الشعور الدائم بأنهم غرباء . لذلك ، فقد أرسل إسحاق ابنه يعقوب ليبحث عن فتاة من بلاد أجداده ليزوجها منه .

وقد قسمت فلسطين في عهد يوشع إلى اثنتي عشرة عشيرة لأسباب إدارية ، واعتمد في هذا التقسيم على أساس قبلي ، لا على طبيعة الأرض ، حسب منطق العصر . وكانت اثنتان من تلك القبائل – قبيلة يهوذا وقبيلة بنيامين – تمثلان حتى عهد سليمان ، الأرستقراطية ، وتتميزان عن الأخريات بطبقتهما وأصلهما ، وتشكلان السلالة الحقيقية لإبراهيم وصحبه . وقد ظلتا زمناً طويلاً الوحيدتين اللتين تؤمنان بعقيدة التوحيد ، بينما كانت القبائل الأخرى تتأرجح بين اليهودية والوثنية . سليمان نفسه ، تقول التوراة ، كان يصلي اسبوعاً في الهيكل ، واسبوعاً في معابد أقيمت لتقديس مقدسات زوجاته .

لم تكن تلك العشائر في وئام دائم بل كان امتزاجها صعباً أحياناً . إبراهيم فضل أن يرسل ابنه إسحق الى مدينة أور ليتزوج من هناك . كان يجد نفسه غريباً عن سكان المنطقة بعد سليمان . وبنتيجة هذا التمييز ، انقسمت الدولة إلى اثنتين : يهوذا وإسرائيل . وثارت بقية

الأسباط ضد عشيرة إبراهيم ، حتى وصل أمر الخلاف بالدولتين إلى الحرب أكثر من مرة .

في عهد الرومان تعاونت الأسباط الأخرى معهم . أما سبطا يهوذا واسرائيل فقد حاربا ضد الاحتلال . واعتبر يوحنا المعمدان والمسيح ثائرين ، ولذلك أعدم الأول وصلب الآخر بطلب من الأسباط الأخرى .

أراد المسيح أن يوحد اليهودية ، فانتقى حوارييه من عامة الشعب وشرب من يد السامرية ، فرأى هيرودوس في ذلك خطراً على عرشه ، رغم أن بيلاطس وجد في طلب هذا الداعية الى اللاعنف شيئاً عجيباً . وتشير الأناجيل إلى فترة اختفى فيها المسيح رغم أنه كان طفلاً ، خوفاً من هيرودوس لا من الرومان ، لأنه من نسل إبراهيم ومن عشيرته .

نرى في الأناجيل أن شعب الجليل والقدس ذاتهما خرجوا يستقبلونه ويرحبون به ، ونرى بعد ذلك أن الناس انقلبوا عليه وطالبوا بدمه . ذلك أمر يستدعي الدراسة . والذي أقدر هو أن الخلافات القديمة جعلت أبناء عشيرته يؤيدونه ، ودفعت بالآخرين للنقمة عليه . وليس لدي ما يثبت ذلك علمياً بصورة دقيقة ، غير أني أجده أقرب إلى الفهم . وأنا أعرف عقلية الشرق الأوسط التي قد تتبدل ، لكن بعض تقاليدها القديمة تظل حية في سلوك البشر .

ولا تنس بعد ذلك أن المسيح لم يتكلم اللغة العبرية وإنما الارامية ، لغة سبطي إبراهيم والعشائر التي ينتمي إليها .

انتشر الدين المسيحي بعد المسيح في الجليل والقدس ، أي في المنطقة التي سكنها سبطا إبراهيم خاصة ، وفي المناطق التي تتكلم الارامية عامة ، كحوران ودمشق ، والتي رأت في المسيحية ديناً يميزها عن بقية الامبراطورية الرومانية . وأخذت الطائفة المسيحية الجديدة تحتمل اضطهاد الرومان من جهة ، والحكم المحلي من جهة أخرى .

ثم أخذت فتوحات أخرى تأتي من الصحراء . وكانت تتكلم اللغة العربية ، فدان أكثرها بالمسيحية . وقد حاول سكان البلاد أكثر من

مرة القيام بثورات ضد حكم روما انتهت بالفشل ، أهمها ثورة زنوبيا ملكة تدمر .

حتى إذا جاء الإسلام ، رأوا فيه محرراً لهم من حكم بيزانطية ، ولذلك سهل على الإسلام احتلال المنطقة . لاحظ ،مثالاً على ذلك ، جواب ملك دمشق ، جبلة بن الأيهم ، للقائد العربي المسلم ، عبيدة بن الجراح ، حين أرسل له هذا يقول : هل تحاربون مع أبناء دينكم أم تحاربون معنا ، يا أبناء الأعمام والأخوال ؟ فكان الجواب : بل نحارب معكم ، يا أبناء الأعمام والأخوال .

أما في فلسطين فالأمر لم يختلف كثيراً . وكان من أسباب النصر في معركة اليرموك أن جزءاً من الجيش البيزنطي انضم للعرب . وعندما دخل العرب القدس تحولت أكثرية السكان إلى مسلمين ، لأن العرب لم يعتبروا ، بالنسبة للمنطقة ، غزاة ، وإنما اعتبروا محررين من حكم بزنطية . لذلك استجاب لهم أهل البلاد .

ألح كثيرون على أن عرب فلسطين دخلاء وأنهم جاؤوا مع الغزو الإسلامي ، ولا بد لذلك من أن يرحلوا ! مع ان استقصاء التاريخ يدل على أنهم فيها منذ عاش عليها البشر ، وأن فيهم من دم الذين كانوا يهوداً ثم مسيحيين ثم مسلمين أكثر بكثير مما في دم اليهود القوقازيين .

وأعجب من ذلك أن تجعل الصهيونية من نظرية العرق حقيقتها الأولى ، مع أن اليهود هم أكثر من تحمل ارزاء هذه النظرية .

ثم ماذا تحمل نظرية شعب الله المختار المنحدر من صلب واحد من صحة تاريخية ؟

لست في هذا الصدد بحاجة إلى القول إن النصوص التوراتية لا يمكن أن تؤخذ كحقيقة علمية ، ما لم يؤيدها ويثبتها العلم .

سكنت فلسطين قديماً أقوام متعددة : السومريون والحثيون القادمون من آسيا الصغرى ، والفلسطينيون القادمون من قبرص ، وكذلك الأكاديون والأشوريون والبابليون مما بين النهرين ، والفينيقيون

القادمون من لبنان، والكنعانيون والاراميون . وهي أقوام منها سامي ومنها ما هو غير سامي، امتزجت بعضها ببعض عبر التاريخ .

يضاف إلى ذلك اليهود القوقازيون، واليهود العرب ، وخاصة اليمنيون الذين كان الدين اليهودي بالنسبة لهم دين الدفاع عن الأرض ضد الحبشة المسيحية التي احتلت بلادهم . وقد اسلم جزء منهم ، لكن جزءاً بقي يهودياً ، آثر عدم الاختلاط مع غيره . ولو تكلمنا عن شيء اسمه النقاء العرقي، لما وجدنا أبداً أناساً أنقى عرقاً من اليهود اليمنيين ، ولكنهم لا يمتون إلى يهود فلسطين بصلة إلا بالقدر الذي يمت به الفينيقيون إلى اليمن .

ولو شئنا أن نحصي الأقوام التي قطنت فلسطين اوارتادتها ، لوجدنا في دم اليهود الاوائل من دم الحثيين والفلسطينيين القبارصة أكثر مما فيها من الدم السامي .

كما ان أقرب اليهود للسامية دانوا بالاسلام لأنهم اعتبروه محرراً لهم واستمراراً للتقاليد السامية . كان بالنسبة لهم تتمة للثورات الصغيرة التي قامت في عهد الرومان[1].

قرأت في أكثر من مقال تساؤلاً عجيباً : لماذا لا يعود العرب إلى صحرائهم ؟ لماذا لا يسمحون للاسرائيليين بسكنى فلسطين ؟ فكأن الرحيل عنها شيء مفروض عليهم . وقرأت مقالات تسميهم

(١) يرى من ذلك أن مزاعم الصهيونية لا تثبت أمام البحث العلمي البسيط ، وما تكلمت عنه بات من بديهيات التاريخ . وقد يقول قائل والتوراة ؟ إنها ، ككل الكتب الدينية ، يجب أن تظل ضمن حدود المعبد والصلاة ، ولا يجوز أن نقحمها ميادين النظريات السياسية أو العلمية لأنها معرضة آنئذ لتناقضات كثيرة ، إن قراءة سفر التكوين على انه شعر وصلاة أعطى المؤمن كثيراً من الرجاء وثبته على ايمانه ، أما إذا قرأناه على انه علم وقارنا بينه وبين ما يتعلمه الطالب في الصفوف الأولى ، دفعنا بالمؤمن بكل بساطة للإلحاد وجردنا جزءاً كبيراً من البشر من صفاء المؤمن بالدين .

مهمة الكتب المقدسة أن تزيل النزاع بين البشر لا أن تكون وسيلة للنزاعات المسلحة . إن اتخاذ الكتاب الديني وسيلة وتبريراً للحرب هو في حد ذاته تهديم لما هو مقدس بنظر الجزء الأكبر من الإنسانية .

بالمحتلين وأخرى بالمعتدين ، مع أنه لا يوجد شعب في العالم أقدم منهم وأشد ارتباطاً بالأرض . والخطر بما ذكرت من تسميات، على عدم جديتها ، أنها ترتسم في عقل جمهور القراء كحقيقة وكواقع .

سألني أكثر من أوروبي : لماذا لا تتركون فلسطين لهؤلاء اليهود المساكين يعيشون فيها بسلام ؟ احتللتم أرضهم وطردتموهم ، هذا غير إنساني !

ثم إذا ذكرت له ما تحدثت عنه آنفاً ، فغر فاه وقال : كنت أجهل ذلك ! والرأي العام في أوروبا إما مضلل وإما عارف بحقيقة الأمر ، ولكنه يؤيد رحيل العرب عن فلسطين لسببين ، أولهما لأنه – عن تعصب – يريد الخلاص من اليهود ، وثانياً لأن في أعماقه تقييماً غير إنساني لنا نحن العرب يشبه تقييم غزاة أمريكا الأول للهنود الحمر . لم يأبه أحد لوجودهم ، بل لم يعتبرهم كائنات بشرية . وقد شاهدت أفلاماً أمريكية تروي قصة القتل الجماعية ، اي ذبح سكان قارة بكاملها. والعجيب أن النظارة كانوا يصفقون للقتلة . أما التبرير فهو أن الهنود الحمر همجيون لا ضرورة لوجودهم . أما حضارة الانكا ، فما أقل من يتحدث عن أوابدها العظيمة !

والآن يختبىء الهنود الحمر في زوايا ضائعة من أرضهم يتفرج السواح على من لم تقطع السيوف رقابهم لسبب أو آخر ، كما يتفرجون على آثار متحف .

والآن لننتقل إلى مشكلة العودة .

لما سيطرت روما على العالم المتمدن شهدت امبراطوريتها تنقلاً بشرياً دائماً ضمن حدودها . وفي سنة ٧٠ للميلاد هدم الرومان هيكل سليمان، فكان ذلك بداية هجرة جماعية من فلسطين . وبعد أن أصبحت روما مسيحية أخذت الجماعات التي حافظت على دينها ، تنغلق على نفسها شيئاً فشيئاً وتفرض الغربة على نفسها عن كل ما يحيط بها . وشهدت هذه المرحلة تقلبات كبيرة في المجتمعات الدينية ، وخاصة بعد ظهور

الإسلام : مجتمعات برمتها تحولت من الوثنية إلى اليهودية أو المسيحية أو الإسلام ، ثم يهود تنصّروا أو أسلموا . واستمر هذا التحول الديني حتى زمن قريب . فارتد اليهود القوقازيون عن الوثنية إلى اليهودية في القرن التاسع ،حينما آمن ملكهم والطبقة الارستقراطية باليهودية .

وخرج العالم المتمدن من القرون الوسطى وقد بات الشرق الأوسط بغالبيته مسلماً وأوروبا مسيحية .

وتميزت القرون الوسطى بالحروب الصليبية : الشرق الأوسط المسلم يدافع عن وجوده المرتبط بدينه ، وهدف دفاعه القدس ، وأوروبا المسيحية تحلم بتحرير المدينة المقدسة من « الكفرة » .

وكان أمل شعوب أوروبا الكبير إقامة دولة السماء على الأرض ، مما ادى الى مظالم كثيرة والى إقصاء اليهود عن مجتمع يدين بدين آخر ويعتبرهم مسؤولين عن صلب المخلص . وهكذا اقام اليهود في بلدان لم تعطهم حق المواطن ، لأن الدولة مسيحية البنيان والدين المسيحي جديد على أوروبا التي كان الجهل متفشياً فيها ، بحيث أدى إلى ضيق في فهم الدين . وكان التعصب نتيجة حتمية لذلك .

وشهدت أوروبا في تلك العصور اضطهادات نادرة في التاريخ ، رزح تحتها المسلمون واليهود ، وبعد ذلك البروتستانت . وبعد فترة من الزمن نسي المسلمون محاكم التفتيش ونسي البروتستانت مذبحة سان برتلمي . غير أن ذاكرة اليهود ظلت تحفظ دقائق المظالم ، وتتجمع على نفسها في أحياء أخذت ، عبر التاريخ ، طابعاً غريباً عما يحيط بها ، مؤكدة على غربتها عن العالم المحيط بها .

ولو خطا اليهود خطوات بسيطة نحو الذين يساكنونهم الأرض لتبدل جزء كبير من حياتهم ، ولكنهم جهدوا في أن يباعدوا بين مجتمعاتهم الصغيرة وبين التطور : لم يتزاوجوا إلا قليلاً مع السكان ، ولم يتصلوا بهم إلا بالقدر الذي تتطلبه شروط المعيشة .

وتميزت تلك الفترة بحدث أظنه أكبر تعبير عن علاقة العرب باليهود وتسامحهم معهم . عندما طرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٢ هاجروا

إلى البلدان العربية في شمال أفريقيا وعاشوا هناك مثل بقية المواطنين : تكلموا العربية ، وأقاموا البيع ، وتمتعوا بكل حريتهم ، وكان منهم المفكر والعالم والتاجر والطبيب والوزير . ونسوا هم أنفسهم أنهم أقلية نازحة ، وباتوا سواسية مع المواطنين ، لا فرق بينهم وبين الآخرين ، إلا أنهم يصلون في البيع والآخرون في جوامعهم . وظلت الأمور كذلك إلى أن قامت مشكلة فلسطين واستخدمت الصهيونية كل وسائلها الدعائية ، وهي كبيرة ، للتفريق بينهم وبين من حولهم . فمنهم من أغرته فهاجر إلى فلسطين وحمل السلاح ، وبقي قسم منهم يرزح تحت حالة نفسية غريبة في تاريخ الشعوب ، رغم أنهم يتمتعون بحقوق المواطن جميعاً .

أما في أوروبا فكان اليهود بلا وطن : تلك حقيقة تاريخية . ذلك أن فكرة الوطن كانت مسيحية . كان شارلمان ملكاً مسيحياً لدولة مقدسة ، وكذلك اوتو . وبقيت فكرتا الدولة والوطن غير واضحتين مدة طويلة من الزمن . حدود فرنسا لم تكن حتى لويس الرابع عشر واضحة . وكان الملك الشمس يحكم باسم الحق الإلهي .

وظلت المسيحية تنعكس على الدولة والمؤسسات الاجتماعية حتى الثورة الفرنسية التي أوضحت مفاهيم كثيرة ، وحملت بذور قيام دول علمانية قومية ، وأعطت اليهود الفرنسيين حق المواطن . وأخذت أوروبا تحذو حذوها وتتجه شيئاً فشيئاً إلى الديمقراطية والعلمانية ، وإلى أن يصبح السكان جميعاً مواطنين . ومثل هذا التطور لا يمكن أن يستمر دون هزات ، كقضية دريفوس . والتاريخ مليء بالاعتراضات الجماعية التي تحاول أن توقف عجلة التطور دون أن تنجح ، غير أنها من ضرورات التطور نفسه .

بدأ بعد ذلك جزء كبير من اليهود بالاستقرار ، ومروا بفترة ازدهار مادي واجتماعي ، فكان منهم مسؤولون كبار في مختلف الدول الأوروبية ، مثل دزرايلي . وحمل بعض منهم ألقاب النبالة ، وسيطروا شيئاً فشيئاً على أجزاء هامة من حياة أوروبا ، وخاصة في مجال الدعاية.

وكان منهم من اعتبر نفسه منتميا للبلدان التي يعيش فيها ، غير أن بعضاً آخر ظل يعتبر نفسه غريباً يربطه في البلد الذي يعيش فيه رباط المصلحة . ولقيت هذه الظاهرة قمتها في الحركة الصهيونية التي لم تكن تعني غير رفض مطلق للانصهار في شعوب اوروبا . وبذلك أكدت على استقلال اليهود وعزلتهم ، فطرحت تلك الشعوب على نفسها سؤالاً قد يكون له مرام بعيدة في المستقبل : هل اليهود منا أم غرباء ؟

أجابت الصهيونية على هذا السؤال بمؤتمر بال الذي دعا له هرتزل سنة ١٨٨٤ .

كان هدف هذا المؤتمر : البحث عن وطن لليهودي التائه كيما يستقر فيه .

رفض هذا المؤتمر عرض أوروبا على اليهود حقوق المواطن واعتبرهم غرباء بلا أرض ، يقيمون فيها منذ آلاف السنين إقامة موقتة ، مع أن مدة أقصر كانت كافية لهجرات أوروبية إلى أمريكا ، وبناء العالم الجديد ، وأوطان عديدة وحضارة .

هذه ظاهرة تاريخية غريبة لا يمكن أن نعزوها للاضطهاد فحسب ، وقد يكون الاضطهاد نفسه نتيجة من نتائجها . وأنا لا أدافع عن الاضطهاد ، غير أن الفكر الحيادي يجب أن يتساءل عن الأسباب جميعاً .

ظهرت في مؤتمر بال نزعتان : نزعة البحث عن أرض بلا شعب يقيم اليهود عليها دولتهم ، نزعة بناءة تريد أن تعمر جزءاً من هذا الكون ما يزال بحاجة الى ان تمر عليه يد الإنسان ، ونزعة أخرى تنادي بالعودة إلى أرض الميعاد، وتعتبر الفي سنة كأنها ليست من التاريخ، وترى أن سكان فلسطين طارئون ينبغي طردهم وبكل الوسائل . فهم ، في نظر اصحاب هذه النزعة ، محتلون دخلوا مع الفتح الإسلامي ولا بد من أن يعودوا الى الصحراء .

لا شك في أن جزءاً كبيراً من سكان فلسطين دخلوا مع الدين الإسلامي وامتزجوا بالسكان الأصليين ، لكنهم لم يطردوا أحداً .

دخل الإسلام القدس منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة . وفي ذلك الزمن كانت أوروبا غير أوروبا الحديثة من الناحية البشرية .

لقد وقعت معركة هاستنكس سنة ١٠٦٦ ودخل وليم الفاتح انكلترا . ومنطق النظرية الصهيونية يرفض حق الانكليز ببلادهم ، أما سكان الولايات المتحدة فأجهل أين يجب أن يرحلوا !

ترى، لماذا لم يناد أحد بهذه النظرية ؟ يبدو أن التقييم مختلف عندما يتعلق الأمر بالعرب .

كان في قرار مؤتمر بال نية ضمنية تعتبر العرب في فلسطين كائنات مباح قتلها وتهجيرها .

يقول هرتزل في كتابه دولة إسرائيل : «لنفترض مثلا أننا نريد أن نطهر بلداً من الوحوش الضارية . طبعاً لن نحمل الترس والرمح ونذهب فرادى في أثر الدببة ، كما كان الأسلوب في القرن الخامس في أوروبة ، بل سننظم حملة صيد جماعية ضخمة ومجهزة ، ونطرد الحيوانات ونرمي وسطها قنابل شديدة الإنفجار» .

وهكذا بدأت بعد مؤتمر بال حملة الصيد !

٢

كانت ظروف تلك الفترة التي بدأ الصهيونيون يعملون فيها على إنشاء دولة لهم في فلسطين ، أكثر الظروف ملاءمة . فالدولة العثمانية تعاني الانحلال والعرب لا وجود سياسي لهم .

كانوا حتى ١٩١٨ ، جزءاً من تلك الدولة الكبرى يكاد يكون عضوياً . غير أنهم ، في تلك الفترة ، بدأوا يحسون بوجودهم ويكتشفون مفاهيم جديدة ويكونون لهم ، عبر الظروف السياسية ، ايديولوجيا جديدة فعلت بها الأحداث كثيراً وطورتها .

وأرى أنه من المفيد لهذا الكتاب ، كي يؤدي غرضه ، أن أتحدث قليلا عن تطور الذهنية العربية وتأثير التيارات المختلفة فيها حتى وعد بلفور ، لإننا نستطيع من ذلك أن نستشف ما يمكن أن يخبئه المستقبل . فالشعب العربي كان أبداً خلال التاريخ شعباً تسيره أفكاره ، وتهيمن هذه الأفكار على أعماله هيمنة مطلقة. ولو استطاعت الصهيونية أو حاولت إقناعه بحل لمشكلة فلسطين ، لما تعقد الأمر إلى هذا الحد .

أنا أعتقد أن إيديولوجية المستقبل العربي لما تينع بعد . وكل ما نراه من صراعات عقائدية في الوطن العربي الآن ، ما هو غير مقدمة لتطور تاريخي هام . والأحداث تتسارع مسهمة في أن يصل هذا التطور إلى مداه . والذي أخشاه ألا يكون النضج حقيقياً ، فيحدث تحت تأثير حرارة الأحداث وشمسها المحرقة ، فيؤدي إلى تكوّن غير طبيعي تحصد منه الإنسانية آلاماً أخرى بدلا من أن تجني ثمار إسهام حضاري جديد لهذا الشعب الذي كان دائماً خصب الإنتاج الإنساني عبر التاريخ .

قرأت أخيراً بحوثاً متعددة عن نشأة بعض الحركات في البلدان العربية (حزب التحرير الجزائري ، والاتحاد الاشتراكي العربي ، والبعث العربي الاشتراكي) بعضها وفّى كثيراً من القصد . غير أنها لم تذهب بعيداً الى الوراء ، كيما تكتشف الأسباب الاجتماعية العميقة لهذه الحركات ومبررات وجودها .

أكثر تلك الدراسات تستغرب الاقتراحات التي تحصل من آن لآخر ، وانتهاء حركات أخرى قبل أن تؤدي دورها التاريخي ، غير أن الرؤية العميقة التي تتأمل التطور قادرة على فهم هذا التبدل الذي يبدو ، لأول وهلة ، كأنه غير طبيعي .

وقد يتساءل القارىء . ما شأن ذلك في كتاب يتحدث عن أزمة الشرق الأوسط الحالية ؟ هذه الأزمة ، إذا درست كحدث سياسي ، استحال فهمها . لذلك فلا بد لنا من أن نحيط بها إحاطة عميقة ، لأنها تحمل بذور خطر يهدد المستقبل الإنساني بصورة مستمرة وزوال العرب أو اليهود من منطقة الشرق الأوسط . قد يظن البعض أن هذا مبالغ فيه ، لكني أظن أن مخاوفي واقعية .

وأظن أن توافق التوقيت الزمني بين بداية اليقظة العربية الحديثة ، وبين طرح المشكلة الفلسطينية بالشكل الذي طرحت فيه ، يجعل منها فاعلا أساسياً في تطوير الإيديولوجية العربية الحديثة التي بدأ تكونها الفعلي في عصور الانحطاط .

يتحدث الناس كثيراً في اوروبا عن الحضارة العربية ، ولكنهم قلما يأبهون إلى ما كلفتهم تلك الحضارة والايديولوجية التي انبثقت عنها من مآس قلما سبقها أو لحقها في التاريخ .

كانت هذه الحضارة أكثر الحضارات تمسكاً بالقيم الإنسانية والخلقية ، وحفاظاً على حياة الإنسان . ولأعط على ذلك مثلا وصية الخليفة عمر بن الخطاب لجيشه ، التي هي شيء جديد على تلك العصور : لا تقتلوا أعزل أو طفلا أو شيخاً أو امرأة ، ولا تجهضوا حاملا أو تحرقوا بيتاً .

تمسك العرب بالإسلام تمسكاً دقيقاً واعتبروا – ما عدا الأمويين – أن لكل مسلم الحق في أن يكون عنصراً أساسياً في الدولة، له ما لهم وعليه ما عليهم . واستغلت ذلك بعض الشعوب فتمكنت من تخريب الدولة الكبيرة وتهديم حضارتها ، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الدولة العربية انتهت بزوال دولة الأمويين .

وأرى ان في ذلك بعض الحق ، فالدولة العباسية لم تكن دولة عربية ، وإنما كانت دولة إسلامية ، يرئسها خليفة عربي لأن النصوص الدينية تقضي بأن يكون الخليفة عربياً ومن عشيرة النبي محمد ، ولغتها عربية لأنها لغة القرآن . أما فيما عدا ذلك فقد كانت الدولة دولة الملة الإسلامية التي يغلب عليها الطابع العربي ، أي ان العرب كانوا عنصراً أساسياً فيها . وقد استمرت كذلك حتى اكتسح هولاكو مدينة بغداد، عاصمة الدولة والحضارة . وتروي كتب التاريخ أنه قتل من سكانها ٨٠٠ ألف ، كما انه رمى في نهر دجلة ما حوته المكتبات من كتب ، فظل ماء النهر مصبوغاً بلون الحبر أسابيع ستة ، لكن الدولة رممت بعضاً من بقاياها ، ثم انتقل الحكم إلى القاهرة . وجاء تيمورلنك فقتل من سكانها ٢٠ الفاً ، وأحرق حلب ، وقتل أكثر سكانها . ولما وصل إلى دمشق خطر له أن يبني هرماً من الرؤوس البشرية ففعل . وعادت الدولة فرممت نفسها من جديد إلى أن جاء سليم الأول ، فجارى من سبقه من الفاتحين .

بعد سليم الأول احتل الأتراك معظم الأرض العربية . فزال سكانها عن مسرح التاريخ ، وأخذ الجهل والفقر يعمان شيئاً فشيئاً تلك الأرض التي أثمرت كثيراً من الفنون والعلوم والآداب . كما أخذت معاول الهدم تهدم كل شيء في تاريخها غير تقاليد ضوت وجعلها الاستمرار وحده تعيش بشكل أو آخر .

انتشرت الحضارة العربية عن طريق مدارس ملحقة بالجوامع ، اذ اتبعت الدولة تقليداً ، وهو أن تبني إلى جانب كل جامع مدرسة[١]

(١) تستثنى من ذلك بعض المدارس التي انفصلت عن الجوامع في العهد العباسي .

يأتيها الطلاب من أطراف العالم يعيشون ويدرسون فيها مجاناً، على حساب الأوقاف ، شتى العلوم والفنون ، مما له علاقة ومما ليس له علاقة بالدين ، بل مما هو ضد الدين أحياناً . وتقلصت هذه المدارس في عهود الاحتلال . غير أن التقليد ظل متبعاً [١] ، ففي كل جامع شيخ أو أكثر يدرس بعضاً من أصول الدين وشيئاً من التاريخ كشواهد لتوضيح تلك الأصول وشرحها . غير ان ما علمه المشايخ في عصور الانحلال كان صورة للظلمات التي اناخت على الشعب . كان من نتيجة ذلك أن الشيخ بات السلطة الشعبية الوحيدة والملجأ الأخير الذي يتعلم على يديه الناس شيئاً من اللغة وأحكام الصلاة والوضوء ، ولم يكن أكثر المشايخ في تلك الفترة على قدر عظيم من العلم . لم يكونوا أكثر من ترديد لأصداء تاريخية بعيدة تتضاءل قليلا قليلا مع الزمن .

وظل الناس ، في بعض القرى النائية التي بقيت كالجزر في بحر لا يصلها الطغيان التركي ، يدرسون جيلا بعد جيل اللغة والتاريخ ، تارة في العلن وأخرى في السر ، إلى جانب الطقوس الطائفية . كما ان الأديرة المسيحية حفظت جزءاً كبيراً من التراث العربي واللغة والتاريخ .

نتج عن ذلك أن ذكريات العظمة عاشت في خيال الجماهير ، وان ظلال الحضارة البائدة استمرت في منح الأجيال كثيراً من الرجاء والامل بعودة ما لا يمكن أن يعود .

كان العرب في قراهم يعزون التأخر إلى انحرافهم عن الدين ، وإلى زوال الإيمان في نفوسهم . غير ان أخبار الأولين (السلف الصالح) وبطولات الفرسان ، كانت تعمر حياتهم وخيالهم . وظهر في عصور الانحطاط أدب لم يكن غير مجموعة من ذكريات التاريخ ، أعطاها الجهل طابعاً خرافياً ، مثل قصة عنترة والزير ، وأصبحت صورة الماضي ذاته خرافة بطولية ، يقارن العربي بينها وبين حاضره البائس

---

(١) حتى اليوم توجد بعض مدارس ملحقة بالجوامع ، كالأزهر والنجف .

فتعصف المرارة بكيانه وتنقلب إلى حرقة يومية تطغى على حياته ، وشقاء تاريخي أعطى الشرق الأوسط ذلك الطابع الحزين الرتيب ، الذي نجده في موسيقاه وأدبه ، حتى الآن ، بل وفي النظرة السياسية ايضاً.

وظهر في تلك الفترة شعراء جوالون زال اسمهم ، لكنهم تركوا قصصاً كثيرة وقصائد تركيبها اللغوي قريب من العامية ، فكانت شديدة التأثير في جمهور جاهل بات بعيداً عن أصالة اللغة . كانوا ينتقلون من قرية الى خرى ينشدون للناس ماضيهم ملوناً بكثير من الخيال ، ويستخدمون في رواياتهم آلة موسيقية بسيطة (الرباب) ثم أخذت تلك القصص تطبع ، فكان الذين يلمون بالقراءة يقلدون طريقة أولئك الشعراء الروائية . وكانت تعقد المجالس القروية كل مساء ، فتقرأ فيها تلك القصص التي تستقطب مستمعين بريئين بعيدين عن تأثير الحضارة الاوروبية والآلة .

وفي بداية القرن التاسع عشر أخذت تنشأ بعض المقاهي في الأرض العربية ، وأهمها وأولها الفيشاوي في القاهرة ، يعرض فيها الأراكوز ، وتنشد قصائد تتغنى بالأمجاد الماضية .

ساهمت هذه الأشياء مجتمعة في خلق نموذج إنساني يدين به المجتمع العربي : الإنسان البطل المؤمن إيماناً شديداً بالدين الإسلامي ، والذي يستطيع ، فيما لو ظهر مرة أخرى ، أن يعيد للإسلام أمجاده . نموذج شعبي بسيط يحمل كل الصفات التي فقدها العربي ، فكأنما هو نوع من المخلص ... امتزج فيه التاريخ بالأسطورة. وهكذا تكونت في نفس الشعب ايديولوجية ابتدائية بسيطة غريبة عن عقلية العصر الحديث.

بعد غزوة نابليون بونابرت وحكم محمد علي الكبير في القاهرة بدأ العرب يحسون بأن العالم الذي يعيشون فيه هو ظل مشوه للعالم الحقيقي ، بائد لا يمكن أن يعيش ، غريب على الحياة وواقعها ، وأخذوا يكتشفون أن الوهم لا يمكن أن يكون منقذاً . لكن سؤالا خطيراً بقي معلقاً ، لأن الجواب عليه انطوى على حسم نهائي للماضي ، وقطع للعلاقة بينه وبين التقاليد الموروثة .

ظهر في عصور الانحطاط أئمة دينيون ينبهون العرب إلى غفلتهم ،

وينحون باللائمة عليهم ، ويحفزونهم للعودة إلى مسرح التاريخ شعباً حضارياً . لكن هؤلاء لم يكونوا غير استمرار للقرون الوسطى ، اطلعوا على الحضارة الحديثة وما استطاعوا أن يميزوا معالمها الحقيقية ، فاختلطت في تعاليمهم المفاهيم الدينية بالمفاهيم القومية . وإذ لم يتمكنوا من اكتشاف الهوية القومية ، رأوا أن العودة إلى مسرح التاريخ يجب أن تكون من خلال الدين الإسلامي ، وضمن الملة الإسلامية . ومن أهم هؤلاء محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس الحركة الوهابية في نجد ، وجمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، الذين نستطيع أن ندعوهم بمدرسة الأزهر .

لم تخطر في بال العرب آنئذ فكرة الإنسلاخ عن الدولة العثمانية ، تلك الدولة التي قامت على العلاقة الدينية البعيدة الجذور في التاريخ . كانت الخلافة رمزاً يصعب التخلي عنه .

كان ذهنهم يتحرك ضمن بوتقة الدولة المسلمة ، ويحلم بالعودة بها إلى عهود الخلفاء العظام . كان رائد تلك الفكرة الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي لم يحس في لحظة من اللحظات انه ينتسب إلى الافغان أكثر من انتسابه الى تركيا أو مصر . فهو لم يقصر نشاطه على بقعة معينة من تلك الأرض الواسعة . كان أنّى حل يدعو للوحدة الاسلامية ونظام جديد قديم : كان يقول بالأخذ بالثقافة الغربية دون أن يبدل ذلك في جوهر الدين والشرق ، ويدعو إلى ترك ما علق بالدين الإسلامي من خرافات عبر القرون ، ويعتبر انه دين حي بريء من تلك الخرافات ، قادر على أن يسير بالأمة الإسلامية في مضمار التقدم العلمي .

لذلك حملت تلك المدرسة على نظام الدولة العثمانية المهلهل ، وطالبت بتعليم الشعب وإعطائه الحريات .

كانوا يرون ان الدولة العثمانية (دولة الإسلام والخليفة) في طريق الخراب ، ولا بد من إعادة تنظيمها : انتقدوا النظام الضريبي الذي كان قائماً على أساس « الضمان » ، أي أن يوكل السلطان أمر مقاطعة من المقاطعات الى وكيل لقاء أتاوة يجبيها ، والوكيل يقسم الولاية إلى

أقسام على كل منها نائب له يضمنه إياها في مزاودة لم يكن هم الولاة وولاة الولاة منها إلا أن يجمعوا ما استطاعوا ، حتى يدفعوا ما عليهم ويربحوا .

وكانت قصور الخلفاء تعيش في جو مفعم بالفساد والمؤامرات ، ومناورات الحريم ورجال القصر والحاشية، وخزعبلات كثير من جهلاء المشايخ الذين استطاع بعضهم أن يصبح بالحيلة من أهم شخصيات الدولة ، مثل أبي الهدى الصيادي ، وهو شيخ سوري بسيط من أعمال حماة استطاع أن يكون من بطانة عبد الحميد بالرشوة والحيلة .

هذه الدعوة باءت بالفشل ، لأن دولة الرجل المريض باتت معتلة يستحيل شفاؤها . لاقت تلك الدعوة أوجها في عهد السلطان عبد الحميد ، واستجاب لها هذا ، وحاول أن يصنع شيئاً . ثم استغل تلك الدعوة ليقوي سلطته فأبرز التناقض بين الدعوة الى الحرية والدعوة الى الدين ، واتهم الأولى بالزندقة ، وأراد أن يؤكد على الدعوة الدينية لأنها توطد سلطانه ما دام هو الخليفة . غير انه لم يحاول إصلاح الوضع الداخلي .

وقامت جمعية الاصلاح والترقي بانقلاب عليه سنة ١٩٠٨ ، وعزلته عن العرش . وكان من بين عناصرها كثير من العرب ، كما كان الأمر في بقية ما وجد في تلك الفترة من أحزاب وحركات . وقد أسهم بها هؤلاء ظناً منهم أن العرب ينالون بعضاً من حقوقهم على يدها ، ذلك أن تنظيماً جديداً ومعقولاً للدولة لا بد أن يؤدي إلى حكم لامركزي ، يأخذ باعتباره القوميات . ظنوا أن الحكم الجديد الذي قام باسم الحرية والديموقراطية ، سيمنح الشعوب المكونة للدولة العثمانية الحريات الديموقراطية ، ويمكن شخصيتها من النمو الحضاري ، ضمن إطار الملة الكبيرة المتمثل بالخليفة .

غير ان الحكم الجديد ، بدلا من أن يعمد لذلك ، لجأ إلى عكسه فنظر نظرة ريب إلى تلك الشعوب ، وخاصة العرب ، وعاملها معاملة المستعمر ، ورأى ضرورة تذويبهم في الشعب التركي ، فحرم التعليم بغير اللغة التركية — مع ان العربية هي لغة الدين — وأخذ يقوم بعملية

تتريك واسعة ، وذلك بالقيام بتبادل السكان ضمن الدولة ، وهو أمر استمر حتى بعد إعلان الحرب الكبرى .

وبدأ المثقفون العرب يلقون على أنفسهم أسئلة جديدة ، حين اخذوا يحسون بشخصيتهم القومية ثم راحوا يبحثون عن حلول أخرى ، فأسسوا جمعيات وأحزاباً منها جمعية العهد ، وحزب الإصلاح ، ولكنها ظلت تميل إلى المحافظة على العلاقة بينها وبين الخلافة .

أخذت تلك الأحزاب تتسع وتنتشر ، تدفع الشعب لتثقيف نفسه والمطالبة بحرياته القومية والديموقراطية[1] . وفي تلك الأثناء نشبت الحرب العالمية الكبرى ، وأعلنت تركيا الحرب في تشرين الاول ١٩١٤ إلى جانب ألمانيا .

كان العرب في حيرة من أمرهم، فقد أعلن الخليفة ،الذي هو قمة النظام الديني ، الحرب . ومعنى ذلك أن الجهاد مفروض على كل مسلم ومسلمة. ورأى العرب أن الدين يفرض عليهم حرباً لا تعنيهم ، ولكن لا خيار لهم بذلك . رأوا أن الشعب الذي يخوض حرباً لا بد أن يكون على قدر من الحرية ، فأعادوا المطالبة ببعض الحقوق . وبدلا من أن يستميلهم الأتراك أخذوا يتعنتون باضطهادهم . وأقام جمال باشا ، الملقب بالسفاح ، المحاكم . فشنق في لبنان وسوريا ستة عشر من أحرار العرب . وعمد الأتراك بعد ذلك إلى تجويعهم فمات منهم جوعاً ، أبان الحرب الكبرى الأولى، عدد اختلف فيه المؤرخون ، ولكنه يزيد في كل حال على ثلاثمائة الف نسمة . وهناك من المؤرخين من زعم أن العدد يزيد على المليون .

كان البشر يموتون في الطرق جوعاً لأن الدولة صادرت الحبوب من كل سورية ، وهي البلد الزراعي الغني (كانت سورية تعني آنئذ سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) في سبيل المجهود

---

(١) وأخذت تظهر آثار الأفكار الأوروبية ، وأخذ تساؤل كبير يشق طريقه إلى الأذهان : من نحن ؟ هل نحن جزء من الملة الإسلامية أساس في تكوينها ، أم نحن من قومية تختلف عن الأتراك أبناء ديننا . غير ان هذا التساؤل ظل محدود الأثر .

الحربي ، مع العلم أن الجيش العثماني لم يفد من ذلك كثيراً ، لأن السرقات والرشوة كانت متفشية في جهاز الدولة [١] ، كما كانت قد تفشت في سورية ، فوق ذلك ، الأوبئة ، كالكوليرا والجدري .

ألحت هذه الظروف وساعدت العرب على اكتشاف هويتهم القومية . ثم بدأت تظهر للوجود ايديولوجية منسجمة مع واقع الحضارة الحديثة القومي . فنادى مفكروهم بضرورة إقامة العلاقة السياسية على أساس غير ديني ، وبأن الدين يجب أن يبقى ضمن حدود المعبد ، وبأن لا علاقة للسلاطين الأتراك بالخلافة . وهكذا أخذوا يجهرون بأن الخليفة يجب أن يكون من أصل عربي ، ومن نسب النبي محمد . واتجه العرب بانظارهم إلى قائد شجاع ، عرف بقوة مراسه وعناده وحزمه ، هو الشريف حسين أمير مكة منذ ١٩٠٨ [٢] . وقد حاول الشريف حسين ، طويلا ، أن يصل إلى بعض من حقوق العرب ولكنه لم يستطع .

اكتشف الأتراك أن الفتوى التي أصدرها في اسطنبول شيخ الإسلام بالجهاد وإعلان الخليفة الحرب ، لا يكون لهما أثر كبير عند المسلمين ، ما لم يؤيدهما الشريف حسين ، لأنه من نسل النبي ، ولأنه حامي الحرمين الحقيقي [٣] . فأخذوا يمطرونه بسيل من البرقيات من أجل إعلان الجهاد ، ولكنه طالب أن تبادر الدولة العثمانية أولا الى إعطاء العرب حقوقهم ، فلم يحصل على شيء من ذلك . ولذلك عمد إلى الاتصال بالانكليز للاتفاق معهم على إعلان الحرب ضد الأتراك ، لقاء الإعتراف بدولة عربية حدودها طوروس ، والبحر المتوسط ، وجبال كرمنشاه ، والخليج العربي ، والبحر الأحمر .

---

(١) عندما غادر الأتراك سورية أحرقوا عنابر الحبوب في كثير من المدن بحجة أنها من ممتلكات الجيش .

(٢) قادته مطامحه القومية قبل ١٩٠٨ إلى المنفى في القسطنطينية .

(٣) كان الخليفة العثماني يحمل الألقاب التالية : أمير المؤمنين ، خليفة النبي ، وحامي الحرمين .

والاعتراف به ملكاً عليها وخليفة للمسلمين . وبعد تبادل رسائل متعددة بينه وبين كيتشنر أولا ، ثم السير هنري مكماهون ، أعلن الثورة ضد الأتراك .

عندما ندرس تاريخ الشريف حسين ، نستغرب كيف استطاع ، وفي تلك الفترة ، أن يكتشف بمثل هذا الوضوح ، واقع العرب ومستقبلهم ، ويعبر بدقة عن ذلك . وحتى ندرك قوة حدسه ، لا بد أن يضع المرء نفسه في تلك المرحلة التي أحاط بها الغموض والتعقيد في المفاهيم . لقد ظلت الأفكار التي نادى بها مجال مناقشات طويلة خلال أربعين سنة ، وفي أكثر البلاد العربية تقدماً فكرياً ، أي سورية ولبنان ومصر ، ولكن ما ذهب اليه بات الآن حقيقة لا يناقش بها الناس .

عندما أعلن ثورته اعترض عليه بعض العرب ، لأنه لا يجوز لمسلم أن يقاتل مسلماً آخر ، فأجاب بجملته الشهيرة : نحن عرب قبل أن نكون مسلمين . وكان ذلك ميلاد ايديولوجية جديدة ، تمخضت عنها عصور طويلة ، غير أن تفاصيل هذه الايديولوجية تطورت شيئاً فشيئاً مع الزمن .

ظن الملك حسين أن المفاوضات التي أشرت اليها كانت مفاوضات بين العرب والحلفاء ، وانه عندما كان يفاوض ممثلي بريطانيا في مصر ، فإنما كان يفاوض الحلفاء كمجموعة ، وانهم أمناء على قضية هي واحدة بالنسبة اليهم جميعاً . أما الواقع فقد كان التالي :

كانت تجري مفاوضات على اقتسام التركة العثمانية بعد النصر بين روسيا وفرنسا وانكلترا من جهة ، وبين ايطاليا وفرنسا وانكلترا من جهة أخرى . ثم بين العرب وانكلترا ، وبين الجمعية الصهيونية وفرنسا وانكلترا ، وبين الملك عبد العزيز آل سعود وانكلترا الخ ...

استمرت هذه المفاوضات المتعددة الأطراف طيلة الحرب ، ولم تتوقف حتى في الساعات التي كانت الجيوش الألمانية في أوج انتصاراتها . كانت جميعها سرية ، يخفي كل طرف على الآخرين ما يدور بينه وبين طرف آخر . ومقارنة بسيطة بين تلك الاتفاقيات تظهر سوء النية ، والمطامع التي تعتمد على القوة وحدها . فهي لم تهتم إطلاقاً برأي سكان

البلاد أو بحقوقهم .

لنستعرض تلك المفاوضات وبعض تلك المطامع :

١ ــ كانت روسيا تطمع ، منذ عهد بطرس الأكبر ، بنافذة على البحر الأبيض المتوسط ، وذلك بالاستيلاء على اسطنبول والمضايق . كما كانت ترغب في بعض المناطق التركية الشمالية ، وتعتبر نفسها حامية الارثوذكس في الأرض الخاضعة لتركيا ، وتطالب بحقها في حماية الأماكن المقدسة .

٢ ــ منذ عهد نابليون الأول ، التفتت فرنسا إلى الشرق الأوسط ، وكانت تطمع بالاستيلاء على ولاية سورية (لبنان وسورية وفلسطين). وكانت تعتبر نفسها حامية المسيحيين في الشرق الأوسط . وأكد هذه السياسة نابليون الثالث سنة ١٨٦٠ ، عندما أرسل جيشاً لحماية المسيحيين في لبنان . وكانت فرنسا أيضاً ترمي إلى حماية الأماكن المقدسة .

٣ ــ كانت ايطاليا بعد أن احتلت طرابلس الغرب وليبيا ، تريد أن تحقق توسعاً في آسيا الصغرى ، وترى أن لها حقوقاً في الأماكن المقدسة .

٤ ــ أما انكلترا، فكانت ترى أن السيطرة على البلدان العربية حق من حقوقها ، ما دامت واقعة على طريق الهند ، وما دامت مسيطرة على قبرص ومصر وممرات البحر الأحمر .

قامت المفاوضات بين تلك الدول تقودها بريطانيا إلى حد بعيد ، وتجتهد في أن توفق بين هذه المطامع . وفيما يلي ملخص لها :

عقد اتفاق في مارس ١٩١٥ سمي باتفاق القسطنطينية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا ، ظل سرياً حتى كشف عنه البولشفيك . وكان متفقاً أن يظل سرياً عن إيطاليا والشريف حسين .

وقدم سازانوف ، وزير خارجية روسيا آنئذ ، مذكرة إلى سفيري فرنسا وانكلترا ، يعلن لهما فيه عن رغبة روسيا في الاستيلاء على القسطنطينية ، ويعترف بحقوق انكلترا وفرنسا في القسم الآسيوي من تركيا ، وينوه بضرورة عقد اتفاق لحفظ هذه الحقوق .

وفي ١٨ آذار أبرقت الخارجية الفرنسية إلى سفير روسيا في باريس تعلن موافقتها . وفي ٢٠ آذار تلقى السفير الروسي في لندن من الخارجية البريطانية برقية مماثلة .

ثم جرت محادثات في لندن وبطرسبورغ في ربيع ١٩١٦ نجم عنها ما يلي :

١ — تحصل روسيا على مقاطعات أرزون وطرابزون ، وفان وريتلس ، وقسم من كردستان .

٢ — تأخذ فرنسا القسم الساحلي من سوريا وولاية أضنة والمنطقة التي يحدها من الجنوب خط عينتاب — ماردين ، وتمتد إلى حدود روسيا الحالية ، وفي الشمال يحدها خط : ألاداغ — زين غجين خربوط .

٣ — تأخذ بريطانيا جنوب ما بين النهرين وبغداد ، ولها الحق في ميناءي حيفا وعكا .

٤ — تم اتفاق بين فرنسا وانكلترا على أن تقوم في المنطقة الفاصلة بين المناطق الفرنسية الانكليزية ، إمارات عربية ، أو إمارة واحدة مستقلة .

٥ — أما الاسكندرون فتعلن ميناء حرة .

لكن انكلترا احتجت في نهاية الحرب بأن هذا الإتفاق لم يعد ذا موضوع ما دام البلاشفة قد فضحوا الاتفاقية .

أما بالنسبة لايطاليا ، فقد عقدت اتفاقية سرية وقعت في ٢٦ نيسان ١٩١٥ تمنح ايطاليا مقاطعة اتاليا ، في آسيا الصغرى .

أما بين فرنسا وانكلترا فقد عقد اتفاق آخر سري عن بقية الأطراف عرف باتفاق سايكس — بيكو ، يقسم البلدان العربية إلى مستقلة وإلى مناطق نفوذ فرنسية وانكليزية ، وضحتها خارطة جعلت المنطقة الفرنسية زرقاء ، والانكليزية حمراء ، وحددت منطقة سمراء تقتسم فيما بعد .

وملخص هذا الاتفاق انه يعطي الجزء الشمالي لفرنسا حتى طوروس ، بما فيه الموصل ، ويعطي انكلترا القسم الجنوبي والعراق .

أما بين العرب وانكلترا ، فقد حصل ما يلي : جرت الإتصالات الأولى بين اللورد كيتشنر ، عندما كان في مصر قبل ١٩١٤ . وكان العرب آنئذ ، اذ قطعوا الأمل من جدوى البقاء ضمن حدود الدولة العثمانية ، قد قرروا القيام بعمل ما قد يكون ثورة . غير أن كيتشنر أجاب بأن العلاقات حسنة بين انكلترا وتركيا . وبعد أن أعلنت الحرب وأصبح كيتشنر أميناً عاماً لوزارة الحربية ، أوعز للسيد هنري مكماهون بأن يتصل بالشريف حسين من أجل التعاون بينه وبين انكلترا. وعلى ذلك وضع الشريف حسين شروطه ، وكان يلح كثيراً على توضيح نصوص هذه الشروط ويطالب بألا يترك مجال للشك في المستقبل .

وهنا لا بد لي من أن أقول إن الرسائل التي تضمنت هذه الشروط ظلت سرية على فرنسا حتى نهاية الحرب . وهي تناقض تناقضاً كاملا اتفاقية سايكس – بيكو .

لقد كتب الكثير عن تلك المفاوضات،ودرست النصوص دراسة طويلة . ومن المؤرخين من ذهب إلى أن الانكليز وعدوا الملك حسين بما طالب به ، و منهم من زعم انهم لم يفعلوا . غير ان تلك الدراسات أخذت الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين ومكماهون كشيء منفصل عن بقية المفاوضات ، وحللوها شيئاً قائماً بذاته . وكان المفروض أن تؤخذ تلك المفاوضات ككل ، وأن تدرس الروح الكامنة وراءها . عندئذ نصل إلى الحقائق التالية :

١ – كانت انكلترا تريد أن تستمر روسيا في القتال ، ولكنها لم تكن جادة بإعطائها القسطنطينية . ودليل على ذلك انها وعدت بها اليونان أيضاً .

٢ – لم تكن جادة بالنسبة لايطاليا لأنها أعطت اليونان ، بنتيجة الحرب ، تلك المنطقة .

٣ – لم تكن جادة بالنسبة لفرنسا لأنها أخفت عليها الإتفاقيات مع الملك حسين .

٤ – لم تكن جادة مع الملك حسين لأنها اتفقت مع الصهيونية

من جهة ، ودفعت الملك سعود ضده ، من جهة أخرى .

٥ – لم تكن جادة مع أحد .

هذه العقلية التي هيمنت بالتالي على معاهدات الصلح جرت اوروبا إلى حرب ١٩٣٩ ، ولم ينج اوروبا والعالم حتى الآن من نتائجها . فالمشكلة الألمانية ما زالت قائمة ، ومشاكل أخرى تحمل بذور حرب عالمية أخرى .

إن المتأمل في وضع اوروبا الحالي ، يعلم أن الخوف من الحرب هو الذي يؤخر الحرب ، لا الرغبة في السلم .

بينما كانت المفاوضات تجري بين الملك حسين ومكماهون، كان حاييم وايزمن الذي خلف هرتزل في رئاسة المنظمة الصهيونية ، يتصل من جانبه بالحكومة البريطانية ويفاوضها باسم تلك المنظمة من أجل الحصول على حصة لها من أرباح الحرب . وانجلت هذه المفاوضات عن رسالة إلى اللورد روتشيلد سميت وعد بلفور ، قال فيها ما يلي : « تأخذ حكومة صاحبة الجلالة على عاتقها إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وتبذل كل جهودها لتسهل هذا الأمر ، في الوقت الذي تتعهد فيه بعدم المساس بالحقوق المدنية والدينية للمجموعات غير اليهودية ، وبالوضع السياسي الذي يعيش فيه اليهود في البلدان الأخرى » .

تسلحت الصهيونية بهذا الوعد وفسرته ، حسب رغبتها وآمالها، بأنه أعطاها كل الحق بأن تكون لها فلسطين . ولنحلل قليلا هذا الوعد :

١ – كانت الحرب قائمة فأعطت بريطانيا وعداً بأرض لا علاقة لها بها من قريب أو بعيد ، ولا حق لها فيها إلا بالقدر الذي تمكنها منه القوة والنصر في نهاية الحرب .

٢ – لم يؤخذ رأي سكان البلاد . كانوا موضوع مساومة ، كأن الحرب سوق نخاسة .

٣ – كلمة (Home) لم تعن أبداً دولة في التاريخ الدبلوماسي .

٤ – يقول الوعد : دون أن يمس بالحقوق المدنية والدينية لسكان البلاد ... وكيف يكون ذلك ؟
٥ – لا يتحدث الوعد من قريب أو بعيد عن الهجرة .

واجه هذا الوعد اعتراضات كثيرة من اليهود أنفسهم ، أهمها ما نشرته التايمس في عددها الصادر في ٢٤ أيار ١٩١٧ :

« إنهم راغبون في مركز روحي للثقافة الصهيونية في فلسطين ، لا في قومية يهودية على أرض يهودية . هذا الأمر – حسب قولهم – يجعل من اليهود غرباء على البلاد التي نشؤوا فيها ، ويقلل من قيمة وضعهم الذي بلغوه في صعوبة ، كمواطنين قوميين في تلك البلاد » .

ورأى أولئك اليهود انهم بدأوا مستقبلا أشد بؤساً من ماضيهم . كان سبب الاضطهادات التي عانوها عبر التاريخ شعور الآخرين بأن اليهود غرباء وأنهم مستقلون ، فضلا عن شعورهم ، هم أنفسهم ، بأنهم فعلا غرباء ، وجاء هذا الوعد يؤكد غربتهم عن الأوطان التي عاشوا فيها . إن مجرد إعطائهم الحق بتأسيس دولة لهم لأنهم يدينون باليهودية هو اعتراف بغربتهم ، والتأكيد على عزلتهم في البلدان التي يعيشون فيها .

لا أظن أن هذا الوعد بداية سعيدة ، وإنما بداية آلام جديدة لليهود من جهة ، وللعرب من جهة أخرى . وكانت هذه البداية، بالنسبة للعرب، مأساة الملك حسين .

طلب الى الملك أن يعترف بحق اليهود بوطن قومي في فلسطين ، فكان جوابه انه يقبل بأن يأتوا إلى أية بقعة من الوطن العربي وأن يعيشوا مع سكان البلاد كما يحلو لهم . وكتب نفسه مقالة في جريدة « القبلة » يدعو العرب أن يكونوا كرماء ، وأن يستقبلوا بضيافتهم المعروفة من كان مضطهداً من اليهود الذين يحبون المجيء إلى بلادهم . ولم يظهر من العرب أية بادرة آنئذ تنبىء برفض إقامة اليهود بينهم . ومن الشواهد على ذلك ان موشي شرتوك لجأ إلى بيت جمال الدين الحسيني عندما أعلنت الحرب الكبرى ، لأنه كان يحمل جنسية الدولة الروسية ،

وظل ضيفاً عليه طيلة مدة الحرب . وفي ١٩٤٨ كان شرتوك ، بعد أن بدل اسمه بشاريت ، وزيراً في الوزارة التي شردت جمال حسيني .

وسنة ١٩٢١ زار لورنس الملك حسين وقدم له مشروع اتفاقات وقعت في أثناء الحرب دون معرفة الملك ، وفيها تضمن انكلترا استقلال الحجاز وحدودها لقاء أن يعترف هو بالانتداب البريطاني على العراق وعلى فلسطين .

وفي سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ اقترح عليه أن تؤسس دولة فلسطينية يتساوى جميع سكانها في الحقوق .

وفي تلك الفترة ولأسباب غامضة ، هاجم الملك عبدالعزيز بن سعود الحجاز . وسنة ١٩٢٥ قدمت بريطانيا للملك حسين باخرة تنقله إلى قبرص ، ضيفاً على حكومة صاحب الجلالة .

وكان المرض قد بدأ ينتابه منذ ١٩٢٠ ، ثم أخذت صحته بالانهيار .

وكان الانكليز يتصلون به بين الفترة والفترة يطالبونه بأن يعلن اعترافه بحق اليهود في فلسطين لقاء إعادته إلى الحجاز ملكاً وخليفة . فكان يرفض بكل إباء . وعاش حياة بائسة معذبة .

وسنة ١٩٣٠ سمح له بأن يغادر قبرص إلى حيث يريد لأنه لم يعد شريف مكة الثائر ، ولا الملك المتكبر الشجاع ، بل أصبح إنساناً مريضاً ذوت أحلامه وانهار . وحين توفي في ١٩٣١ ، أوصى بأن يدفن في القدس لأنها البلدة التي ذهبت بعرشه ، والتي ضحى من أجلها بكل شيء .

وتلفت العرب في نهاية حرب ١٩١٨ إلى وضعهم الناشىء عن انهم لم يكونوا حلفاء ، وإنما كانت أرضهم هدفاً من أهداف الحرب ، وأنهم كانوا مخدوعين ، بيعوا بيع العبيد . وهذا ما دفعهم ؛ من الناحية الايديولوجية ، إلى الشك بجدوى القيم الإنسانية ، وإلى أن ينادي الكثيرون من مفكريهم بأن شريعة الأقوى هي الحقيقة الوحيدة . واتجه كثيرون بأفكارهم القومية اتجاهات شوفينية .

٣

قسمت ولاية سورية بعد الحرب إلى أقسام عدة : انتدبت فرنسا على القسم الشمالي ، وبقيت جزيرة ابن عمرو (شمال القسم الشمالي) في يد تركيا ، أما القسم الجنوبي فقد أنتدبت عليه بريطانيا ، وقسمته إلى قسمين : شرق الأردن وفلسطين .

ألحت دعاية الحركة الصهيونية على أن فلسطين كانت صحراء عندما جاءها المعمرون اليهود الأول ، وأن سكانها كانوا جميعاً من البدو الرحّل . هذا الزعم مبالغ فيه ، لا يقوم على منطق صحيح ، ويدحضه مجرد الرجوع إلى أول إحصاء قام به الانتداب البريطاني في ٢٣ تشرين أول ١٩٢٢ .

كان سكان فلسطين ، آنئذ ، ٧٥٢٠٤٨ . منهم ٧٧١٦ من جنسيات مختلفة ، و٦٦٠٦٤١ من العرب . أما اليهود فقد كان عددهم ٨٣٧٩٠ ، بما فيهم اليهود من أهل البلاد ومن جاء نتيجة الهجرة . ولا بد لي من أن ألاحظ أن السلطة المنتدبة ألحت على أن تجعل من اليهود القادمين حديثاً ، والأصليين منهم ، مجتمعاً واحداً منفصلا عن بقية المجتمع . وكان المندوب البريطاني الأول على فلسطين السيد هوبرت صموئيل ، وهو من المسؤولين في الحركة الصهيونية واحد الثلاثة من الاعضاء في الوفد المنتدب من قبل هذه الحركة للأتصال بالحكومة البريطانية أبان الحرب ، أي الوفد الذي حصل على وعد بلفور .

أما العرب فكان تقسيمهم كالتالي : ٢٦٤ ألفاً من سكان المدن ،

و٦٠ ألفاً من البدو ، و٤٣٠ ألفاً من الفلاحين الذين يعملون بالزراعة .

هذا الاحصاء يدل على أن أكثر من نصف السكان كان يعيش على الزراعة . ولا أذهب أبداً إلى أنها كانت متقدمة ، ولكني أعني أنها كانت موجودة وأن الأرض لم تكن صحراء . وكانت صناعة زراعية قد أخذت بالتطور والإتجاه إلى الآلة قبل الحرب العالمية الكبرى.

كان في فلسطين ٣ مصانع لماكينات الضخ : إثنان في يافا وواحد في حيفا لتزويد بيارات البرتقال بأدوات الضخ .

كان في يافا ١١ طاحونة ميكانيكية و٥ في غزة .

كان في فلسطين ٢٠٠ معصرة زيتون .

كان في نابلس وحدها ٣٠ مصبنة . وكثيراً ما كانت تستورد الزيت لتشغيل تلك المصابن ، رغم أن أشجار الزيتون كانت تغطي جزءاً كبيراً من البلاد . وقد صدرت فلسطين سنة ١٩١٣ – ١٩١٤ ، أي قبل الحرب ، من الحمضيات ١،٥٥٣،٨٦١ وانخفض هذا الإنتاج إلى مليون فقط سنة ١٩٢٠ – ١٩٢١ ، ذلك لأن ظروف الحرب دفعت الأتراك إلى قطع كثير من الأشجار المثمرة للوقود . كانت الملكية موزعة ، يملك أكثر الفلاحين العرب الأراضي التي يزرعونها : كانت نسبة العمال الزراعيين غير المالكين ٢٩ ٪ فقط ، ومعنى ذلك أن الملكية كانت مقيدة .

كان الفلاح الفلسطيني في عهد الاحتلال التركي يعيش في ظروف أفضل من عهد الانتداب ، فقد جهدت السلطة المنتدبة في إفقاره حتى تكرهه على بيع أرضه .

كان دخل العائلة الفلاحية بعد الحرب مباشرة يتراوح بين ٢٠–٣٠ ليرة فلسطينية . قدر ما يحتاج اليه من ضروريات بمبلغ ٢٦ ليرة . كان يدفع حوالي ٦ ل.ف. ضرائب مباشرة وغير مباشرة و٨ ل.ف. فوائد ديون .

أول ما فعلته السلطة المنتدبة أنها أوقفت القروض الزراعية ، وبدأت تجمع قروض البنك الزراعي العثماني وفوائدها مباشرة بعد الحرب ،

ومنعت تصدير المحصولات الزراعية ، فتدنت أسعارها . كانت الديون تتكاثر والأسعار تهبط . وباعت السلطة من الفلاحين دواب للعمل الزراعي بأسعار فاحشة تتراوح بين ٦٠—٨٠ ل.ف.

لقد بلغت فوائد الديون على الفلاح الفلسطيني أحياناً ٥٠ ٪ . ومقابل ذلك كان الفلاح الصهيوني يلاقي كل التشجيع والمساعدة . وأخذت حصص الصهيونيين من الأرض تزداد بنتيجة الشراء حتى بلغت ١٤٣ ألف دونم مقابل ١٣٥٠٠٠ للعرب . وكان هنالك تسابق بين الفريقين لتحسين الأرض ، فبلغت الأراضي المزروعة حمضيات سنة ١٩٣٩ نحو ٢٩٣ ألف دونم يملك العرب نصفها .

كان يعمل في موسم قطاف البرتقال ١٥ ألفاً من العمال في بيارات العرب و١٩ ألفاً في بيارات اليهود . وكان الإنتاج متساوياً مما يدل على أن العامل العربي يفضل الآخر .

والغريب أن صغار الملاكين الفقراء لم يبيعوا إلا في حالات نادرة شيئاً من الأرض ، بينما كانت نسبة ما باعه الملاكون الكبار تزيد على ٩٠ ٪ من الأراضي المباعة للوكالة اليهودية . ولا بد من القول أنه لولا مساعدة الإنتداب في إفقار الفلاحين العرب ، لما نجحت . فقد بلغ ما ملكته الحركة الصهيونية في فلسطين حتى ١٩١٨ ٢،٥ ٪ فقط . ولم تعمد السلطة المنتدبة على تشجيع التعليم ، فلم تقبل سنة ١٩٣٥ إلا ٥٩ ٪ فقط من طلبات الدخول للمدارس .

يتساءل القارىء الأوروبي ما كانت نسبة التعليم بين اليهود ؟ قبل بداية الغزو الصهيوني ، كانت النسبة واحدة بين جميع سكان البلاد ، وخاصة في المدن ، أما بعده فقد إختلف الوضع . فقد كان هنالك بالفعل دولتان لا دولة واحدة . كانت الوكالة اليهودية دولة بالمعنى الكامل لذلك ، لها ميزانيتها الخاصة التي تتكون من مساعدات خارجية ، فكان بوسعها أن تقيم المدارس في أحياء المدن ، وفي القرى والمستعمرات ، بينما لم يكن للعرب إلا الإعتماد على سلطة الإنتداب التي تحد من تطورهم وتعمد إلى إفقارهم . العامل العربي لم يكن له

نقابة تحفظ حقوقه ولم تحاول السلطة السهر على مصلحته ، بل على العكس منعت كل تنظيم لهؤلاء العمال خشية أن ينقلب إلى منظمة ثورية ، بينما كان الهستدروت (إتحاد العمال اليهود) يسهر على حقوق العمال اليهود ومصالحهم ، وكان منظماً تنظيماً دقيقاً علمياً مبنياً على خبرة اليهود الأوروبيين في أوروبا .

كانت التنظيمات التي قامت في فلسطين بين ١٩١٨ -١٩٤٠ تنظيمات عشائرية قامت عليها زعامات عائلية تقليدية للمحافظة على زعامتها ، شوهت معالم التنظيم وهاجمت كل ما هو علمي في روح التنظيم ، لأن التنظيم الجدي يؤدي بالنتيجة إلى زوال تلك الزعامات ، فعملت جاهدة للحيلولة دون قيام منظمات علمية ، قادرة على مجابهة الصهيونية ذات التنظيم الدقيق .

لقد بدأ الشعب العربي في فلسطين يشعر بالخطر قبل بداية القرن العشرين ، ولعب الزعماء العشائريون في البداية دوراً أساسياً ، غير أن سلوكهم الوطني كان يمتزج بمحافظتهم على تراثهم وزعامتهم ، ولم تكن أبداً قضية الشعب منفصلة عن مصلحتهم تلك ، فكانت معركة سكان فلسطين مع الصهيونية المنظمة المتحدة ، معركة فوضوية تلعب فيها الأهواء والمصالح دوراً كبيراً . كانت الزعامات تخوض معركتين : معركة ضد الصهيونية ومعركة أخرى فيما بينها .

ولنتحدث الآن عن تاريخ تلك المعركة .

أول بادرة تدل على تحسس العرب في فلسطين بالخطر ، هي البرقية التي أرسلها بعض من متنفذي القدس في ٢٤ حزيران ١٨٩١ محتجين ومطالبين بإصدار فرمان يمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وشراء الأراضي فيها . واستجابت السلطة العثمانية واتخذت قراراً بذلك ، غير أن بريطانيا تدخلت لإبطال مفعول القرار . وسنة ١٩٠١ صدر قرار يمنع دخول اليهود الأجانب أراضي السلطة العثمانية إلا إذا كان سيغادرها خلال شهور ثلاثة . وتدخل السفير البريطاني في اسطنبول فلم ينفذ القرار . وسنة ١٩٠٨ صدرت جريدة الكرمل في حيفا معلنة

أن هدفها فضح الحركة الصهيونية وكشف أخطار الهجرة وبيع الأراضي ، وقامت أول مظاهرات شعبية في فلسطين . وسنة ١٩٠٨ سقط السلطان عبد الحميد وانتقلت السلطة إلى حزب الإتحاد والترقي ، فازداد نفوذ الصهيونية . ذلك أن بعض أعضاء قيادة الحزب كانوا يعطفون على تلك الحركة لأنهم من اليهود أصلاً ، مثل جاويد وطلعت ومصطفى كمال . وأثار النواب العرب في مجلس النواب العثماني ذلك ، مما اضطر رئيس الوزراء ووزير الداخلية للأعلان ، سنة ١٩١١ ، أنهما ضد الحركة الصهيونية . غير أن الدولة العثمانية سمحت للملاك الكبير الياس سرسق (من أصل لبناني) ببيع الجزء الأكبر من أملاكه في مرج ابن عامر للصهيونية . وتأسس في تلك الفترة أول حزب في فلسطين سمي بالحزب الوطني ، وتعاون كثير من الفلسطينيين مع الملك فيصل ، وبدأت في تلك الفترة مقاومة جديدة لبيع الأراضي والهجرة . وكان من نتيجة ذلك أن الحركة الصهيونية لم تملك حتى ١٩١٨ غير ٦٥٠ ألف دونم أي ٢،٥ ٪ من الأرض ، وذلك في محاولة مستمرة من قبل الصهيونية خلال ما يقارب سبعين عاماً .

في ٩ كانون أول سنة ١٩١٧ ، أي حالما دخلت القوات البريطانية القدس ، جمع الحاكم البريطاني وجهاء المدينة كي يخطب فيهم حاييم وايزمن فقال هذا : « إنه مرتاح لفتح الباب أمام اليهود للعودة إلى وطنهم » . وعندها انسحب العرب جميعاً من الإجتماع . وسنة ١٩١٩ عقد إجتماع في مدينة القدس للجمعيات الإسلامية والمسيحية وقرر ما يلي :

١ – رفض وعد بلفور والهجرة الصهيونية والإنتداب الأنكليزي .

٢ – إعتبار فلسطين جزءاً من سورية وتسميتها سورية الجنوبية والمطالبة بوحدة سورية الكبرى .

٣ – استقلال فلسطين التام ضمن الوحدة العربية .

تألف هذا المؤتمر من الوجوه المحليين إرتجالياً عفوياً . ومطاليبه لم تكن جديدة على فلسطين وعلى سورية ، ولكنه كان بادرة خطيرة

من ناحية أخرى . لم يكن العرب قبل ذلك يفرقون بين مسلم ومسيحي ويهودي . أما هذه المرة فلم يحضر المؤتمر أي يهودي حتى من أولئك الذين يعيشون في فلسطين منذ آلاف السنين . كان ذلك رد فعل ضد الحركة الصهيونية وبداية تعصب غريبة على الشرق الأوسط .

كان العرب ، آنئذ وخاصة في سورية ، يعدون أنفسهم لحياة جديدة. ظنوا أنهم انتصروا مع من انتصر من الحلفاء ، وأن ساعة جني ثمرات الحرب بالإستقلال قد جاءت . وعقد أول مؤتمر وطني في دمشق كي يعرض مطالبيه على الحلفاء ، وحضره ممثلون عن فلسطين .

حاول وجوه فلسطين عقد مؤتمر في يافا في شباط ١٩٢٠ فمنعته السلطة ، فكان ذلك سبباً في المظاهرات التي قامت في الرابع من نيسان سنة ١٩٢٠ في مدينة القدس ، بمناسبة عيد النبي موسى . ولأول مرة في تاريخ هذا العيد تحدث حوادث بين العرب واليهود . دامت التظاهرات أربعة أيام ضد الإستعمار الإنكليزي والصهيونية ، قتل فيها ١٤ عربياً وجرح ١٣ . وفيها ظهر للمرة الأولى على مسرح الحركة الوطنية شاب اسمه أمين الحسيني .

وفي هذه الفترة انسحبت الجيوش الإنكليزية من سورية الشمالية واحتلتها الجيوش الفرنسية وطردت الملك فيصل ، فعقد مؤتمر فلسطيني بحت هذه المرة في آذار ١٩٢١ ، وانتخب لجنة تنفيذية يرأسها موسى كاظم الحسيني .

زار وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل آنئذ القاهرة والقدس ، فقابلته تلك اللجنة وعرضت عليه وجهة النظر العربية . غير أن إتصالها به كان مخيباً للأمل . كان العرب يطالبون بوقف الهجرة اليهودية لفلسطين ويطالبون بالإستقلال .

انفجرت يافا في أوائل أيار من العام ذاته ، ودام الإنفجار خمسة عشر يوماً ، وامتد إلى مدن أخرى . كان مذبحة حقيقية ، قتل من العرب ١٥٧ قتيلاً وجرح ٧٠٥ ، ومن اليهود عدد يزيد على ذلك . كان واجب بريطانيا أن تتنبه إلى واجبها ، كحكومة منتدبة وصية ، إلى

أن مستقبل فلسطين يبشر بكثير من الدماء وأنه من الضروري وضع حد لذلك . وقد شكلت الحكومة البريطانية لجنة تحقيق برئاسة هايكرافت التي ذكرت أن أسباب الحوادث كانت نمو المشاعر القومية عند العرب ، ومقاومة السياسة الإستعمارية الصهيونية . هذه اللجنة لم تقل في أي إتجاه كانت تنمو المشاعر القومية ، وإلى أين تؤدي هذه الإتجاهات ، وما يمكن أن تحصد منها المنطقة . لم تقل إن النمو غير طبيعي .

في حزيران من السنة نفسها ذهب وفد من فلسطين إلى لندن ، كي يتصل بالأوساط الانكليزية السياسية ، ليعرفها على حقيقة الوضع في فلسطين ، حتى أن مجلس اللوردات إتخذ توصية بإعادة النظر في سياستها في فلسطين . ولكن الحكومة لم تعرها إهتماماً ، وأصدرت سنة ١٩٢٢ الكتاب الأبيض الذي جاء فيه « أن الوطن القومي لا يعني فرض الجنسية اليهودية على أهل فلسطين إجمالاً ، وكل ما يعنيه أن يصبح لليهود في فلسطين مركز يكون موضع إهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينية والقومية . »

لم يقبل العرب الكتاب قبولاً حسنا لأنهم أخذوا يحذرون من كل ما تقوله بريطانيا ، ويشكون بكل ما تقوم به ، ويجابهون كل مقرراتها بالرفض . فقد انطلقت السياسة البريطانية من دعم الهجرة من جهة ، وإقامة نظام لدولة فلسطين مبني على أساس الطوائف دون النظر إلى عدد السكان .

حاولت بريطانيا وضع دستور للبلاد وإقامة مجلس تشريعي يكون مؤلفاً من : عشرة من المسلمين واثنين من المسيحيين واثنين من اليهود وعشرة من الإنكليز . وقاطع العرب هذا المجلس ففشل . ثم حاولت الإدارة البريطانية إقامة وكالة عربية شبيهة بالوكالة اليهودية . فرفضها العرب لأنهم كانوا يطالبون بتمثيل السكان حسب عددهم .

لم تكن الحركة العربية المناهضة للسياسة البريطانية منظمة ، وإنما كانت إرتجالية قائمة على أساس الوجاهات العائلية القديمة ، ولذلك لم تخل من صراع بين هذه العائلية ، أفسد الكثير من قدرة الشعب العربي

على النضال ، وفتت قواه ، واعطى تلك المقاومة وجهاً محافظاً رجعياً . وهنا لا بد من أن نتحدث قليلاً عن مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الذي قاد المعركة مدة طويلة .

سنة ١٩٢١ توفي الشيخ كامل الحسيني مفتي القدس ، فطرحت مسألة خلافته ، وقد يكون منصب الافتاء هذا أهم منصب في فلسطين ، لأن له طابعاً رسمياً تقليدياً يمنح صاحبه الإشراف على شئون المسلمين وقيادتهم . فضلا عن أنه ذو مساس عميق بحياتهم الدينية ، والدنيوية . كان منصب الإفتاء وراثياً في أكثر البلدان الخاضعة للدولة العثمانية تتمسك به بعض العائلات لأهميته من جهة ، ولأنه دليل ثابت على عراقة تلك العائلات ، من جهة أخرى . وكانت عائلة الحسيني – وهي تزعم إنتسابها للنبي – تتوارث منصب الإفتاء في القدس ، منذ أكثر من قرن . وقد قلت فيما سبق إن أمين الحسيني قد ظهر على المسرح للمرة الأولى سنة ١٩٢٠ ، وحكم عليه بالسجن ، غير أن المندوب السامي عفا عنه بعد ذلك .

أخذ أمين الحسيني يعد نفسه كي يحل محل أخيه . سافر إلى القاهرة وحصل على شهادة الازهر العالمية . ثم حج إلى مكة (كان من قبل قد درس في الأزهر وفي « دار الدعوة والجهاد » التي أسسها الشيخ رشيد رضا ، ولكنه لم يحصل من قبل على شهادة الأزهر) . وخلع الطربوش ولبس العمة وأطلق لحيته .

جرى التقليد في اختيار المفتي (وهو منصب لمدى الحياة) أن يتم من خلال هيئة تضم مشايخ الحرم والأعضاء المسلمين في بلدية القدس .

كان رئيس البلدية آنئذ راغب النشاشيبي ، زعيم عائلة كبيرة تنافس عائلة الحسيني ، فرشح منافساً للشيخ الجديد أمين ، شيخاً آخر هو حسام جارالله ، وضمن لمرشحه أصوات أعضاء البلدية فنال الآخير عدداً من الأصوات أكبر من عدد أصوات الحسيني . ورفعت قائمة للمندوب السامي من أربعة أسماء كان اسم الحاج أمين آخرها للانتقاء ،

فانتقاه بالذات بينما كان منتظراً أن يعين سواه . هذه المسألة ما زالت موضع تساؤل المهتمين بتاريخ الحركة الفلسطينية . والظن أن الإنكليز كانوا يريدون استرضاء آل الحسيني من جهة ، وإيجاد التوازن بين العائلتين : النشاشيبي والحسيني من جهة ثانية ، وجعل أمين الحسيني مرتبطاً بالسلطة بشكل ما ، خوفاً من حدوث إضطرابات . وهنالك سبب أهم من هذه كلها ، وهو أن السلطات الإنكليزية كانت تفضل أن يوجد على رأس الحركة العربية قادة نصف ثوريين ، يناضلون من خلال إرتباطهم ومصالحهم العائلية ، مستعدون للمهادنة وقبول الحلول النصفية ، قادة يستطيعون المناورة معهم ، لا يجرؤون على حلول ثورية كاملة ، مما يسهل على السلطة لجم المقاومة وإيقافها عندما تأخذ شكلا خطيراً .

وجاءت بعد ذلك إنتخابات المجلس الإسلامي التي يشترك بها كل المسلمين الذكور الراشدين ، للإشراف على الأوقاف الإسلامية . ولكن محكمة العدل العليا حكمت ببطلانها وقررت السلطة تعيين أعضاء المجلس ، فجاء التعيين ملائماً للنتائج الملغاة ، ولمصلحة الحاج أمين الحسيني (المفتي الآن) . فانتخب رئيساً للمجلس الإسلامي وغدا أقوى شخصية في فلسطين ، وأهم سلطة دينية ، لأن تعيين ائمة المساجد بيده ، ولأن الأوقاف الإسلامية أصبحت تحت تصرفه .

كان الفلسطينيون يفكرون في طريق للمقاومة ، فالخطر على كيانهم يزداد يوماً بعد يوم ، وأخذ الناس يتحدثون عن مقاطعة السلطة والامتناع عن دفع الضرائب . غير أن الخلافات الناشئة بين الوجوه السياسية جعلت المؤتمر الوطني السادس الذي عقد سنة ١٩٢٥ لا يؤدي إلى نتائج سلبية أو إيجابية .

كان الانكليز في تلك الفترة كلما انسوا توتراً شعبياً ضدهم لوحوا لبعض الزعماء بالوعود وبامكانية حل للمشكلة عن طريق المفاوضات فيسكتون وتعمد الصحف إلى نشر الأخبار فينتظر الشعب النتائج ، حتى إذا خفت حدة التوتر إنجلت المفاوضات عن لا شيء . ففي تموز

١٩٢٦ ، مثلاً ، حين كانت الثورة السورية ضد الإنتداب الفرنسي في أوجها ، خافت السلطة الإنكليزية أن تجابه نفس الوضع فعمدت بواسطة مساعد السكرتير العام لحكومة الإنتداب ، مستر ميلز ، إلى مفاوضات طويلة إنجلت عن لا شيء .

في سنة ١٩٢٨ أثارت الصهيونية حقوق اليهود في حائط المبكى ، وحاولت شراء ما حوله من أرض بأثمان باهظة . وقامت في عيد الغفران تلك السنة باحتفالات غير عادية ونفخت في الصور ، فانشأ الحاج أمين الحسيني : « جمعية حراس المسجد الأقصى » التي انتشرت في جميع أرجاء فلسطين .

في تموز ١٩٢٩ عقدت الصهيونية مؤتمرها في زوريخ وخطب الخطباء فأثاروا قضية حائط المبكى . ولما كان عيد الغفران في آب ، قام اليهود بمظاهرة كبيرة في القدس ، أجاب عليها العرب بمظاهرة مضادة في الأسبوع التالي . وفي ٢٣ آب حصل اشتباك بين العرب واليهود بالقدس امتد إلى بقية فلسطين بصورة عفوية ، فكانت شبه مذبحة بين العرب واليهود ، نجمت عن خسارة جسيمة من جانب اليهود ، فكانت بداية رهيبة لمستقبل العرب واليهود .

كان بوسع انكلترا ، وهي الدولة المنتدبة آنئذ ، أن توقف الحالة عند حدها ، وأن تلجأ لحلول معقولة . غير أن التدابير التي قامت بها كانت كفيلة بأن تزيد التوتر مع الزمن .

وكادت تلك الحوادث تتطور إلى ثورة ، غير أن اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي حالت دون ذلك مؤملة بمفاوضات جديدة .

جاءت في تلك الفترة لجنة إنكليزية درست الوضع في فلسطين ، واتصل سانت جون فيلبي بزعماء العرب من أجل وضع حل . غير أن اللجان والإتصالات والوفود العربية التي كانت تذهب للندن ، كانت تصطدم دائماً بقضية الهجرة وانتقال الأراضي لليهود . وأصدرت الحكومة الإنكليزية سنة ١٩٣٠ كتاباً سمته الكتاب الأبيض ، لم يجىء بأي حل .

وانجلت تلك المرحلة عن أمرين هامين : الأول ما سمي بمشروع الدفاع عن المستعمرات الذي قدمت بموجبه الإدارة البريطانية الأسلحة الخفيفة لليهود وأعطتهم مدربين . والأمر الثاني نشوء حلقات كفاح سرية بين العرب لا علاقة لها بالزعماء التقليديين ، وهي أساس منظمات الفدائيين مثل الفتح والعاصفة . فقد رأى الفلسطينيون العرب أن الزعماء التقليديين مرتبطون بصورة أو بأخرى بانكلترا ، وأنهم غير قادرين على قيادة حركات ثورية . رأوا أن حالة الشعب الفلسطيني تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وأن الزعماء التقليديين يزدادون ثروة وجاهاً ، وأنه لا يمكن لقضية فلسطين أن تحل بغير السلاح . كانت الاضرابات والمظاهرات كثيرة ، غير أن هذه المظاهرات كانت إلى حد كبير تنفساً للكبت الشعبي كي لا ينفجر بشكل آخر .

قلما يتحدث الناس في البلدان العربية وصحفها عن الشيخ عز الدين القسام ! وقليلون هم الذين يعرفون عنه الكثير . ويظهر أن أتباعه يخفون كل المعلومات عنه ، وقد يكون إعلانها سبباً في كشفهم . واظنهم يقدرون أن مرحلة ظهورهم على المسرح لما تحن بعد . في كل ما يتعلق بالقضية الفلسطينية نجد دائماً نقطة غامضة نبحث عنها ونتتبعها ويختفي الأثر مهما الحجنا في تتبعه . نجد الحكومات العربية في مواقف لا ترغب فيها ولكنها تنزلق فيها شاءت أم أبت ، ونبحث عن السبب والأثر فيضيع عنا في لحظة من اللحظات .

ظهر في الشرق الأوسط عبر التاريخ شخصيات عربية غامضة ولكنها لعبت على مسرحه أخطر الأدوار وأكبرها ، وظلت حتى الساعة يحيط بحياتها الغموض ، مثل حسن الصباح ، والشيخ القرفاص ، وبن باديس ، ولكنها تمتعت باشعاع استمر بعدها . إختفت غير أن أثرها استمر طويلاً . فقد أنشأت عقلية معينة وتفكيراً خاصاً وتعاليم تجعل من أتباعها تلاميذ يضعون حياتهم في خدمتها ، لا يفكرون إلا بها ولا يعيشون إلا لها . تتحدث المسيحية دائماً عن بولس الرسول ، وقد رأى الشرق الأوسط نماذج كثيرة من هذا النوع .

كل ما نعرف عن عز الدين القسام أنه رجل دين وقور وخطيب مصقع . كان يعلن أن قضية فلسطين لا تحل إلا بثورة مسلحة قوامها العمال والفلاحون ، ويرى أن المنظمات الشعبية القائمة هي منظمات فوضوية فاشلة وأن قيادة الحركة الوطنية هي قيادة متآمرة .

لم أستطع الوصول إلى معلومات واسعة عن الشيخ وحركته ، وكل ما أعلمه هو ما يلي :

١ – رأى القسام أن المقاومة تتطلب وجود « كوادر » مهيأة عقائدياً وسياسياً وعملياً .

٢ – إعتبر أن الإستعمار البريطاني والصهيونية هما شيء واحد فلا بد من العمل لإزالتهما معاً .

٣ – إن العمل المسلح هو وحده القادر للحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين .

ولذلك عمد إلى :

أ – إنشاء تنظيم سري دقيق .

ب– تربية المقاتلين وتثقيفهم سياسياً ودينياً .

جـ – تدريبهم عسكرياً .

د – تعبئة الجماهير كي تكون إحتياطي الثورة مادياً وبشرياً .

بدأ الشيخ القسام بالعمل منذ سنة ١٩٢٢ وعمد إلى اختيار الكيفية دون الكمية . فكانت الحلقات قليلة ولكنها متينة التكوين ، وأظن أن تنظيمه أول تنظيم عربي جدي . وجهد كثيراً في إخفاء هذا النشاط بقيامه بمختلف النشاطات الأخرى . إنتسب سنة ١٩٢٦ إلى جمعية الشبان المسلمين وانتخب رئيساً لها ولم يكن ذلك إلا ليخفي نشاطه الرئيسي . واستخدم كل وسائله من أجل أن يعين سنة ١٩٢٩ « مأذوناً شرعياً » من أجل أن تتاح له الفرصة للتجول بين أوساط الشعب بجميع فئاته ، والإتصال به وانتقاء العناصر لحركته ، دون أن يلفت أنظار السلطة .

كان خطيباً عظيماً أخذ يهاجم بقية رجال الدين فثاروا عليه . طلب من الشيخ أمين الحسيني أن يعينه واعظاً متنقلاً كي يلهب شعور

العرب ولكن الأخير رفض ، إذ تنبه لحركته وخطورتها ، معتذراً بأنه يريد حل القضية الفلسطينية « سياسياً » . وسنة ١٩٣٥ أرسل إليه القسام أحد تلاميذه ليعلمه بعزمه على إعلان الثورة في شمال فلسطين ويطلب منه إعلانها في جنوبها ، غير أن المفتي الأكبر أجاب « بأن الوقت لم يحن بعد لذلك » .

غير أن القسام كان يرى أن الوقت قد حان ، لذلك هيأ للعمل الثوري وقسمه إلى فئات خمس :

١ – فرع الدعوة : مكون من المشايخ الذين يخطبون في الناس حضاً على الثورة .
٢ – فرع التدريب العسكري .
٣ – فرع التموين .
٤ – فرع التجسس .
٥ – فرع العلاقات الخارجية .

وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥ قرر القسام بدء الكفاح المسلح . قال له أحد أشياعه نحن قلة ، فأجاب : لن ننجح ، وليس هذا مهماً ، فالمهم أن نعطي الدرس للأمة . وبالفعل كان عدد المنظمة ٢٠٠ عضو و٨٠٠ من الأنصار .

أعلنوا الثورة في قضاء جنين فهاجمتهم القوات البريطانية وقتل القسام في ظروف غامضة في أول احتكاك مع الجيش الإنكليزي . وفشلت خطته في احتلال حيفا وإعلان دولة الثورة ، غير أن البقية الباقية استمرت بقيادة فرحان السعدي .

في هذه الفترة نشطت السياسة البريطانية واستجاب لها الزعماء التقليديون كي يقطعوا الطريق على الثورة . فظلت جماعة القسام تقوم بأعمال محدودة ، وذهب وفد للندن لمقابلة المسؤولين البريطانيين عاد دون أية نتيجة إيجابية . فاعلنت البلاد إضراباً عاماً وامتدت الثورة إلى جميع مناطق فلسطين وقامت عمليات عسكرية واسعة خربت كثيراً من المصالح البريطانية واليهودية ، فهلكت المزروعات ونسفت

القطارات والجسور . وزاد إندفاع الثورة عندما ألحق بها عدد من العرب جاءوا من مناطق متعددة بقيادة فوزي القاوقجي . ومما ساعد الثورة في ذلك الحين أن سلطات الإنتداب الفرنسية في سورية سهلت لها وصول بعض المساعدات . وخشيت إنكلترا ، وبعد ذلك فرنسا ، أن تمتد تلك الثورة لمناطق أخرى فاتصلت بالزعماء العرب كي يعملوا لإيقافها . ووافقت اللجنة العربية العليا التي حلت محل اللجنة التنفيذية لإنهاء الثورة والإضراب ، على أن تتوسط حكومة العراق ، برئاسة نوري السعيد ، لوصول العرب إلى حقوقهم .

ونشرت جريدة « البالستاين بوست » كتاباً أرسله المندوب السامي لوايزمن يقول له فيه إنه لا علم له بأية وساطة . فاستمرت الثورة ، فأبرق الملك عبد العزيز آل سعود للجنة العربية العليا ينبئها فيها بأن إنكلترا ستنظر في مطالب العرب ولكن بعد إيقاف الثورة والإضراب . وأذيعت بيانات (ذات نص واحد) بتوقيع الملك عبد العزيز ، ويحيى ملك اليمن ، والأمير عبدالله ، تطلب كلها الإخلاد للسكينة معتمدين على « حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل . »

وهكذا أذاعت اللجنة العربية بياناً طلبت فيه إنهاء الإضراب بعد أن استمر ستة شهور كاملة . وأخذت السلطات البريطانية تطالب بإخراج الثوار الذين جاءوا من البلدان العربية ، بل حاولت أن تقبض على القاوقجي ، وأعلن وزير المستعمرات ، بعد ذلك ، أن الزعماء العرب وجهوا نداءاتهم دون أن يطلب اليهم ذلك ، وجاءت لجنة ملكية في ١٢ تشرين الثاني كي تدرس الوضع في فلسطين . أما الهجرة فقد ظلت مستمرة .

قابلت اللجنة العربية المندوب السامي من أجل إيقاف الهجرة ، ففهمهم أنه مكلف بتنفيذ سياسة مرسومة ، فقررت اللجنة مقاطعة اللجنة الملكية ، ثم عادت عن قرارها وقدمت لها المطاليب التالية :

١ ـ العدول عن تجربة الوطن القومي اليهودي الفاشلة .

٢ – إيقاف الهجرة اليهودية إيقافاً تاماً وفورياً .
٣ – منع إنتقال الأراضي العربية لليهود منعاً باتاً وحالاً .
٤ – حل قضية فلسطين بإنهاء الإنتداب وعقد معاهدة بين بريطانيا وفلسطين ، مستلهمة من المعاهدة البريطانية العراقية .

صدر قرار اللجنة الملكية في تموز ١٩٣٧ الذي يوصي بتقسيم فلسطين إلى مناطق ثلاث : عربية وصهيونية وإنكليزية . وسمح القرار بهجرة ٨٠٠٠ يهودي « على ألا تضر الهجرة بمقدرة البلاد الإقتصادية على استيعاب المهاجرين . »

وأيد بعض العرب مشروع التقسيم ، غير أن الغالبية وقفت منه موقفاً معادياً . والذي كان يخيفهم وجود دولة مهما كانت صغيرة تزيد في الهجرة وتعتمد على موارد خارجية هامة وتتوسع شيئاً فشيئاً .

إستدعى المندوب السامي البريطاني بعض الزعماء المحليين ومنهم الحاج أمين الحسيني ، ونصحهم بالتروي وعدم التصلب . غير أن بوادر العودة للإضراب والثورة أخذت تعود للظهور ، فألقت السلطات البريطانية القبض على بعض الزعماء وحاولت توقيف الحاج أمين الحسيني ، فلجأ إلى الحرم ، وعمدت إلى إقالته من جميع مناصبه .

إنفجرت الثورة ثانية رغم الصعوبات التي عانتها بالتجمع من جديد . وفي ربيع ١٩٣٨ هيمنت الثورة على القسم الأكبر من فلسطين ، وأقامت في أكثر المناطق نظاماً إدارياً ، فسيطر القواد المحليون عسكرياً وإدارياً . إعتمدت الثورة أسلوب حرب العصابات الحديثة . كانوا زمراً صغيرة تهاجم وتنسحب وقد دخلت عدة مرات معارك واسعة . وكان الشعب يدعم هذه الزمر عند الحاجة .

كانت هذه الثورة معدومة الإتصال تقريباً بالقيادة السياسية ، ولذلك تأسست « اللجنة المركزية للجهاد في خارج فلسطين » مهمتها التنسيق السياسي وتأمين العتاد اللازم ، ولكنها لم تنجح في ذلك ، ولا في إيجاد قيادة عسكرية موحدة للثورة كلها .

وجاءت حينئذ لجنة فنية دعيت « لجنة سميث » للإشراف على

التقسيم . غير أنها لم تنجح ، فأعلنت الحكومة البريطانية عن رغبتها في إيجاد حل آخر ، وأشارت إلى رغبتها في عقد مؤتمر في لندن يضم ممثلي الدول العربية وعرب فلسطين واليهود لإيجاد حل .

كانت بريطانيا آنئذ ترى أن الحرب واقعة ، فأرادت أن تصفي مشاكل الإمبراطورية إستعداداً لخوضها ، فأخذت تناور لإيقاف الثورة التي كانت تمتد شيئاً فشيئاً رغم كل الصعوبات التي تعانيها . ودارت المفاوضات في جو قلق ، أصدرت بعدها الحكومة البريطانية كتاباً أبيض تشير فيه إلى ضرورة إيقاف إنتقال الأراضي ، وإيقاف الهجرة بعد إدخال ٧٥ ألفاً من اليهود . وترك الكتاب أمر الإستقلال مرهوناً بالتعاون بين العرب واليهود ، ووعدت بتعيين فلسطينيين : عرباً ويهوداً في الإدارة ، مقدمة لذلك .

إستطاعت بريطانيا بهذه الوسيلة أن تقسم العرب على أنفسهم ، منهم من كان إلى جانب الكتاب الأبيض ، ومنهم من كان ضده . وانقلب الخلاف إلى خلاف مسلح بين العرب [١] وأخذت الثورة تضعف وأخذت سلطات الإنتداب الفرنسية تغير موقفها ، كما أن ثلاثة سنين أنهكت قوات الثوار فتوقفت الثورة نهائياً بعد نشوب الحرب الكبرى الثانية .

جاءت تلك الحرب ، والعلاقات بين العرب واليهود أقسى ما تكون . كلاهما يتعنت بمطاليبه ، كلاهما يخشى الآخر ويضمر له الشر . فقد كان خوف كبير يسيطر على الطرفين . الصهيونية تطالب بكل فلسطين على أنها ملك لليهود وحدهم . والعرب يرفضون أن يشهدوا قدوم لاجئين جدد ، ففي رؤية كل قادم جديد يكمن خطر ذبح العرب وتهجيرهم .

وقد حض الإضطهاد النازي عدداً كبيراً من اليهود على الهجرة في مجموعات بائسة إلى فلسطين . وعانى العرب أزمة ضمير ، فهم من

---

(١) شكل راغب النشاشيبي فرقة بمساعدة بريطانيا لملاحقة الثوار الذين أستشهد بعضهم

جهة تشدهم الرغبة إلى إغاثة القادمين الجدد ، ومن جهة ثانية يخشون أن يروا أنفسهم وقد طردهم القادمون أنفسهم من أرضهم . إنه ، دون شك ، أكبر مأزق تعرض له العرب في تاريخهم .

ومع ذلك لم يخف اللاجئون اليهود نواياهم . كتب أ.د. غوردن ، وهو من أوائل اللاجئين اليهود : « إننا نترك حياتنا الماضية التي أصبحت مهينة لنا ، ونبدأ من البداية . لا نسعى إلى التغيير ، أو إلى تحسين أوضاعنا ، ولكننا نريد أن نبدأ منذ البداية . » كذلك أرثر كوستلر كتب في « برج عذرا » : « حين يعود يهودي إلى هذه البلاد ، ويرى حجراً ويقول : هذا الحجر لي ، فإن شيئاً ما سينكسر فيه ، هو الذي بقي الفي سنة معلقاً».

إن القادمين ، في الواقع ، منذ وطئت أقدامهم أرض فلسطين ، تحرروا من ماضيهم ، وغدوا مستعدين للاستقرار كأسياد البلاد وأصحابها ، ولو بواسطة المذابح .

٤

أعلنت الحرب العالمية الثانية ، والعرب في جميع أقطارهم يشعرون بالعداء نحو الحلفاء ، وخاصة بريطانيا . كانوا يعتبرونها مسؤولة عن عن عدة أشياء :

أ — عن مأساة الملك حسين . إن العرب شعب عاطفي كان عبر التاريخ يتعلق بالبطولة ويقدس الأبطال . وقد رأى بالملك حسين بطلاً تاريخياً غرّر به الإنكليز وخدعوه .

٢ — عن تقسيم البلاد العربية إلى سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق الخ ... ومحتلين مستعمرين لاجزاء كبيرة وهامة من الوطن العربي .

٣ — عن مقاومة حركة الحرية والوحدة في البلدان العربية .

٤ — عن مشكلة فلسطين وكل ما نجم عنها . إنهم كانوا عنصراً هاماً من عناصر النصر في الحرب العالمية الأولى غير أن الحلفاء والإنكليز خاصة غدروا بهم وسلبوهم حقوقهم المشروعة ، وإنهم خرجوا من الحرب العالمية الأولى ظافرين مغلوبين . فلو استطاع العرب في تلك الفترة خوض الحرب لما ترددوا في خوضها إلى جانب المانيا .

٥ — عن معاهدات الصلح التي كانت طعنة بروتوس الأخيرة ، وإن بروتوس لم يكن غير إنكلترا .

هنالك كثير من السياسيين والكتّاب العرب يريدون ، لسبب أو آخر ، أن يزعموا العكس . ولكني أريد في هذه المناسبة أن اقرّر

حقيقة تاريخية .

لقد شاءت الدعاية الصهيونية أن تتهم العرب بالنازية ، مستشهدة على ذلك بتعاون مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني مع النازيين ، غير أن هذه الدعاية أيضاً لا تستند إلى أساس من الصحة ، فالواقع كما أقدره أنا هو كالتالي :

العرب يحبون الإلمان . وقد يكون من الصعب تحليل عواطف شعب بكامله ومعرفة أسباب حبه وبغضه . ولكنني أعتقد أن السبب هو أن العرب يعتقدون أن الإلمان شعب طيب القلب ، جدّي ، صادق ، شجاع يمقت الاحتيال والظلم ، وإنهم فوق ذلك شعب مبدع قدم للحضارة ما لم يستطع شعب آخر أن يقدم . إن بعض الأسماء الإلمانية لها بريق خاص بالنسبة للعرب : كانت ، فيخته ، هيغل ، شوبنهاور ، شيلر ، غوته ، باخ ، بيتهوفن ، فاجنر ...

عانى الإلمان نفس التجربة العربية من أجل توحيد بلادهم . حركة الوحدة عندهم هي حركة إنسانية .

وهم فوق ذلك ضحية من ضحايا معاهدات الصلح . كانوا يرون أن المانيا على حق في المطالبة بإعادة النظر في معاهدة فرساي ، لأن العرب كانوا ينادون بإعادة النظر بالمعاهدات التي جعلت منهم شعباً ممزقاً منتدباً عليه . ولم يعن ذلك أبداً أن العرب وافقوا على ما جاءت به النازية من أفكار وما ذهبت إليه من نظرة عرقية ، وما كان يرضيهم أبداً أن تضعهم النازية بين الشعوب المتأخرة .

لقد فرّق العرب بين المانيا وبين نظام الحكم ، لأنهم يدركون أن النظام ، أي نظام ، لا بد وأن يزول ويبقى الشعب . والمفتي لم يكن يمثل العرب أبداً ولا اتجاهاتهم ، ولم يكن يستطيع البقاء في أرض يحتلها الإنكليز ، وهو ملاحق مطارد من قبل السلطات الإنكليزية .

وقد أخذت الدعايات على العرب ثورتهم في العراق ضد الإنكليز ، أعني ثورة رشيد عالي الكيلاني ، ولكن هذه الثورة لم تكن على علاقة من بعيد أو قريب ببرلين . والدليل على ذلك أن الحكومة الالمانية

أذاعت في ثاني يوم للحركة البيان التالي : « قامت في بغداد حركة ثورية يعتقد أنها ضد إنكلترا » . ولو درسنا قليلاً تلك الثورة لوجدنا أن الإنكليز وضعوا الحكم في العراق آنئذ في وضع حرج أكره الجيش العراقي والحكومة العراقية ورئيسها رشيد عالي على الثورة . لأن الإنكليز وضعوا آنئذ خطتهم للسيطرة على كل بلاد العرب خشية أن يتعرضوا أبان الحرب لحركات ثورية في البلدان العربية ، وكان العراق البلد الوحيد الذي يملك جيشاً ، وكانت تعلم إنكلترا أن شعور العرب عدائي نحوها .

أما المظالم التي لحقت باليهود فلم يؤيدها عربي واحد ، لا بالقول ولا بالفعل . ولست بحاجة لإثبات ذلك ، فالذين زعموا مثل هذا الزعم لم يستطيعوا دعمه بدليل ما فشعور العرب ضد الحلفاء لأنهم خذلوهم في الحرب العالمية الأولى لا يعني أنهم مسؤولون عن معسكرات الاعتقال . لقد خاضت اليابان وإيطاليا الحرب إلى جانب المانيا ، فهل نعتبر اليابان مسؤولة عما لحق باليهود ؟ وهل من المنطق أن نعتبر الالمان جميعاً مسؤولين عن كل ما لحق باليهود لأن بعض الالمان اضطهدوهم ؟ هل نعتبر الروس أو الإسبان مسؤولين عن المذابح التي حدثت في روسيا أو في إسبانيا في الماضي ؟ المفتي نفسه لم يعلن أبداً أنه يؤيد المظالم التي قامت بها النازية ، ولا ننس أنها كانت من أسباب الهجرة اليهودية الجماعية المباشرة إلى فلسطين . أما الحركات الثورية التي قامت في فلسطين فلم تكن غير محاولة للتشبث بالأرض . ولو جاء البلاد شعب آخر غير اليهود لما اختلف موقفهم .

بدأت الحرب العالمية الثانية ، وقد انتهت الثورة العربية في فلسطين إلى فشل . ولم يكن من المستطاع الاستمرار بها في ظروف الحرب .

أما المنظمة الصهيونية فقد وجدت في الحرب فرصتها . جهدت ما استطاعت في جلب أكبر عدد من المهاجرين لفلسطين وأخذت تعد لتأسيس دولة بالقوة . واتحدث هنا عن بداية الاعداد العسكري الصهيوني في فلسطين . منذ أن بدأت المنظمات الصهيونية تؤم فلسطين

أنشأت تنظيمات عسكرية ، وجلبت لها السلاح بمختلف الوسائل ، انتظاراً لليوم الذي تستطيع فيه إشهاره ؛ ويعود تأسيس أول قوة مسلحة إلى سنة ١٨٧٠ ، أي لدى إنشاء المستعمرات الأولى – تحت إسم « هاشومر » أي الحرس .

ساعدت بريطانيا في بناء الجيش الصهيوني ، مما لا ينسجم مع بعض تصريحات الزعماء البريطانيين الذين ذهبوا إلى أن كلمة « هوم » تعني موطناً روحياً .

أسست بريطانيا في الحرب العالمية الأولى فرقة البغالة اليهودية ، واشترك في تلك الحرب كل من الكتيبة ٣٨ – أول قوة يهودية محاربة – والكتيبتين ٣٩ و٤٠. وكان تعداد هذه الوحدات سنة ١٩١٩ خمسة آلاف جندي . كانت ترفع العلم الصهيوني وتعزف النشيد الصهيوني .

في نهاية الحرب هاجر الجزء الأكبر من هؤلاء الفلسطينيين اليهود وكونوا النواة الأساسية لمنظمة الهاجاناه العسكرية التابعة للوكالة اليهودية . وكان أول قائد لها الياهو كولومب ، وسمحت السلطات البريطانية لها بالتدريب . كانت من الناحية الشكلية غير شرعية ، ولكنها كانت تتمتع « بالعطف والتشجيع » .

عام ١٩٣٦ عينت حكومة الانتداب بعض اعضاء المنظمة في قوة البوليس وزودت كلا منهم ببندقية . بلغ عدد هؤلاء في بداية الحرب ١٥ ألفاً.وتوصلت الهاجاناه إلى اتفاق مع فرع الـ « **g. si. j** » في قيادة الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية على « تسليح جماعات الهاجاناه وتدريبها على حرب العصابات . » وأنشأت الإدارة البريطانية مدرسة تدريب سرية في المنطقة الجردية ، إلى الجنوب الشرقي من حيفا .

أخذت إذاعة برلين منذ بداية الحرب تتحدث عن إنشاء الفيلق اليهودي بالاتفاق بين بريطانيا والوكالة اليهودية ، على أن يقاتل المتطوعون اليهود فيه مدة شهور ستة بعد تدريبهم ، ثم يدخلون إلى فلسطين ويتركون فيها أحراراً بسلاحهم الخفيف .

وهكذا انضم خلال الحرب الثانية أكثر من ٣٠ ألفاً من اليهود إلى القوات البريطانية . وفي سنة ١٩٤٤ سمح للصهيونيين بإنشاء « كتيبة يهودية » خاصة بهم ، تتكون من الكتائب اليهودية الثلاث التابعة للوحدة الفلسطينية . ثم أضيفت إليها وحدات للدعم والمساعدة من بين اليهود الفلسطينيين ، ومن بين من أنهوا فترة التدريب والقتال من اليهود الأوروبيين .

في نهاية الحرب كان لدى الوكالة اليهودية جيش فعلي مكون من أكثر من ٢٦ الف جندي، منهم موشه دايان ، ومناحيم بيغن ، ورابين . واعتمدت تلك القوة في تسلحها على ما حصلت عليه من بريطانيا وعلى تهريب السلاح بصورة كثيفة . والمرة الأولى التي اكتشف بها العرب التهريب فيها كانت سنة ١٩٣٥ ، وبطريق المصادفة .

يقول كوستلر « أصبح المحاربون القدامى في الفوج اليهودي ما كانت ترمي إليه الإدارة البريطانية تماماً . أي نواة الجيش الإسرائيلي في المستقبل والعامل الحاسم في التغلب على العرب ».

كان يزداد مع الزمن الميل إلى العنف . وقد ظهرت في قلب المنظمة الصهيونية فئات ترى أن القائمين على الحركة الصهيونية « مسالمون » لا يجرؤون على الحركة لإقامة دولة إسرائيل . وهنالك من نادى بضرورة الدخول في معركة تحرر ضد بريطانيا ، عكس ما كان يرى القادة ، وبخاصة ، وايزمن . ونتج عن ذلك أن وجدت إلى جانب الهاجاناه منظمتان أخريان هما « الارغون » « وشترن » . ومن الضروري أن نتحدث قليلا عنهما ، لأنهما طورتا الصراع بين العرب واليهود ووجهتاه وجهة دموية .

مؤسس « الارغون » هو جابوتنسكي ، وهو من يهود روسيا اشتهر بعدائه الشديد لوايزمن . كان يؤمن بضرورة الإسراع بالهجرة والإعتماد بشكل رئيسي على وحدات عسكرية يهودية . ساهم مساهمة فعالة في إنشاء الكتيبة اليهودية في الحرب العالمية .

كان أديباً وشاعراً يتغنى بالحرب والنصر . لقبه أصدقاؤه

« غاريبالدي » وخصومه موسوليني . كتب يقول عنه وايزمن : « كانت خطبه ثائرة النبرة لم تودّ فكرة محدودة ، حتى ان المرء لا يعرف مثلاً إذا كان مع استعمار أوغنده أو ضده . » ويقول عنه أيضاً : « كان قبيح الحلقة ولكنه جذاب جداً . »

استقال جابوتنسكي من الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية سنة ١٩٢٣ ، احتجاجاً على سياسة الكتاب الأبيض لعام ١٩٢٢ وأسس حزب « التصحيحيين » الذي أخذ يكبر شيئاً فشيئاً . وأصبح له في المؤتمر الرابع عشر الصهيوني (١٩٢٥) أربعة ممثلين ، وفي الخامس عشر (١٩٢٧) عشرة ممثلين . وفي سنة ١٩٣٥ قاطعوا المؤتمر وأسسوا « المنظمة الصهيونية الجديدة » وتلى ذلك أن جماعة التصحيحيين انشقوا في الهاجاناه سنة ١٩٣٧ وكونوا ما سموه « ايرغن تزفاي ليومي » ، أي المنظمة العسكرية القومية . وكان أول قائد عسكري لها « دافيد راتشيل » الذي يقول عنه بيغن إنه « أعظم عقلية عسكرية في جيلنا » .

أخذت هذه الحركة تتجه شيئاً فشيئاً نحو مزيد من العنف . أذاعت بياناً في شهر آب ١٩٣٩ على الصحافة الأوروبية تقول فيه « إن غزو بلد واستقلال أمة مظلومة لا يتوج أبداً بالنجاح إلا حين تدعمه القوة العسكرية ».

كان لهذه الحركة زي خاص وإشارة عليها خريطة فلسطين وشرق الأردن وعليها بندقية تقبض عليها يد ، وكتب عليها بالعبرية « راك كاخ » أي « هكذا فقط » .

قبل الحرب العالمية الثانية قامت بأعمال عنف كثيرة . كانت تعتبر نفسها قوة عسكرية تهاجم المنشئات الحكومية كمراكز الشرطة والبريد ، ومحطات سكك الحديد . وكانت تستعمل العبارات العسكرية ويطالب أفرادها إذا أعتقلوا بمعاملتهم كأسرى حرب . وتوقفت عن نشاطها في بداية الحرب كي لا تعرقل مجهود إنكلترا الحربي ، غير أن قرارها لم يرض جميع الأعضاء فانشقت عنها مجموعة في حزيران ١٩٤٠ وأسمت نفسها « لحماي حيروت أزراييل » أي « المحاربون من

أجل حرية إسرائيل » ، ثم سميت « شترن » نسبة إلى مؤسسها ابراهم شترن الذي كان مساعداً « لدافيد راتشل » . وهو إيطالي تأثر بالأفكار الفاشية . فقد عاصر موسوليني ودرس في إيطاليا في تلك الفترة .

اختلفت شترن عن الارغون بأنها كانت أكثر سرية ، مكونة من حلقات حدها الأعلى عشرة ، وآمنت بالاغتيال طريقة للنضال ولإخراج الإنكليز من فلسطين .

بعد أن أخذت كفة الحلفاء بالرجحان ، ومنذ ١٩٤٣ ، عادت الارغون لمزاولة نشاطها . وذلك عائد أولاً لوجود قائد جديد على رأسها هو مناحيم بيغن الذي يختلف اختلافاً بيناً عن جابوتنسكي وراتشل . فهو ليس متردداً كالأول الذي تغلب عليه صفة الأديب البعيد عن العمل ، ولا كالثاني العسكري المنظم المحدود البعيد عن الفكر .

سأتحدث قليلاً عن مناحيم بيغن لاني أعتقد أن أفكاره أخذت مع الزمن مدى أوسع في إسرائيل . وكي نتعرف إلى شخصيته لا بد من عرض بسيط لمؤسسي إسرائيل .

هنالك مدرسة هرتزل التي ظهر منها وايزمن ، وبن غوريون ، واشكول ، ودايان ، وربما جابوتنسكي . وهي المدرسة التي يغلب عليها طابع الماضي اليهودي في أوروبا ، طابع المضطهدين الذين جانبوا الاضطهاد وراوغوه ، ثم استخدموه واستخدموا وسائله لإقامة دولتهم ، كما استطاعوا استخدام الرأسمال اليهودي ، وعطف بعض زعماء أوروبا عليهم ، والمصالح الحزبية والانتخابية في أوروبا . كان انفصال جابوتنسكي عن تلك المدرسة معبراً عن عدم انسجامها مع كل ما يريد اليهود من فلسطين ، غير أن انفصاله لم يكن كاملا لأنه مر بنفس تجربة أولئك .

أما بيغن فهو الافتراق النهائي . وقد لا يكون الآن قائد اسرائيل ، ولكنه دون شك الرجل الذي يفكرون فيه عند الأزمة .

بيغن يهودي بولوني انتسب إلى الفيلق اليهودي وسرحته قيادته سنة ١٩٤٤ من شرق الأردن ، فيمن كانت تسرح ممن ينهون فترة

التدريب وقتال الشهور الستة ، فدخل فلسطين والتحق بالأرغون .

كان قبل ذلك عضواً في حركة الشباب اليهودي ، « البيتار » ، التي كانت تنتقي منها قيادة الأرغون اعضاءها . وبعد قليل أصبح بيغن قائد الارغون ، ثم زعيم حزب حيروت .

ألخص فكر بيغن بجملة قالها ، مستعيراً تركيبها من ديكارت : « نحن نحارب ، إذن نحن نكون » .

قد تكون المقارنة بين بيغن وبين بن غوريون التي كتبتها صحيفة نير الاسرائيلية موضحة للفرق بين المدرسة القديمة والجديدة :

« كلاهما يريد أن يحكم ، فما الفرق بينهما بالنسبة للحرب والسلم ؟ هنالك صفة مفضلة في أسلوب بيغن المكشوف . إنه لا يخفيه . فحيث يذهب يقول : إنني رجل حرب !

«فماذا من أمر بن غوريون ؟ أنه لا يقل عن بيغن حباً للحرب ، والفرق أنه لا يستطيع أن ينظر إلى الموقف بتفاؤل طفولي كما يفعل بيغن . إنه رجل حرب متنكر ، لا يفصح لسانه عن أسرار قلبه . وعندما يستعد بن غوريون للحرب فإنه يتكلم عن السلم » .

قلت إن شترن لم توقف نشاطها وإن الأرغون عادت إلى نشاطها أيضاً سنة ١٩٤٣ . ولكن العمليات لم تكن جد واسعة ، ثم اتسعت مع نهاية الحرب . وهنا نتساءل سؤالاً قد لا نصل إلى جواب مقنع له . تدل الظواهر على أنه يوجد تنسيق معين بين شترن والارغون والهاجاناه رغم الاختلافات . وقد ذهب بعض الكتاب العرب إلى أن كلا من المنظمات الثلاث كانت تقوم بأعمالها بناء على اتفاق مسبق ، وأن كلاً منها كلف بدور معين . فكانت شترن طليعة المعركة ، والارغون بدايتها . وكانت الهاجاناه تخوض المعركة الكاملة . أما الوكالة اليهودية فكانت تتنصل من أعمال كل منظمة من تلك المنظمات ، أو منها جميعاً ، أو تتبناها حسب مقتضى الحال . والظواهر تدل على أن ذلك قريب لمنطق الأمور .

انتهت الحرب وفي فلسطين ثلاث منظمات يهودية عسكرية :

الهاجاناه والارغون وشترن . أما العرب فلم تكن لديهم أية قوة منظمة ، ما عدا جماعة القسام الذين نجهل عنهم كل شيء في تلك الفترة .

قلت أخذت المنظمات اليهودية ، وخاصة شترن ، منذ سنة ١٩٤٣ تقوم بمهاجمة السلطات الإنكليزية . فقامت شترن بعمليات اغتيال جريئة أهمها اغتيال اللورد موين في ٦ تشرين الثاني ١٩٤٤ لأنه كان يعارض في الهجرة اليهودية الواسعة لفلسطين . حتى أن تشرشل ، وهو الذي كان من أصدقاء الصهيونية قال : « إذا كانت أحلامنا من أجل الصهيونية ستنتهي إلى دخان مسدسات المغتالين ، وجهودنا من أجل بناء مستقبلها ستوجد زمرة من السفاحين الخليقين بالمانيا النازية ، فإن الكثيرين ، وأنا منهم ، مضطرين الى اعادة النظر في الموقف الذي تمسكوا به طويلاً وباستمرار حتى الآن . وإن كان للصهيونية أي أمل بمستقبل سلمي ، فيجب الاقلاع عن هذه الأعمال الشريرة والقضاء على المسؤولين عنها قضاءً مبرماً . »

أما الأرغون فقد تخصصت بسرقة الأسلحة من الجيش البريطاني ، وذلك بمختلف الوسائل ، وبعمليات شبيهة بالقصص البوليسية : أشخاص يتكلمون الإنكليزية ، وقد يكونون من أصل إنكليزي ، يدخلون الثكنات ثم مستودع الأسلحة ويسرقون من السلاح ما طاب لهم . كان العرب يعتقدون أن هذه العمليات متفق عليها بين السلطات البريطانية والارغون . وقد فضحت ذلك محاكمة الجنديين « هاريس وستونر » إذ أعلن رئيس المحكمة عن وجود مؤامرة خطيرة وهامة في فلسطين ، تهدف إلى الحصول على السلاح والذخيرة والمؤن من قوات بريطانيا ، مشيراً في الوقت ذاته الىأن المنظمة التي تدير نشاط المتهمين تملك كل الوسائل الضرورية للحصول على المعلومات المتصلة بالأسلحة والتنظيمات العسكرية البريطانية .

وجاءت سنة ١٩٤٦ وتعداد المنظمات العسكرية الصهيونية كالتالي : الهاجاناه : ٤٠ ألفاً من الجنود الذين يعملون في مهن عادية ولكنهم

مستعدون دائماً للحركة ، و١٦ ألفاً من قوات البوليس . أما القوات التي سميت بـ « البالماخ » والتي كانت قوات عسكرية بكل ما في الكلمة من معنى فكان تعدادها ٨٠٠٠ مقاتل .

أما الارغون فقد كان تعدادها بين ٣٠٠٠ و٥٠٠٠ مقاتل ، بينما كان تعداد شترن من ٢٠٠ – ٣٠٠ فقط .

انتهت الحرب ولدى الصهيونية جيش منظم مستعد للحركة عند أول بادرة . وكان من المفروض أن تتوقف الهجرة عام ١٩٤٥ حسب الكتاب الأبيض الذي صدر عام ١٩٣٩ ، غير أن الصهيونية لجأت إلى الرئيس ترومان، فضغط على إنكلترا حتى أعلنت في ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٦ أن الهجرة مستمرة رغم أن عدد اليهود بات ٦٦٠ ألفاً وأصبحوا يملكون أكثر من ثلثي الأراضي .

وقدمت في كانون الثاني من ذلك العام إلى فلسطين لجنة تحقيق بريطانية أمريكية قابلها بعض الزعماء العرب وقدموا لها مذكرة باسم اللجنة العربية العليا ، لم تكن تختلف كثيراً في محتواها عما قدم قبل الحرب من مذكرات : وقف الهجرة ، وقف بيع الأراضي ، إنهاء الانتداب الخ ...

يبدو أن اللجنة قدمت إلى فلسطين تحمل كثيراً من الأفكار السابقة التي لا تنسجم مع مهمتها . ويتضح ذلك من الأسئلة التي وجهت للسيد جمال الحسيني .

س : ما هو موقف اللجنة العربية العليا من اللاسامية ؟

ج : عدوتنا ، ولولاها ما جاء اليهود إلى هنا . فلقد كان اليهود جيراناً طيبين لنا قبل الصهيونية .

س : ما رأيك في تعاون الحاج أمين مع الإلمان .

ج : كان يعمل لمصلحة بلاده على طريقته .

س : إذن ، كان المفتي في إلمانيا وأنتم على الحياد ؟

ج : عملنا ما عملتم مع روسيا الدكتاتورية .

قد يدل ذلك على خروج اللجنة عن المهمة التي جاءت من أجلها.

فهي لم تجيء كي تحاسب بعض العرب على ميولهم وإنما كي تضع حداً لمشكلة إنسانية كبيرة وخطيرة .

صدر تقرير اللجنة في ٢٠ نيسان ١٩٤٦ ونص على ما يلي :

١ – إدخال ١٠٠ الف مهاجر .

٢ – رفع الحظر عن انتقال الأراضي لليهود .

٣ – بقاء الانتداب حتى يكون ممكناً قيام دولة أو دول فلسطينية .

وسر اليهود بذلك وقام العرب بمظاهرات كثيرة .

وبدأ الوضع ينذر بخطر شديد ، وأخذت الجماهير العربية تطالب الحكومات بأن تفعل شيئاً ، فتداعى الملوك والرؤساء إلى اجتماع عقد في أنشاص في ٢٨ و٢٩ أيار سنة ١٩٤٦ .

و كانت بعض الدول العربية قد حظيت في أعقاب الحرب على استقلالها بمساعدة بريطانيا ، مثل سورية ولبنان . فارتفعت سمعة بريطانيا لدى الرأي العام . وما كانت تريد الحكومات العربية أن تسيء للعلاقات الطيبة معها من جهة ، كما كانت تخشى مصير فلسطين والبلدان المحيطة بها ، من جهة ثانية .

صدر عن المجتمعين بيان يلحون فيه على ضرورة المحافظة على عروبة فلسطين ، ويؤكدون على صداقتهم لأنكلترا وأميركا ، ويطالبون بأن تحل الدولتان قضية فلسطين بروح العدل .

أخذت الجامعة العربية تحاول توحيد القيادات العربية في فلسطين من أجل مقاومة الحركة الصهيونية فتوصلت ، بعد محاولات استمرت سنة كاملة ، إلى إنشاء « هيئة عربية عليا » يرئسها الحاج أمين الحسيني وينوب عنه ، إذ كان غائباً آنئذ عن البلدان العربية ، جمال الحسيني . غير أن هذه الهيئة عانت من الصعوبات الداخلية ما جعل إنتاجها هزيلاً .

أخذت الهيئة تعمل ضمن ظروف سيئة ، وقررت إنشاء مكاتب لها في البلدان العربية وبعض العواصم الكبرى على أن تدفع لها الجامعة العربية مساعدات مادية . غير أنها حتى حزيران ١٩٤٨ لم تحصل إلا على ١٤٣ ألف جنيه دفعت منها سورية مئة وثلاثة آلاف ألف جنيه .

كان الشعور بالخطر يزداد يوماً بعد يوم ، لكنه ظل شعوراً بدائياً لم يؤد بالعرب إلى ملء فراغ خلفته القرون . إذ لم يستطع العرب ، حتى هذه الساعة ، أن ينظموا أنفسهم . ذلك أن القدرة على خلق « الكوادر » التي يقوم كل منها بعمله حسب خطة معينة هو غاية التنظيم ، وهذا يتطلب مستوى حضارياً لما يصل إليه العرب ، لأنهم ما زالوا شعباً جديداً على الحضارة الحديثة .

في تلك الفترة ، بعد أن أصبحت المنظمات الصهيونية شبه العسكرية قادرة على الحركة ، أخذت تعمل على مدى واسع تحت اسم « حركة المقاومة اليهودية » وكان أهم ما قامت به نسف فندق الملك داود في ١٩٤٧ وكانت الاستخبارات البريطانية تحتل جزءاً منه . قامت بالعملية الارغون وذهب ضحيتها حوالي ١٠٠ موظف من إنكليز وعرب ويهود . وكان لهذا العمل صدى كبير ، وهنا أورد رسالة القيادة البريطانية العامة في فلسطين :

« إن المجتمع اليهودي في فلسطين لا يعفى من مسؤولية ارتكاب سلسلة من الفظائع التي انتهت إلى نسف جزء كبير من المكاتب الحكومية في فندق الملك داود ، مما اسفر عن خسائر جسيمة في الأرواح .... فالعصابات الإرهابية التي تقوم ، بالفعل ، بهذه الأعمال الاجرامية ، لا بد من اكتشافها قريباً ، اكتشاف إلى أي حد يعتبر اليهود في هذه البلاد متواطئين مع هذه العصابات ويتحملون نصيبهم من الذنب . »

كان الانفجار رهيباً أحال مركز الاستخبارات إلى خليط من الجثث والتراب والأجساد البشرية .

وبعد الحادث مباشرة ، شجبت المنظمات والصحف الإسرائيلية ومحطة الإذاعة السرية الحادث . غير أن رسالة اكتشفت فيما بعد من الهاجاناه إلى الارغون تفضح اشتراكها وتخطيطها لعملية النسف . وقد جاء فيها ما يلي : « عليكم بتنفيذ عمليتين في أقرب وقت ممكن : العملية التشيكية ، وعملية بيت « خادمك — المخلص » . أعلمونا بتاريخ عزمكم على التنفيذ ، مع أننا نفضل أن يكون ذلك هذا اليوم .

لا تفصحوا مطلقاً ، وبأي حال من الأحوال ، عن أسماء المنفذين .
ب – سنعد بأنفسنا شيئاً ما . وسنعلمكم حالاً بالتفاصيل » .

وأصدرت القيادة البريطانية الأوامر إلى أفراد القوات البريطانية بألا يحتكّوا باليهود ، ولا يدخلوا منتدياتهم ومقاهيهم ، لأن حوادث خطف الجنود الإنكليز قد تكررت . وصدر في ٢٤ تموز ١٩٤٦ بيان عن سلطات الانتداب البريطانية يذكر أن الهاجاناه والبالماخ المشتق عنها ، والارغون وشترن جميعاً ، مشتركة في حوادث العنف ، وأن الوكالة اليهودية هي التي تقوم بتنسيق وتوقيت هذه الاعمال وتقرر لكل من المنظمات دورها .

وفي الثاني من نيسان ١٩٤٧ تقدم وفد المملكة المتحدة إلى الأمين العام للأمم المتحدة يطلب إليه أن يضع المشكلة الفلسطينية في برنامج الجلسة العادية ويقترح أيضاً عقد جلسة من أجل إرسال لجنة خاصة تضع دراسة تعتمدعليها الجمعية العامة في مناقشة القضية في جلستها القادمة.

تقدمت الدول العربية الأعضاء في الأمم المتحدة (مصر ، العراق ، سورية ، لبنان ، العربية السعودية) بطلب يدرج في أعمال الدورة الخاصة : « إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين وإعلان استقلالها » . ورفض هذا الطلب بنتيجة التصويت ووفق على طلب بريطانيا .

وفي جلسة ١٥ أيار للأمم المتحدة أعلن مندوب بريطانيا :
« حاولنا لسنوات أن نحل مشكلة فلسطين . وإذ فشلنا إلى الآن ، فإننا نضعها أمام الأمم المتحدة ، آملين أن تنجح حيث لم ننجح نحن . »

وهنا نتساءل : ألم يكن بوسع بريطانيا أن تجد الحلول لتلك القضية قبل أن تتعقد بهذا الشكل وقبل أن تأخذ طابعها الدموي ؟ وهل غفلت بريطانيا عما يحيط بالعرب واليهود من الخوف والإستعداد لمعركة غير ضرورية ؟

وصلت لجنة التحقيق إلى فلسطين في ١٥ حزيران ١٩٤٧ فقررت الهيئة العربية العليا مقاطعتها وأبلغت بذلك أمين عام الأمم المتحدة : لأن الجمعية العامة رفضت إدخال استقلال فلسطين ونهاية الانتداب

في برنامجها ، ولأن هذا البرنامج تضمن بحث مشكلة اليهود اللاجئين في العالم مع المسألة الفلسطينية ، الشيء الذي اعتبره العرب غير ذي علاقة معها ، مع العلم أن عدد السكان العرب كان آنئذ مليونا ومئتي ألف يقابله نصف هذا العدد من اليهود ، مما يشل قدرة فلسطين على استيعاب أعداداً أكبر .

لكن ذلك لم يمنع اللجنة من الإطلاع على آراء العرب ، فالحكومات العربية لم تقاطعها من جهة ، كما ان المنظمات الدينية الفلسطينية ، من جهة أخرى ، اتصلت بها وقدمت لها مذكرات تشرح القضية .

ورأت اللجنة العربية العليا أن خير وسيلة للأعلان عن رأيها ، هي في إقامة مهرجان في القدس يوم ٦ تموز ولجنة التحقيق فيها . وهذا ما جرى . ولم يكن ما طلبه العرب في المهرجان يختلف عن مطاليبهم السابقة ، أي منع انتقال الأراضي والهجرة والمطالبة باستقلال فلسطين وإقامة حكم يتساوى فيه السكان جميعاً .

أما رأي الوكالة اليهودية فكان كالتالي :

١- يجب العمل لإيجاد دولة ذات أكثرية يهودية وذلك بفتح باب الهجرة على مصراعيه .

٢- إن مهمة الإنتداب هي فقط تسهيل مهمة خلق وطن يهودي في فلسطين .

٣- يجب أن يصبح اليهود أكثرية . وهم بذلك إنما يعودون إلى بلادهم . وبوسع العرب أن يتمتعوا ، في الدولة المقترحة ، بحقوق المواطن .

وذهبت اللجنة إلى جنيف وعكفت على وضع تقريرها المؤلف من ١٢ بنداً حاز أحد عشر منها على القبول وسقط الثاني عشر وهو القائل : « في معالجة قضية فلسطين ، يجب بما لا يقبل الشك ، الإقرار بأن أي حل لهذه القضية لا يمكن اعتباره حلا للقضية اليهودية ، بوجه عام » .

أما البنود الاحد عشر فكانت تتضمن إنهاء الانتداب ، واستقلال

فلسطين ، بعد فترة انتقالية تكون فيها الأمم المتحدة مسؤولة عن الإدارة وحماية الأماكن المقدسة ، على أن تحفظ حقوق الأقليات وتقوم علاقات سلم بينها ، كما كانت تتضمن دعوة الأمم المتحدة الفئتين المتخاصمتين إلى إحلال السلام بينهما فلا تلجآن إلى العنف .

وقدمت اللجنة بعد ذلك اقتراحين :

١ـ مشروع لتقسيم فلسطين مع المحافظة على الوحدة الإقتصادية ، وهو ماعرف فيما بعد بمشروع الأكثرية ، وقد قسم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية وإلى منطقة دولية هي القدس تظل تحت إدارة الأمم المتحدة . كانت مساحة الدولة العربية ٤،٤٧٦ ميلا مربعاً أي ٤٢،٨٨ ٪ من مساحة فلسطين ، واليهودية ٥،٨٩٣ ميلاً مربعاً أي ٥٦،٤٧ ٪ من المساحة . أما القدس فهي من ٦٨ ميلاً مربعاً أي ١٥ ٪ من المساحة .

٢ـ مشروع دولة إتحادية وهو ما عرف بمشروع الأقلية ، وبموجبه تقسم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية تكونان اتحاداً عاصمته القدس . على أن يكون من صلاحية الحكومة الاتحادية من الدولتين اليهودية والعربية الدفاع الوطني ، والعلاقات الخارجية ، والهجرة ووسائل النقل ، والكهرباء الخ ... وسرت الصهيونية بنجاح هذا المشروع لأنه كان خطوة أولى نحو تحقيق دولتهم .

أما العرب فلم يقبلوا بالمشروع لأسباب عديدة : أعطى المشروع الجزء الخصب لليهود والمناطق الفقيرة للعرب، وكانت كل دولة من الدولتين مجزأة إلى ثلاث ، وكانت مدينة يافا التي يسكنها ٧٠ ألفاً من العرب تابعة للمنطقة اليهودية . أضف إلى ذلك مشكلة البدو الذين يعيشون في النقب . والحقيقة أن جو الرعب الذي عم فلسطين والهجرة المستمرة جعل العرب يتخوفون من كل حل يمكن الصهيونية من الاستعداد بحرية لجولة مقبلة لم تعد خافية عليهم . وساد جو من الحذر والخوف وبدأ الوضع يتطور سريعاً ، كما أخذت أعمال العنف تتكاثر من قبل المنظمات الصهيونية .

واجتمع مجلس الجامعة العربية بين ٥–١٧ تشرين الأول ١٩٤٧ في لبنان واتخذ القرارات التالية :

١– أن تحشد الدول العربية قطعات من جيوشها على حدود فلسطين .

٢– أن تقدم الدول العربية السلاح إلى عرب فلسطين الذين يقطنون في المناطق المتاخمة للحدود . وروعي أن تخصص لذلك ١٠ آلاف بندقية مع ذخائرها .

٣– تدريب الشباب في المناطق غير المتاخمة لليهود .

٤– إنشاء قيادة عربية تتولى هذا الأمر ورصد مبلغ من المال يوضع تحت تصرفها لا يقل عن مليون جنيه .

يرى من هذه القرارات مدى ضعف الإستعدادات العربية . كانت الدول العربية دولاً ناشئة لم يمض عليها بعد الزمن الذي يمكنها من أن تقوم حتى باعبائها الخاصة .

رأت الدول العربية أن الأمم المتحدة لم تكن قادرة على اتخاذ قرارات تحل تلك المعضلة . لقد أخذت القضية الفلسطينية دوراً في المناقشات لم تأخذه وقد لا تأخذه قضية أخرى ، ولكن المحافل الدولية لم تتبدل كثيراً عما كانت خلال الحربين . كانت مصالح الدول الكبرى تلعب دوراً أكبر مما لعبته العدالة .

كانت سياسة الولايات المتحدة ، وهي التي خرجت من الحرب أكبر دولة في العالم ، تتأثر بالدعاية الصهيونية المعتمدة على موارد اليهود في أميركا . وقد كانت الصهيونية من الذكاء إلى حد جعلت جزءاً كبيراً من الأمريكيين يعتقدون أن حركتهم شبيهة بحركة التحرر الأميركية من إنكلترا . ولعبت أصوات اليهود في الولايات المتحدة أكبر دور في سياستها ، فرأينا القسم الأكبر من المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة يضعون في برنامجهم الانتخا مادة خاصة لمعالجة المشكلة الفلسطينية في صالح الصهيونية . وكان من نتيجة ذلك أن سياسة الولايات المتحدة ومالها من أثر في العالم وفي الأمم المتحدة ، اتجهت نحو

مساعدة الصهيونية واستخدمت سلطتها على الدول كي ينجح مشروع التقسيم .

وأخذ كثيرون على العرب عدم قبولهم بالتقسيم . وهنا نتساءل : هل كان يبدل ذلك شيئاً في الموضوع ما دامت الهجرة مستمرة وما دام القادمون الجدد بحاجة إلى أرض ؟

قال ابن غوريون أمام لجنة التحقيق الإنكليزية الأميركية : « هدفنا ليس الحصول على الأغلبية . فالأغلبية لا تحل مشكلتنا . إنها مرحلة فقط ، لا نهاية . أنتم تحتاجون إليها لبناء الكومونولث . ونحن لا نزال نحتاج إليها لبناء وطن قومي . »

ولهذه المناسبة أيضاً ، صرح مناحيم بيغن قائلا : « الوطن اليهودي ، المنطقة التي تشمل ضفتي الأردن ، وحدة جغرافية وتاريخية . فتقسيمه عمل غير شرعي . والقبول بتقسيمه عمل غير شرعي أيضاً ، ولا يلتزم به الشعب اليهودي . إن من واجب هذا الجيل أن يعيد إلى السيادة اليهودية على هذه الأجزاء من أرض الوطن ، التي أنتزعت منها ووضعت تحت سيادة أجنبية . »

كان العرب إذن يبحثون عن إمكانية إقامة دولة يتساوى فيها السكان جميعاً بالحقوق ، يمثلها مجلس منتخب من الجميع ، تنبثق عنه حكومة تضع سياسة منسجمة مع مستقبل البلد ومصلحته . وكان الرد دائماً أن دولة واحدة تعني وجود دولة ذات أكثرية عربية . ولكن ألا ينسجم ذلك مع المبادىء التي قامت عليها دول العالم جميعاً ؟ وما دام العرب أكثرية فماذا يمنع أن تقوم دولة ذات أكثرية عربية ؟ هل تقبل دولة كالمانيا مثلاً إقامة دولتين إحداهما كاثوليكية والأخرى بروتستانتية ؟ لماذا لا تقبل الولايات المتحدة بإقامة دولة سوداء ضمن ضمن الاتحاد الأميركي ؟

قال مندوب فلسطين أمام الأمم المتحدة : « على الأمم المتحدة أن تساهم في إنشاء دولة ديموقراطية في فلسطين التي لا يمكن أن تعطي غير الخير والسلم » . وأكد على أن العرب واليهود عاشوا معاً دائماً

بسلام .

وأصدرت الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ قرار التقسيم الذي يعطي الدولة اليهودية ٥٦٪ من الأرض والدولة العربية ٤٢٪ ومنطقة القدس الدولية ٢٪ وقضى القرار بأن العرب الذين يقطنون الدولة الإسرائيلية يظلون فيها ويتمتعون بحقوق المواطن كاملة وبحماية المتحدة ، كما قضى بأن تعلن قيام الدولتان العربية واليهودية بعد شهرين من انسحاب بريطانيا من البلاد في ١٥ أيار ١٩٤٨ .

٥

أخذت مخاوف العرب تزداد جدية يوماً بعد يوم . ولم تكن الاستعدادات الصهيونية خافية عليهم ، فقد باتت التنظيمات العسكرية معروفة لديهم ، واضحة الغاية والقصد . كان خطر الزوال يتهددهم فعمدوا إلى التعاون مع الحكومات العربية لتدريب الشباب الفلسطيني ، لتنفيذ مقررات مؤتمر الجامعة الذي انعقد في لبنان . وأنشئت لهذه الغاية لجنة عسكرية من مندوبين عن العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن واتخذت دمشق مقراً لها ، كما أنشيء معسكر لتدريب المتطوعين الفلسطينيين . وأخذت اللجنة العربية العليا تعمل على تهيئة المنظمات الدفاعية في الشهور الأولى من سنة ١٩٤٨ وشراء الأسلحة لإدخالها فلسطين . ونشأت لجان قومية في البلاد تجمع المال لذلك . كان الوضع سيئاً للغاية . ويذكر السيد صبحي ياسين مؤلف « طريق العودة » أنه لم تكن في حيفا ، عند إعلان قرار التقسيم ، بندقية حربية واحدة .

اختلفت الاراء كثيراً حول عدد الذين حملوا السلاح من الفلسطينيين العرب في تلك الفترة . وهنا أورد إحصاء للأسلحة يدل على عدد حامليها :

قدمت اللجنة العسكرية لعرب فلسطين ١٦٠٠ بندقية فقط . وقدمت الهيئة العربية العليا ٥٣٩٦ بندقية ، و٤٩٩ رشاشاً ، و٣٦٤ بندقية تومي ، و٣٠٩ مسدسات ، و١٣٤ مدفعاً مضاداً للمصفحات ، و٦٦ مدفعاً مضاداً للدبابات ، و٢٣ مدفع هاون ، و١٠٦٩ من صناديق المتفجرات ، و٤٦٧٤٠ قتنبلة ، و٣٨٦٧ لغماً جاهزاً . كانت

هذه الأسلحة مختلفة الصنع ، أكثرها قديم وأكثر ذخيرتها غير صالح .

وكانت القوات مؤلفة من فئات ثلاث :

١ - القوات شبة المنظمة التي تتحرك بأوامر القيادة .

٢ - بعض سكان القرى العربية التي ساعدتهم الهيئة العربية العليا في شراء السلاح ، وكانوا يرابطون في قراهم للدفاع عنها .

٢ - بعض السكان ممن سمحت ظروفهم المادية لشراء السلاح الخفيف للمساهمة في الدفاع .

لم يكن شراء السلاح هيناً بالنسبة للعرب . فلقد ضرب عليهم حصار شديد فرضته بريطانيا منذ ١٩١٧ . وكان عقاب من حمل السلاح شديداً . فقد صودرت الأسلحة منهم بعد ثورة ١٩٣٦ وأعدم كثيرون ممن وجد معهم سلاح .

وجهدت الهيئة العربية العليا أن تنظم أولئك المناضلين فلم تستطع . قسمتهم إلى سبع قيادات يرئسها جميعاً عبد القادر الحسيني ، أحد قادة ثورة ١٩٣٦ .

وكانت هنالك فئات أخرى من المتطوعين الذين دخلوا فلسطين من البلدان العربية المجاورة سميت بجيش الانقاذ الذي كان قائده العام الجنرال إسماعيل صفوت وقائده في فلسطين فوزي القاوقجي .

وفي مطلع سنة ١٩٤٨ ، أبلغ وفد بريطانيا مجلس الأمن أن حكومته ستستمر في تحمل مسؤولياتها في إدارة فلسطين وحفظ الأمن فيها حتى نهاية الانتداب ثم أعلنت أيضاً في نفس الوقت تحذيراً قالت فيه إنها ستواجه أي تدخل خارجي بالقوة .

منذ أن أعلن قرار التقسيم تحولت أرض فلسطين إلى حلبة صراع تسود فيها شريعة الغاب . العرب فيها ضحية تطاردها قوات الصهيونية المنظمة . وكان العرب وراء حدود فلسطين يرون أبناء شعبهم وقد سلموا للقتل والتشريد وما من سبيل إلى مساعدتهم بعد أن صدر ذلك التحذير .

كان من المفروض أن تكف بريطانيا في ١٥ أيار عن إدارة فلسطين

كي تحل محلها لجنة الأمم المتحدة فتدير البلاد ممهدة لاستقلالها . وقد جاءت تلك اللجنة إلى فلسطين غير أنها كانت دون سلطة . كانت القوات الصهيونية تهاجم القرى العربية معلنة دائماً أنها تدافع عن نفسها وأن العرب يهاجمون المستعمرات اليهودية . مثلا : أرسلت الوكالة اليهودية في ٢ شباط ١٩٤٨ مذكرة الى مجلس الأمن تتحدث فيها عن الاعتداءات العربية ولكنها لا تشير إلى أي عدوان ، ما عدا خطابات بعض الزعماء العرب .

وعندما انتهى انسحاب القوات البريطانية في ١٤ أيار ، تسلم الوسيط الدولي ، الكونت برنادوت ، صلاحيات لجنة الأمم المتحدة . ولكن الفترة المنقضية بين ٢٩ تشرين الثاني وذلك التاريخ كانت ملأى بأحداث جعلت مهمة الأمم المتحدة مستحيلة .

بعد قرار التقسيم مباشرة انسحبت القوات البريطانية من تل أبيب وسلمت إدارتها للوكالة اليهودية فأخذت أفواج المهاجرين المدربين أبان الحرب تؤم فلسطين بكثرة وكميات كبيرة من الأسلحة تتسرب اليها. يضاف إلى ذلك ما استولت عليه الصهيونية بمختلف الطرق من المعسكرات البريطانية .

في أواخر مارس ١٩٤٨ وصلت شحنة كبيرة من الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا « قلبت موازين المعركة » كما يقول مناحيم بيغن . ثم تحولت المعارك المحلية الصغيرة إلى حرب حقيقية بين قوات المنظمات الصهيونية وبين البلدان والقرى العربية الضعيفة السلاح والتنظيم .

بعد إعلان قرار التقسيم أخذت أكثر المدن الفلسطينية تستيقظ وتنام على طلقات نارية متفرقة أخذت تزداد يوماً بعد يوم ، مما كان يزيد في قلق العرب جميعاً ، خاصة وإن كثيراً من المدن العربية المكتظة بالسكان ، مثل حيفا ، كانت واقعة في المنطقة اليهودية . وطالبت لجنة الأمم المتحدة بأن توضع بعض القوات الدولية تحت أمرتها فلم تجب إلى ذلك . ثم أخذ منطق التأديب يسود أرض فلسطين . ومن أهم

حوادث التأديب حادثة خيصاص في منطقة صفد الواقعة في شمال فلسطين قريباً من الحدود السورية . هاجمت الهاجاناه تلك القرية الموجودة في المنطقة اليهودية ليلاً وقتلت عشرة من السكان وجرحت خمسة وانسحبت دون خسارة لأن سكان القرية كانوا عزلا عن السلاح . ووزعت القوة المهاجمة بياناً قالت فيه بأن سبب الهجوم هو حوادث صفد ومقتل يهودي قرب القرية .

في ليلة ١٥ شباط هاجمت قوات الهاجاناه قرية سعسا وهدمت فيها عشرين بيتاً بالديناميت ، كما هاجمت قرى أخرى فقتلت وخربت وانسحبت أيضاً دون خسائر .

وهذا إحصاء قدمته السلطة المنتدبة عن الخسائر بين ٣٠ نوفمبر ١٩٤٧ و١ شباط ١٩٤٨ :

القتلى : ٤٢٧ عربياً ، ٣٨١ يهودياً ، ٤٦ بريطانياً .

الجرحى: ١٠٣٥ عربياً ، ٧٢٥ يهودياً ، ١٣٥ بريطانياً .

بعد حادثة خيصاص بدأ بعض المتطوعين العرب يدخلون فلسطين . دخل منهم ٣٠٠ يوم ٩ كانون الثاني وتمركزوا في طوباس في المنطقة العربية . ثم دخل ٧٠٠ وتمركزوا في السامرية ، كما دخلت مجموعة ثالثة من ٩٥٠ آخرين . قال عنهم تقرير لجنة الأمم المتحدة : « لقد استقبل سكان السامرية تلك القوات التي برهنت عن درجة ممتازة من الدربة والتهذيب ، استقبالاً حاراً . وبدا أن هذه القوات كانت تتجنب أي احتكاك مع قوات الأمن البريطانية » .

لم تكن مهمة هذه القطعات هجومية ، والدليل على ذلك عددها لأن حبل الأمن كان يزداد اختلالاً .

وعندما خرجت قوات الانتداب من فلسطين لم تبق لدى لجنة الأمم المتحدة أية سلطة خاصة ، بعد أن حل البوليس الفلسطيني وأمرت قوات شرق الأردن بالانسحاب من فلسطين . وما كانت طلباتها المتكررة تستجاب . وحين رفعت تقريرها الشهري في ١٢ اذار الذي قالت فيه: « إذا لم يستتب الأمن في فلسطين ، فإن من غير الممكن تنفيذ قرار

مجلس الأمن » . كان طبيعياً عند انتهاء الانتداب أن فلسطين ستعاني من فوضى الإدارة ، ومن صراع حاد ونزيف دموي شامل . وتقول اللجنة في تقرير آخر : « كانت سياسة سلطات الانتداب ألا تتخذ أي إجراء يمكن تفسيره على أنه مساهمة منها في تنفيذ قرار الأمم المتحدة . »

أما القدس فقد أسلمت للحقد والضغينة ، المدينة التي نشرت السلام عبر العالم والقرون . كان سكانها ، يهوداً وعرباً ، طامحين للسيطرة على المدينة . ثم انقطعت عنها المؤن فهددت بالجوع . أما السلطة البريطانية فكانت تقترح على لجنة الهدنة اقتراحات شبيهة بالسخرية .

كانت الاحتجاجات الصهيونية تتوالى ضد العرب الذين يؤمون فلسطين و ضد السلطات الإنكليزية التي لا تسهل الهجرة اليهودية . وكان السيد شرتوك يتحدث عن العمليات الصهيونية الدفاعية . وهنا أورد مقتطفات من رد السيد جونس ، مندوب إنكلترا عليه : « ليست بي حاجة إلى تذكير أعضاء مجلس الأمن بأن اعتداءات المنظمات الإرهابية اليهودية ، التي تدعى اليوم بكثير من التهذيب « فرق المقاومة » ، تتابعت خلال عدة سنوات . لم تقم الجمعية اليهودية إلا بمحاولات غير مجدية لمنعها وإلغاء المنظمات المسؤولة عن تلك الاعتداءات . لا أريد أن ارعب مجلس الأمن بأن أعرض عليه قائمة بالإجرام الوحشي الذي ارتكبه ، خلال السنوات الأخيرة ، الإرهابيون اليهود ضد الرجال والنساء المجردين من وسائل المقاومة ، أو ضد البريطانيين مدنيين وعسكريين . إن حوادث الإسبوع الماضي قد ألقت ضوءاً ساطعاً على طبيعة تلك المنظمات غير المبالية وغير المسؤولة .

وقد اتخذ مجلس الأمن الأعلى قراراً بمنع دخول المسلحين ، أفراداً كانوا أم جماعات . ووافق العرب على ذلك شريطة وقف الهجرة . ولم يبلغ عدد المسلحين العرب الأقصى في شهر نيسان ١٩٤٨ سوى أربعة آلاف مقاتل .

وحاولت القوات الصهيونية احتلال القدس ، من ٣١ آذار حتى

٢٠ نيسان ، فقتل قائد قوات « الجهاد المقدس » عبد القادر الحسيني . كانت غايتها احتلال المدينة ، وخاصة الأماكن المقدسة . غير أن المقاومة العربية الشديدة لم تمكنهم من النجاح . كان العرب يتشبثون بالأرض رغم الهجمات المتلاحقة المتعددة على المدن والقرى العربية . وقد عمدت القيادات الصهيونية إلى عملية تخيف السكان العرب وتشل قدرتهم على المقاومة . هذه العملية هي دير ياسين ، القرية الواقعة في المنطقة الدولية حسب التقسيم .

في ليلة ٩–١٠ نيسان هاجمتها الارغون واحتلتها فقتلت سكانها جميعاً ومثلت بهم وصورت جثثهم ووزعت الصور على بقية القرى العربية ، وقد كتب تحتها « هذا ما ينتظركم إذا لم ترحلوا » . كذب بن غوريون الحادثة في كتابه وقال أنها من اختراع الإذاعات العربية . وهنا أترك السيد جاك رينر السويسري ، ممثل الصليب الأحمر الدولي ، آنئذ في فلسطين يتحدث :

« لم يكن قائد كتيبة الارغون في وضع يسمح له بلقائي . وأقبل أخيراً ، فإذا هو شاب ، حسن الطلعة ، مشرق الوجه ، ولكن لعينيه بريقاً خاصاً ، بارداً ، قاسياً . شرحت له مهمتي التي لا صلة لها بمهمة القاضي أو الحكم . قلت إني أريد إنقاذ الجرحى وحمل الموتى ، وإن اليهود وقعوا وثيقة إحترام اتفاقيات جنيف ، ولذلك فإن لمهمتي صفة رسمية . لكن هذا التوكيد أثار غضب الضابط ، الذي أفهمني أن علي أن ألاحظ مرة أولى وإلى الأبد ، أن من يحكم هو الارغون ولا أحد غيرها ، حتى الوكالة اليهودية نفسها التي لا تصل الارغون بها أية صلة . وهنا تدخل أحد الناجين من معسكرات المانيا ، فقال الضابط : تستطيع أن تتصرف كما يحلو لك ، لكن على مسؤوليتك . ثم روى لي أحداث تلك القرية التي كان يسكنها أربعمائة من العرب فقط ، مجردين من كل سلاح دائماً ، ويحيون حياة هادئة مع اليهود الذين يحيطون بقريتهم من كل جانب . قال إن الأرغون أقبلت قبل أربع وعشرين ساعة ، وأصدرت أمراً بمكبر الصوت إلى كل سكان القرية أن يخلوا بيوتهم

ويستسلموا في مهلة أقصاها ربع ساعة . وتقدم بعض أولئك البؤساء ، فسجنوا ثم أطلق سراحهم وطردوا باتجاه الخطوط العربية . أما الباقون الذين لم ينفذوا الأمر ، فقد نالوا المصير الذي يستحقون . لكن يجب ألا نغالي ، فليس ثمة إلا بعض الموتى ، سيجري دفنهم بعد « تمشيط » القرية نهائياً . وقال : إذا وجدت بعض الجثث فإن باستطاعتك حملها ، ولكن ليس ثمة أي جريح ، أؤكد لك . » هذه الرواية جعلت الصقيع يتسرب إلى ظهري . ويضيف السيد رينر : « بلغت القرية ، وقد توقف إطلاق النار . كانت الكتبة اليهودية في سلاح الميدان . وكان الشبان والمراهقون كذلك ، والرجال والنساء مدججين بالسلاح : من المسدس حتى الرشاش والقنابل والسكاكين الضخمة ، يمسكونها بأكفهم ، وهي تقطر دما . وقد أرتني إحدى الفتيات وكانت جميلة ، وفي عينيها إمارات الإجرام ، سكينها تقطر دماً ، وهي تحملها كأنها تذكار النصر . ذلك كان موكب « التمشيط » الذي قام بدوره بكل أمانة وإخلاص ! »

ويضيف السيد رينر : « حاولت أن أدخل أحد البيوت فأحاط بي عشرة مسلحين ، ومنعني الضابط من ترك مكاني وقال : سنأتي بالقتلى إذا كان ثمة قتلى ! فثارت ثائرتي وقلت لأولئك المجرمين كل ما جال بخاطري حول اسلوبهم في الإجرام ، وأنذرتهم بكل ما خطر لي من انذارات ، ثم دفعت من كان في طريقي ودخلت البيت .

« كانت الغرفة الأولى مظلمة وليس فيها أحد . وفي الثانية وجدت بين أنقاض الأثاث المحطم ، والأغطية الممزقة ، بعض الجثث الباردة . لقد نظفوا المكان بالرشاش ، ثم القنابل اليدوية ، وانتهوا بالسكاكين . كذلك كان الأمر في الغرفة الثالثة . لكني قبل خروجي سمعت أنيناً . بحثت في كل مكان ، وقلبت كل جثة ، حتى وقعت على قدم ما تزال دافئة . كانت قدم فتاة في العاشرة من عمرها ، مزقتها القنابل ، لكنها ما تزال على قيد الحياة . أردت حملها فاعترض الضابط طريقي وسد بجسده فتحة الباب . دفعته ومررت بحملي الثمين ، بفضل حامي

الصليب الأحمر ، إلى سيارة الإسعاف التي انطلقت به .

« ولما لم تجرؤ الكتيبة اليهودية عليّ ، فقد كان باستطاعتي أن أتابع مهمتي . فأعطيت الأمر بتحميل الجثث من ذلك البيت . ثم دخلت البيت الثاني ، فالثالث ، وهكذا ، فإذا المشهد المريع يتكرر دائماً . لم أجد إلا امرأتين على قيد الحياة ، إحداهما جدة اختبأت خلف الاكداس دونما حركة ، أربعاً وعشرين ساعة على الأقل .

كان في القرية أربعماية إنسان ، هرب منهم خمسون ، وبقي ثلاثة أحياء ، أما الباقون فقد ذبحوا ذبحاً وبطواعية . فقد تحققت من أن تلك الكتيبة ماهرة الأيدي ، ولا تتصرف إلا حسب الأوامر . »

قبل الحادثة بأيام أربعة وقّعت السلطات اليهودية « اتفاقات جنيف ». وبعد الحادثة بيومين أذاع المجلس العام الصهيوني في تل أبيب بياناً يطلب فيه التعاون مع عرب فلسطين والبلدان العربية المجاورة . وقد تنصلت الهاجاناه من مسؤولية الحادثة ، تماماً كما تنصلت من حادثة فندق الملك داود .

يقول مناحيم بيغن في حديث له في نيويورك ، عندما زارها في صيف ١٩٤٨ : « في الشهر الذي سبق نهاية الإنتداب ، قررت الوكالة اليهودية أن تقوم بمهمة صعبة ، وهي أن تخرج العرب من كل المدن قبل جلاء الجيوش البريطانية . وقد توصلت الوكالة إلى اتفاق معنا على تنفيذ تلك الخطط فترفض كل ما نفعله ، وتزعم أننا كنا عناصر مقاومة . وهكذا فعلت الوكالة عندما كنا نحارب البريطانيين . عندئذ ضربنا بقسوة وألقينا الرعب في قلوب العرب ، وبذلك ضمنا طرد العرب من المناطق المخصصة للدولة اليهودية » .

أمام هذه الحادثة وشبيهات بها على نطاق أصغر ، قررت الجامعة العربية في ٢٣ نيسان دخول الجيوش العربية ، ولم تحدد التاريخ .

وفي نهاية نيسان تأكد للعرب واليهود أن البريطانيين سينسحبون . وأخذت السلطات البريطانية تحيط الوكالة اليهودية علماً بانسحابها

من المناطق اليهودية حسب مشروع التقسيم ، والعرب في المناطق العربية .

واستولت الهاجاناه على حيفا في ٢٢ نيسان وهي مدينة واقعة على هضبة ساحلية سكانها ١٥٠ ألفاً ، غالبيتهم من العرب . ويشرف الحي اليهودي فيها على الحي العربي من مرتفع يسمى جبل الكرمل . وفي ٢٠ نيسان هاجمت الهاجاناه الحي العربي ، فلم تتدخل القوات البريطانية المعسكرة آنئذ في المرفأ ، إلا أن قائدها توسط بين الهاجاناه والعرب حين قدم هؤلاء شروط التسليم . وفي ٢٢ نيسان وافق سكان المدينة العرب على تركها جميعاً .

أما يافا فكانت مدينة عربية بكامل سكانها وضمن المنطقة العربية حسب مشروع التقسيم . هاجمتها الارغون في ٢٥ نيسان لأنها كانت ترى أنها تهدد « تل أبيب » وقذفتها بالمدفعية . لكن الحي الإنكليزي الذي تعسكر فيه القوات الإنكليزية ظل يقاوم . وتلقى الجنرال ماكيلان الأمر التالي من لندن : « إستعيدوا يافا وأعطوها للعرب » . غير أن الحي البريطاني استسلم في ١٢ أيار للأرغون . وفي هذا التاريخ أيضاً سقطت مدينة بيسان العربية . وفي ٢٨ نيسان كانت قد هوجمت صفد عشرة أيام ، فسقطت وطرد سكانها العرب منها .

وبين ١٤ و١٧ أيار سقطت عكا وأصبح عدد اللاجئين العرب ٣٠٠ ألفاً .

وفي ليل ١٤–١٥ أيار أعلنت دولة إسرائيل. وفي ذلك اليوم أعلنت الولايات المتحدة للأمم المتحدة اعترافها بإسرائيل كأمر واقع . وتوالت بعد ذلك إعترافات الدول الأخرى ، ناسية الفترة الانتقالية المتفق عليها بين الانتداب البريطاني وإعلان الإستقلال التي تكون فيها فلسطين تحت إشراف الأمم المتحدة .

وفي ذلك اليوم نفسه دخلت الجيوش العربية حسب قرار التقسيم . ويقول رئيس الجمهورية السورية في خطاب وجهه إلى الشعب في تلك الليلة : « لقد دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين لتحمي إخواننا العرب ، وتدافع عن حياتهم ، وتعيد النظام والأمن إلى الأرض المقدسة. »

ورغم ما تحدثت عنه إسرائيل من هجوم عربي من خمسة دول عربية عليها ، فإن تلك الجيوش لم تطأ أبداً الجزء الذي خصصه قرار التقسيم لإسرائيل . فتلك الجيوش لم تكن حرة التصرف . كانت ضعيفة القوة والعدد . ولنعط على ذلك مثلاً الجيش السوري الذي كان عدده سنة ١٩٤٨ لا يتجاوز ٨٤٦٠ جندياً ، بما فيهم حرس الحدود وطلاب الكلية العسكرية . والسبب في ذلك أن سورية لم تتحرر إلا سنة ١٩٤٦ ولم يتسع لها المجال لبناء جيش . ولم تكن الجيوش العربية الأخرى بأحسن حال ، لا في العدد ولا في التسليح . ولا ننسَ أن الدول المصدرة للسلاح كانت ترفض بيعه من العرب.

ولو قامت الأمم المتحدة بالتزامتها آنئذ لما حصلت تلك الحرب أصلاً ، بل ولما حصل ما حصل في ما بعد .

في صباح ١٥ أيار هاجمت قوات الدولة الجديدة مدينة القدس وأخذت استغاثات المقاومين العرب تنهال على الملك عبدالله للتدخل . واحتلت تلك القوات الأحياء العربية ولم يبق إلا المدينة القديمة أي الأماكن المقدسة . ولم تفعل الأمم المتحدة شيئاً .

لكن قوات الأردن استطاعت أن تستعيد الجزء العربي من المدينة في معركة ضارية استمرت حتى ٢٨ أيار .

دخل الجيش السوري باتجاهين ، من بنت جبيل ومن سمخ ، لكنه لم يتجاوز المنطقة العربية إلا في « جسر بنات يعقوب » الذي يسيطر على الجبهة السورية . أما العراقيون فقد ساعدوا الجيش العربي على الاحتفاظ بالمواقع العربية مثل جنين ورام الله التي هاجمها اليهود . أما الجيش المصري فقد تدرج في المنطقة العربية ووصل إلى بيت لحم في ٢٢ أيار متحاشياً المناطق اليهودية .

والحق أن الشعب العربي في جميع أقطاره كان يدفع الحكومات دفعاً لدخول أرض فلسطين . فقد ذعر العرب جميعاً لمصير سكان فلسطين بعد رحيلهم عن أرضهم . كان اللاجئون يفدون إلى سورية ولبنان والأردن ويرددون قصصاً مخيفة عن أعمال العنف التي ارتكبت

ضدهم ، وتنشر الصحف الأخبار ، وتكتب المقالات الطويلة عن ذلك ، وتقوم المظاهرات الشعبية الصاخبة مطالبة الحكومات بالتدخل العاجل السريع ، وتتهم الحكومات العربية بالتخاذل تارة وبالخيانة تارة أخرى .

فكان لا بد للزعماء من أن يرضوا الجماهير بالخطب والتصريحات الحماسية . وارتدى الملك فاروق البزة العسكرية وتمنطق بالمسدس وأخذت المجلات تنشر صور الأميرات والامراء بالزي العسكري ، لكنه رغم ذلك لم يتأخر ليلة عن موعد ذهابه إلى نادي محمد علي ليقامر . أما واقع الحال فكان بخلاف ذلك إذ كانوا جميعاً مدركين أن الجيوش لم تكن قادرة على أن تصنع شيئاً . كانت كلها حديثة الإنشاء ، قليلة العدد والعدة ، ما عدا الجيش الأردني ، وإلى حد ما الجيش العراقي . وكان الزعماء يعرفون ، فوق ذلك ، أن الهيئات الدولية ، وخاصة إنكلترا ، لا تسمح لهم بتجاوز المنطقة العربية حسب قرار التقسيم . والوحيد الذي جرؤ على إعلان الحقيقة هو الملك عبدالله . وقد كلفته صراحته هذه سمعته ، وأخيراً حياته .

في ٢٢ أيار طلب مجلس الأمن وقف إطلاق النار ، فجاءته أجوبة البلدان العربية تقول جميعاً إنها دخلت فلسطين لحماية أملاك العرب وأرواحهم ، وإن العمليات العسكرية لم تكن موجهة ضد اليهود ، وإنما ضد العصابات الصهيونية ، وإنها لا تعترف بإسرائيل وإنما تطالب بدولة فلسطينية واحدة يتساوى فيها العرب واليهود بالحقوق ، ويطالبون بعودة اللاجئين الفلسطينيين الذين نزحوا عن ديارهم .

أما الوكالة اليهودية فتعترف أنها تجاوزت الحدود المخصصة لها بالتقسيم ، وتضيف أنه بعد نزوح اللاجئين أصبحت هذه الارض ذات أكثرية يهودية ، وتعلن أن الهجرة ستستمر من كل الأعمار حتى من كان من المهاجرين قادراً على حمل السلاح .

وفي ٢٨ أيار ، وصل الكونت برنادوت واستطاع إقرار هدنة بين الطرفين تبدأ في ١١ حزيران . ثم أخذ يبحث عن حل للقضية الفلسطينية . وقدم اقتراحاً بإعادة النظر في التقسيم ، يعطي الجليل الغربي

لليهود ، والنقب للعرب ، على أن تخضع القدس الواقعة في المنطقة العربية لنظام خاص . ورفضت إسرائيل اقتراحاته ، فحاول تمديد الهدنة مدة أطول من الأسابيع الأربعة المتفق عليها فما استطاع .

وكانت الهدنة قد قضت ألا يزيد المتنازعون خلالها قواهم العسكرية ، غير أن إسرائيل استفادت من تلك الفترة فجلبت المهاجرين غير الشرعيين الموجودين في قبرص فدربتهم وسلحتهم ، وأدخلت كميات كبيرة من السلاح اشترتها من تشيكوسلوفاكيا ، وبينها عدد من الطائرات . فضلاً عن أن مساعدات مالية جاءتها من يهود الولايات المتحدة ، بصورة خاصة . كما أنها جلبت بعض القلاع الطائرة من الولايات المتحدة وقاذفات القنابل من إنكلترا . وكان أن استؤنف القتال في ٩ تموز بأن هاجمت القوات الإسرائيلية القدس . وفي ١١ و١٢ منه ، هاجمت اللد والرملة اللتين كانتا دون دفاع ، واحتلتهما وطردت سكانهما العرب .

ورفع الكونت برنادوت تقريره لمجلس الأمن في ١٢ تموز . وقد قال فيه : إنه لمس رغبة لدى الطرفين في إقامة علاقات سلمية وإنهما اعترفا بأهمية الوحدة الاقتصادية . لذلك اقترح إقامة إتحاد من العرب واليهود على أن يتكون القسم العربي من شرق الأردن والجزء العربي من فلسطين ، دون أن يمس ذلك من سيادة الأردن ... واقترح أن تكون القدس في المنطقة العربية على أن يتمتع اليهود فيها باستقلال إداري .

كانت الحرب على أشدها ، فاتخذ مجلس الأمن في ١٥ تموز قراراً بوقفها وأعلن أن رفض القرار يعني « الإخلال بالأمن حسب المادة ٣٩ من ميثاق الأمم المتحدة ، وبالتالي تحمل المسؤولية والعقوبات. » ونفذت الهدنة يوم ١٨ تموز .

وسيطر اليهود في فترة الحرب على ١٣٠٠ كلم من الجزء العربي (حسب التقسيم) وسيطر العرب على ٣٣٠ كلم من الجزء اليهودي .

واحتل اليهود ١٤ مدينة عربية و٢٠١ قرية في الجزء اليهودي

و١١٢ قرية في الجزء العربي .

استمر الكونت برنادوت ببذل وساطته . وانتهى من وضع تقرير آخر يوم ١٦ أيلول ، على أن يرفع إلى جمعية الأمم المتحدة في جلستها العامة في ٢١ منه .

وفي ١٧ أيلول اغتيل الكونت برنادوت في مدينة القدس في المنطقة اليهودية . واعترفت إسرائيل بأن القتلة يهود ، ولكنها زعمت أنها لم تستطع معرفتهم . ويقول في ذلك رالف بانش : « من الواضح ، إذن ، أن السلطة المؤقتة الإسرائيلية مسؤولة تماماً عن القتلة الذين خرقوا الهدنة خرقاً فاضحاً . »

وسبق ذلك أن منظمة شترن أذاعت بياناً قالت فيه : « إن واجب الساعة هو طرد برنادوت ومراقبيه » .

يقول برنادوت في تقريره بضرورة قيام دولة يهودية شريطة أن يطمئن العرب لعدم توسعها في المستقبل ، ويرى ضرورة عودة اللاجئين العرب وحفظ حقوقهم . واحتوى تقريره مشروع التقسيم النهائي الذي يستند إلى وحدة الأرض الجغرافية . وقد أعطى فيه شمالي فلسطين كاملاً لليهود مع شاطىء يمتد حتى خط مجدل – فلوجه ، ويعطي الباقي للعرب ويضع القدس تحت إشراف الأمم المتحدة شريطة السماح للعرب واليهود بالدخول إليها . وطلب بمشروعه إعادة اللد والرملة للمنطقة العربية ، وعودة اللاجئين وضمان الحرية الدينية للعرب المقيمين في المنطقة اليهودية والعكس بالعكس .

كان مقضياً على مشروع برنادوت بالفشل لأنه بحث قضايا اللاجئين وتحديد الهجرة .

وبقيت الهدنة معرضة دائماً للخرق : قدم المصريون شكاوى عديدة ، منها أن الطائرات الإسرائيلية قذفت مطار العريش مرتين وأن خطوطهم هوجمت في غزة ومجدل وغات وقراطيا . وكانت إسرائيل تستعجل الأمور مخافة أن تقرر الأمم المتحدة مشروع برنادوت فيظل النقب في المنطقة العربية . وأرادت أن تضع الأمم المتحدة أمام

الأمر الواقع ، فقامت بأكبر عملية خرق لشروط الهدنة ، صبيحة ١٥ تشرين الاول ، وهي التالية :

عندما دخل الجيش المصري أرض فلسطين ترك المستعمرات اليهودية فلم يهاجمها . فبقيت وراء خطوطه . وقرر الوسيط الدولي أن يسمح بوقت معين لتموينها عبر خطوط القتال ، كما قرر منع التموين بالطيران إلا إذا كان بمراقبة الأمم المتحدة . ورفضت إسرائيل مراقبة الأمم المتحدة واستمرت على التموين بواسطة الطيران . وكان المصريون يطلقون النار على الطائرات .

حضرت إسرائيل العملية بدقة وسميت عملية « الجروح العشرة ». ذلك انها حشدت قواها أمام القوات المصرية وأرسلت قافلة تموين ، فأطلق المصريون عليها النار . عندئذ هاجمت القوات الإسرائيلية متذرعة بخرق الهدنة . وكانت انتخابات الرئاسة قريبة في الولايات المتحدة .

يقول الدكتور بانش في تقريره « كانت العملية الحربية التي حدثت في الأيام الأخيرة من التنظيم والعنف بحيث لا يمكن حدوثها دون إعداد تام مسبق ، ولا اعتبارها مجرد رد على تعرض الخصم لقافلة مؤن . »

قاومت القوات المصرية خمسة أيام متوالية استطاعت بعدها القوات الإسرائيلية خرق خطوطها والاستيلاء على بئر سبع . أما المستعمرات الإسرائيلية فقد هاجمت المصريين من الخلف . وأمر مجلس الأمن بوقف القتال يوم ٢٢ تشرين الاول . واستغل الإسرائيليون هذه المهلة لاحتلال مناطق أخرى . وطالب الدكتور بانش بعودة القوات الإسرائيلية لخطوط ١٤ تشرين الاول . وعين مجلس الأمن لجنة لبحث الموضوع . ولم تعد القوات الإسرائيلية بل استمر هجومها على المصريين في منطقة الفلوجة التي ظلت محاصرة حتى ٢٤ شباط . وقد تميز بين تلك القوات ضابط شاب برتبة رائد ، كان رئيس أركان القطعة المقاومة ، اسمه جمال عبد الناصر .

وهاجمت قوات جيش التحرير بقيادة فوزي القاوقجي القوات

الإسرائيلية قبل وقف إطلاق النار في ليلة ٢١-٢٢ كي تخفف الضغط عن القوات المصرية . واستغلت ذلك القوات الإسرائيلية فهاجمت تلك القوات بعد وقف إطلاق النار ودخلت الأرض اللبنانية إلى مسافة ١٠ كيلومترات . وقال الدكتور بانش في تقريره عن ذلك : « نهبت القوات الإسرائيلية القرى على نطاق واسع . »

انسحبت القوات الإسرائيلية من الأرض اللبنانية بضغط من فرنسا ، وبقيت في المناطق الأخرى وأصبح الأمر الواقع : الحدود الجديدة لإسرائيل . أي أنها احتلت الجليل الأعلى وبئر سبع ووصلت حتى البحر الأحمر .

وفي ٢٣ ديسمبر هاجمت القوات الإسرائيلية مرة أخرى القوات المصرية ودخلت الحدود المصرية وقذفت الطائرات الإسرائيلية مطار العريش ورفح . وتدخلت بريطانيا منذرة إسرائيل بتنفيذ المعاهدة الإنكليزية المصرية . وطلبت مصر الهدنة يوم ٦ كانون الأول ، فوقعت في رودس يوم ٢٤ شباط ١٩٤٩ بين المتنازعين بإشراف الأمم المتحدة .

ووقعت هدنة أخرى بين الأردن وإسرائيل في ٣ نيسان ١٩٤٩ ، خططت بموجبها الحدود بين المنطقة العربية وإسرائيل ، وهي حدود يقدر طولها بـ ٦٠٠ كيلومتراً ، ولا شبيه لها إلا الحدود بين برلين الغربية والشرقية : تجد أحياناً بيتاً مقسوماً إلى قسمين ، وشارعاً كذلك نصفه إسرائيلي ونصفه عربي ، كما في قرية بيت جالا مثلا .

وفي نهاية اكتوبر تحدثت الإذاعة الإسرائيلية عن ضرورة احتلال ميناء العقبة ، فطلبت الأردن مساعدة بريطانيا للحيلولة دون ذلك . ونزلت القوات البريطانية في ذلك المرفأ .

بينما كانت الأمم المتحدة تجمع ممثلين من الأردن وإسرائيل لتوقيع إتفاقية الهدنة ، تقدمت قوات إسرائيلية باتجاه مرفأ العقبة في ٧ آذار . وفي العاشر منه أبلغت إسرائيل الدكتور بانش أنها وصلت إلى خليج العقبة . وفي ١١ آذار وقعت الهدنة بعد أن احتلت جزءاً منه حيث أقامت مرفأ إيلات .

وفي ٢٣ مارس وقعت الهدنة مع لبنان . وفي ٢٠ تموز مع سورية . وهذه الاتفاقيات ما زالت قائمة نظرياً ، حتى الآن .

كانت هذه الحرب تتميز بطابع يختلف عما عرفناه من الحروب . لم تكن العمليات العسكرية واسعة كما شاهدنا في الحرب العالمية الأولى والثانية ، وأظن أن كثيراً من قادة الدول لم يعطوها الأهمية التي تستحق لأنهم قارنوها بتلك الحروب ، فرأوها أصغر شأناً ، واستنتجوا من ذلك أنها أقل أهمية وخطراً . والذي دفع إلى هذه المقارنة أنها جاءت بعد الحرب العالمية الثانية بقليل . ولو قارنا بين التدمير الذي نتج عن تلك وهذه لوجدناها كريكتوراً لها ، غير أن الدمار مختلف اختلافاً بيّناً . ذلك أن هذه الحرب تميزت بظاهرة أظنها جديدة : شعب تقتلع جذوره من أرضه وآخر يحاول أن يغرس جذوره مكانه . لكن العاصفة قوية تنتزع جذور الأول وتطيح بجذور الآخر .

وفي الحرب مغلوب يرضخ وغالب يملي شروطه . أما في هذه فالغلبة لم تكتب لأحد . نهاية كل معركة تفتح الباب لمعركة أوسع . القتال هو دائماً قتال الغد ، لا هم للمتنازعين إلا حشد القوى من أجل يوم ما أتى بعد .

طبيعة هذه الحركات التي يجهل المتأمل متى تنتهي ، أدت إلى تطور كبير في إيديولوجية المنطقة . الحركات السياسية في بلاد العرب تبدلت معالمها وتعاليمها . ولا ننس أن أكثر قيادات الحركات السياسية كانت مشتركة في تلك الحرب . كان عبد الناصر ضابطاً في الجيش المصري ، وقد فعلت المعركة في نفسه وطورت نظرته الى واقع بلاده . قيادات البعث اشتركت كلها : أكرم حوراني ، ميشيل عفلق ، صلاح البيطار ، وأيضاً صلاح جديد الذي كان آنئذ فتى يافعاً .

وعندما تقارن بين ما يكتب في الصحف العربية سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٥٠ نجد فارقاً غريباً : بدأ الكتّاب يعبرون عن خوفهم من المستقبل وضرورة الإسراع بتبديل النظم القائمة ، والحديث عن ثورة شاملة تقلب أوضاع المجتمع من أساسها . وبات اسم إسرائيل مصدر خوف

وهلع وترقب .

بدأ العسكريون يتدخلون في السياسة لأنهم اعتبروا ان السياسيين هم سبب الهزيمة ، وأخذت كلمة « العار » تحتل مكانها في نفسية كل عربي .

أما في إسرائيل فقد دل إحصاء قام به علماء الاجتماع فيها على أن ٦٠ ٪ من ١٠٦٦ طالباً بين عمر ٩ــ١٤ سنة أيدوا الافناء الكلي للسكان العرب .

وهنا أذكر تحقيقاً نشرته جريدة هاآرت الإسرائيلية تضمن حديثاً بين جندي من الجنود الذين اشتركوا بمجزرة كفر قاسم وضابطه:

الجندي : ماذا تفعل بالأطفال والنساء ؟

الضابط : يجب أن يعاملوا كالآخرين بدون رحمة .

ــ ماذا نفعل بالجرحى ؟

ــ يجب ألا يكون جرحى .

ــ ماذا نفعل بالسجناء ؟

ــ يجب ألا يكون سجناء !

٦

حرت بادىء الأمر في مكان هذا الفصل ، هل أضعه بعد الحديث عن الحرب الأولى أم الثانية أم الأخيرة ؟ وفضلت أن أضعه بعد الثالثة ما دام عدد اللاجئين قد ازداد وانضمت اليهم أفواج من مئات الألوف . ثم وجدت أن العدد يزداد يوماً بعد يوم ، وبعد وقف إطلاق النار ، وأن وراء كل خطوة يخطوها الجيش الاسرائيلي لاجئين جدداً . وما دامت اسرائيل لم تصل إلى حدودها النهائية بعد ، وما دامت إمكانية الحرب قائمة فلن ينتهي عدد القوافل النازحة . ففضلت أن أكتبه بعد الحرب الأولى لأن المشكلة بدأت أبانها .

قامت الدعوة الصهيونية لدولة اسرائيل على مبدأ غير خاف على أحد ، وهو عودة اليهود إلى أرض الميعاد ، معتبرة العرب محتلين . ويسمي مناحيم بيغن في كل مناسبة يجيء فيها ذكر الأردن : الأرض التي يحتلها العدو . وهذه التسمية يتعلمها الطلاب في مدارسهم في اسرائيل . وتحقيقاً لهذه السياسة نرى المسؤولين في اسرائيل يوجهون الدعوة بعد كل عملية عسكرية – وفي الوقت الذي تتداعى فيه الأمم المتحدة لحل المشكلة الجديدة – إلى اليهود في العالم كي يأتوا اليها .

إن عدد اليهود في العالم هو ١٦ مليوناً على أقل تقدير ، وهو عدد من المستحيل أن يتسع له ما احتلته القوات الاسرائيلية حتى بعد حرب الأيام الستة . والصهيونية تستعمل كل وسائل الترغيب والدعاية كي يأتي اليهود اليها جميعاً ودون استثناء . فأين يقيم هذا العدد ؟ أوليس ذلك مدعاة للتفكير ؟ ألا يعطينا ذلك فكرة عما سيحصل في المستقبل ،

مع العلم أن أي مسؤول اسرائيلي لم يعلن صراحة أن الهجرة ستقف ذات يوم ، أو ان اسرائيل وصلت إلى حدودها النهائية . لم يقل أي مسؤول اسرائيلي أين يمكن أن يسكن اليهود جميعاً . إنهم يسمون اليهود في العالم : اليهود في المهجر ...

أقرأ بين فترة وأخرى بيانات توزعها مختلف الهيئات الصهيونية . وهاأنذا أورد بعض فقرات من بيان أذاعته أخوة المسيح [1] : من النبي حزقيال : « سأجمع شملكم من أحضان الأمم ومن كل الأوطان فأعيدكم إلى بلادكم . »

منذ الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ تحقق وعد الله هذا للشعب اليهودي ، وغدت اسرائيل دولة مستقلة تعترف بها الأمم المتحدة . ليس من جيل في الماضي رأى التحقق الحرفي للنبوءة كما رآه جيلنا منذ ١٩٤٨ . غير أن هذا ليس إلا البداية ، فالوعد الإلهي يتضمن بقية لا بد من العمل على أن تتحقق يوماً .

ولقد أعلن ابراهيم الخالد : « أعطي هذه البلاد إلى الأحفاد من الفرات إلى النيل . » وأكد موسى ذلك بكلمات من العلي الأعلى : « ستمتد حدودكم من الصحراء إلى لبنان ، ومن الفرات إلى الأبيض المتوسط » . وهذا يعني اسرائيل ولبنان والأردن وسوريا وسيناء (بما فيها قنال السويس) .

أورد هنا نصاً آخر من كتاب دولة اسرائيل تأليف اندريه شرقي ، مساعد بن غوريون خلال فترة طويلة وصديقه ومحافظ مدينة القدس المعاون حالياً ، وهو جزائري الأصل وأظنه من المعتدلين . يقول : تقع اسرائيل على حدود آسيا الوسطى الغربية ، وعلى حدود شبه الجزيرة العربية الشمالية الغربية .

والعرب يعلمون أن البرلمان الاسرائيلي يحمل شعار : من النيل إلى الفرات . واللاجئون بين ظهرانيهم يرون في شقائهم مستقبل العرب من النيل إلى الفرات . لإن اسرائيل جادة في تحقيق هذا الهدف ،

(١) ليس المسيح هنا يسوع وإنما الذي ينتظر اليهود ظهوره .

ولأن الأرض التي احتلتها في عشرين سنة غير كافية ليهود العالم. وقد يقول قائل إن اليهود لن يأتوا جميعاً، غير أن التجربة أثبتت أنهم يأتون كلما اتسعت رقعة اسرائيل، وإن من نتائج ذلك أن يرحل العرب عن الأرض شاؤوا أم أبوا.

قرأت مقالات تتحدث عن أن العرب هاجروا باختيارهم من فلسطين، وأنهم لو قبلوا البقاء لما كان ذلك صعباً. وأغرب من ذلك أن الكثيرين صدقوا هذا الزعم مع أن بعضاً من المحاكمة البسيطة يدحضه. هل رأينا في التاريخ مجموعات بشرية كبيرة تهاجر دون سبب جدي؟ الفرد يهاجر لسبب أو آخر، أما الجمهور فلا يمكن أن يفعل إلا تحت تأثير الرعب، كالرعب من القحط، أو من الاحتلال والقتل. واليهود هم أعرف من غيرهم بأسباب الهجرات الجماعية، ولذلك كان طردهم للعرب حافلا بالخبرة والمعرفة.

وهنا أيضاً أعطي مثلا على هجرة العرب من فلسطين: سكان مدينتي اللد والرملة.

صبيحة يوم ١٢ تموز ١٩٤٨ هاجمتها قوات البالماخ، وكانتا دون دفاع ولم تقاوما إطلاقاً. دخلت تلك القوات مدينة اللد أولا تتقدمها دبابات تشرشل (التي أعطاها الانكليز للاسرائيليين) ثم انتقلت بعدها للرملة. وفوجىء السكان بذلك فتجمعوا في الجوامع والكنائس.

أصدر القائد الاسرائيلي أوامره بتوقيف كل البالغين من الذكور حتى سن الخمسين، معتبراً اياهم أسرى حرب، وصادر السيارات الموجودة في المدينتين، ثم طافت مكبرات الصوت تأمر السكان بمغادرة المدينتين خلال نصف ساعة، تعمد بعدها القوات إلى الدخول للبيوت وطرد من لا ينصاع للأوامر.

خرج السكان جميعاً خلال نصف ساعة. أعني النساء والشيوخ والأطفال. واتجهوا شرقاً على الأقدام وقذائف المدفعية تسقط حولهم تحت شمس تموز المحرقة (تبلغ الحرارة في ذلك الشهر في تلك المنطقة ٤٠) وساروا هكذا مسافة ١٧ كيلومتراً.

يروي كيمشي ، مؤرخ الهاجاناه ، أن عدد الذين غادروا المدينتين كان ٦٠ الفاً . واختلفت الرواية في عدد الذين وصلوا للمنطقة العربية . ويصعب تقدير الضحايا في مثل تلك الفوضى . لكن المؤكد أن العدد لم يكن ستين الفاً أبداً . ومن المؤكد أيضاً أن ضحايا الأطفال كانت كثيرة . فهم أقل احتمالا لتلك المسيرة .

بعد أن أصبحت المدينتان فارغتين نهبت قوات البالماخ كل ما تركه السكان .

لقد اختلفت أساليب تهجير العرب من مدنهم ، لكن النية كانت واضحة لطردهم . والسبب الحقيقي هو حاجة اسرائيل للأرض من أجل القادمين الجدد .

يقول الكونت برنادوت في تقريره الذي رفع للامم المتحدة في ١٦ أيلول ١٩٤٨ : « من الخير أن يعلن ويؤكد فعلياً ، حق السكان البريئين المنتزعين من مساكنهم بالإرهاب والتدمير الناجم عن الحرب ، في أن يعودوا إلى منازلهم ، وأن تعوض عليهم الخسائر في أموالهم وممتلكاتهم ، وأن يعوض على غير الراغبين في العودة تعويضاً عادلا . »

واتخذت الأمم المتحدة القرار التالي ، في ١١ كانون الأول ١٩٤٨ :
« تقرر الأمم المتحدة السماح لمن يرغب من النازحين في العودة إلى ديارهم في أقرب فرصة ممكنة ، وأن يعيشوا بسلام مع جيرانهم . وتقرر دفع تعويضات عن ممتلكات من لا يرغب في العودة ، وعن كل ما ضاع أو تلف ، وذلك حسب مبادىء القانون الدولي ، أو أن تعيد السلطات المسؤولة إصلاح ما ضاع أو تلف .

أعطى هذا القرار كثيراً من الأمل للاجئين وبدأوا يعدون العدة آنئذ للعودة . غير أن تسعة عشر عاماً انقضت ، ولد فيها جيل كامل من البائسين المرضى ، لم يعد خلالها أحد ، وهم الآن يعدون العدة لرحلة أخرى نحو مجهول آخر وأمل آخر بالعودة . لقد بات الرحيل وحده قدراً لهم .

كان يسكن في الجبهة السورية بعض اللاجئين ، للمرة الثانية ، أبان

الحرب الأخيرة . وقد كتب لي أحدهم يقول : لجأت مرة أخرى ، وها قد بدأت أبني مستقبلا جديداً . وقد أرحل مرة أخرى ، لكني سأعود . وإذا لم أفعل ، فسيعود ابني إلى فلسطين .

نحن الكتاب العرب ، عندما نتحدث عن اللاجئين ، يطالبنا الناشر والقارىء بأن نؤيد ما نقول بالبينة . نحن بحاجة لأن نثبت أنهم لم يتركوا فلسطين عن رغبة . اليس هذا غريباً ؟ يقول مثلا بن غوريون في جلست الكنيسيت في ١١ تشرين الأول سنة ١٩٦١ : « إن لدينا البراهين الدامغة على انهم تركوا هذه البلاد بناء على أوامر القادة العرب الذين يأتمرون بأمر المفتي » .

لم يعط بن غوريون الدليل على ذلك ولا أي مسؤول آخر . غير أن الدعاية الصهيونية الدقيقة التنظيم ، وقدرتها على التكرار ، جعلت من هذه الدعوى شيئاً يؤمن به الرأي العام . ولا يذكر أحد النداءات التي كانت تذيعها الحكومات العربية طالبة من السكان عدم ترك بلادهم ، ونعتتهم بعض الإذاعات العربية بالانهزاميين والجبناء .

وصل اللاجئون إلى البلدان العربية المجاورة وهم يحملون عبئين : عبء الهجرة ، وعبء التهمة بالجبن .

ولو استعدنا تصريحات كل مسؤولي اسرائيل خلال تسعة عشر عاماً لما وجدنا تصريحاً واحداً يقبل بعودتهم . كل ما سمعناه لا يخرج عن انه تملص من هذه المشكلة تقرباً من الرأي العام العالمي ، وإلقاء التهمة على العرب كأنهم سبب هجرتهم . لقد استخدم اللاجئون العرب ، كما استخدمت المظالم النازية ، من أجل أغراض لا تنسجم مع رغبة الإنسانية في ألا تعيش الجماهير تحت الخوف من رحيل جماعي .

لقد استطاعت الدعاية الصهيونية الذكية أن تدخل في أذهان الناس ان العرب هم المسؤولون عن آلام اللاجئين العرب . تدعي مثلا انه على اولئك اللاجئين أن يعيشوا في الأرض العربية ما دامت واسعة تتسع لهم ولأضعافهم . أي شعب في العالم يرضى بالرحيل عن أرضه لأن بلاد جاره واسعة ؟ هل يرحل الألمان إلى روسيا أو إلى فرنسا أو

أميركا الجنوبية ما دامت تتسع تلك البلدان لهم ؟

اللاجئون يرفضون أن يقطنوا أي بلد في العالم نهائياً غير بلدهم ، ومن المستحيل إقناعهم بغير ذلك ، ولا أظن أن الحكومات العربية تستطيع ذلك لو رغبت فيه . إنهم بالنسبة لتلك الحكومات المشكلة الإنسانية الكبرى التي لا تحل . ولا بد للقارىء أن يتصور الحالة النفسية لمسؤول غربي عندما يزور مخيمات اللاجئين . إن بؤسهم الكبير يجعل العرب جميعاً أضعف من أن يملوا عليهم حلا يرفضونه . وهم يرفضون كل حل إلا العودة . أبناؤهم أشد تعصباً للعودة منهم . يولدون ويتعذبون . يمرضون على هذا النداء الذي تزيده الأيام اشتعالا .

لما فشل برنادوت وفشلت الأمم المتحدة بإعادتهم لجأت إلى حل موقت في ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، بأن أوجدت مؤسسة تهتم بشؤونهم دعيت الـ (O.I.R.) ثم انقلبت بعد فترة إلى وكالة غوث اللاجئين (UNRWA) التي بدأت عملها في ١ أيار ١٩٥٠ .

إن اللاجىء، بالنسبة لهذه المؤسسة ، هو « الذي كان يعيش في فلسطين قبل الصراع بسنتين ، والذي أضاع بيته ووسائله نتيجة حرب ١٩٤٨ .

تتناول مساعدات الأونروا أقل من ٧٠٪ من اللاجئين الفلسطينيين ، لأنها لا تعترف بجزء كبير منهم : فهي لا تعترف بالذين ولدوا بعد ١٩٥٠ ، ولا بالذين لجأوا وهم لا يحملون أوراقهم الثبوتية ، والذين رفضوا بادىء الأمر اعتبارهم لاجئين ، والذين كان لديهم بعض الموارد في البلدان العربية المجاورة ، او استطاعوا أن يحملوا معهم بعض الدراهم أو المجوهرات ، وسكان مناطق الحدود الذين فقدوا أرضهم وبقيت لهم بيوتهم ، والذين وجدوا عملا في البلدان المضيفة ، والبدو لأنهم كانوا قبل اللجوء يستطيعون عبور الحدود إذا أرادوا .

وتتضاءل يوماً بعد يوم نسبة الذين تساعدهم الاونروا بحكم الولادة ، كما أن هذه المؤسسة تواجه صعوبات كثيرة في التمويل .

قدر عدد اللاجئين في ١٤ أيار بـ ٩٠٠ الف ، ثم أخذ يتزايد هذا العدد بحكم الهجرة المستمرة والولادة . ويبدو ان نسبتها بينهم هي

من أكبر النسب في العالم . أصبح عددهم حسب إحصاء الاونروا في ١٩٦٥ بـ ١،٢٨٠،٨٢٣ وسنة ١٩٦٦ بـ ١،٣١٧،٧٤٩ (أي الذين يأخذون منها مساعدات) .

ترتيبهم كالتالي بالنسبة للبلدان المضيفة :

الأردن	٧٠٦،٥٦٨
قطاع غزة	٣٠٧،٢٤٥
لبنان	١٦٣،٩٠٤
سورية	١٤٠،٠٣٢
المجموع	١،٣١٧،٧٤٩

أما إحصاء الذين لا يأخذون مساعدات فهم ٣٢٥ الفاً في الأردن وقطاع غزة ، والذين يعتمدون في معاشهم على أنفسهم في الأردن ٥٠ الفاً ، و ٥٠ الفاً في لبنان ، و ١٠ آلاف في العراق ، و ٦٠ الفاً في سورية ، و ٢٠ الفاً في الجمهورية المتحدة وليبيا ، و ١٥ الفاً في اوروبا واميركا وآسيا وافريقيا ، فيكون مجموع اللاجئين ١،٨٥٧،٧٤٩ . وقد ازداد العدد زيادة كبيرة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وما يزال العدد يتزايد يوماً بعد يوم بحيث يتعذر الإحصاء .

أما ما تعطيه الأونروا للاجىء فهو كالتالي شهرياً : ١٠ كغ من الطحين ، ٥٠٠ غ من الأرز ، ٥٠٠ غ من الفول أو الحمص ، ٥٠٠ غ من السكر ، ٥٠٠ غ من الزيت ، وقطعة من الصابون يضاف اليها في الشتاء ٣٠٠ غ من الخضرة المجففة ، و ٤٠٠ غ من الطحين زيادة و ١،٥ من البترول (أي ما يعطي الفرد في اليوم ١٥٠٠ كالوري) وتتدنى هذه النسبة عند العائلات التي ولد فيها أطفال بعد سنة ١٩٥٠ .

فتحت الاونروا بعض المدارس وأكثرها مهنية ، أعطت نتائج لا بأس بها . ففيها يتعلم ٣،٩٠٠ طفل ، بينما يبلغ سن الرشد كل سنة ٣٠ الفاً من اللاجئين . وهكذا أصبح عدد الذين لم يتلقوا أي تعليم من اللاجئين ٤٠٠ الف . وإدارة الأونروا حائرة بين إطعامهم أو تعليمهم .

وأظن ان الإنتقاء بين الأمرين سهل. فالطعام الزم ولو لم يكن كافياً .

عندما نزح اللاجئون سكنوا تحت الخيام ثم بنوا بمساعدة الانروا بيوتاً صغيرة من الإسمنت شقت بينها شوارع صغيرة ، ويبدو ان بعضها نظيف .

نشأ حوالي المخيمات ، شبه مخيمات سكانها أكثر بؤساً من اولئك الذين لم تساعدهم الاونروا للأسباب التي ذكرت ، وجدرانها من تنك . وفي ضاحية أحد مخيمات الأردن حفر بعض اللاجئين مغاور عاشوا فيها مدة طويلة حتى تيسر لهم بناء بيوت أفضل .

تتألف أكثر بيوت اللاجئين من غرفة واحدة تسكنها العائلة بكاملها . نسبة العائلات الكبيرة مرتفعة بين اللاجئين ، نظراً للولادة الغزيرة . وهكذا نجد عائلات تتراوح بين السبعة والعشرة أشخاص ، وأحياناً أكثر ، تسكن في غرفة وحيدة . ونسبة سعة الغرفة في المخيمات ثلاثة أمتار طولا إلى ثلاثة عرضاً . بعض بيوت اللاجئين تحوي مطبخاً صغيراً جداً ، وساحة من عدة أمتار مربعة . ويندر وجود أسرة في البيوت وأكثر المخيمات تعاني قلة في الماء ، وجلها لا تصلها الكهرباء . وعندما تمر في شوارع المخيم تجد الأطفال يجلسون على أبواب البيوت كأنهم ينتظرون شيئاً ما ، والذين شبوا قليلا يعملون خدماً أو باعة متجولين . في بعض تلك المخيمات تقدم الاونروا وجبة غداء يومية لعدد معين من الأطفال. فمن سبق في الدخول إلى قاعة الطعام أكل ، ومن تأخر لا يجد مكاناً ويعود جائعاً ؛ في مخيم المحطة القريب من عمان يسمح لـ ٥٠٠ طفل بين عمر ٢ إلى ٥ سنوات بتناول الوجبة ، و ١٠٠ من عمر ستة إلى تسعة ، و ٢٥٪ لمن في عمر ١٠ إلى ١٤ . ويسمح بتناول الوجبة أيضاً لعشرين يحملون شهادة مرضية .

حاولت الأونروا أن تهتم بحالة اللاجئين الصحية فاختصت لهم حوالي ١٠٠٠ سرير في المستشفيات ، وأقامت بعض المستوصفات . غير ان إمكانياتها المحدودة لم تمكنها من أن تؤدي غرضها كاملاً . ولا ننس ان العناية الصحية تظل عاجزة أمام سوء التغذية : نسبة السل عالية

جداً بين اللاجئين . كثير من الأطفال يصيبهم العمى لنقص الفيتامين. وقد ظهر بينهم مرض خاص عزي إلى نقص الفيتامين E ، يصبح فيه الشعر أبيض ثم يسقط وتختفي العضلات .

يتساءل القارىء لم لا يشتغل اللاجئون في البلدان المضيفة ؟ لو نظرنا الى أوضاع تلك البلاد التي ما استطاعت الخروج من التخلف حتى الآن، لوجدنا ان من الصعب عليها تشغيل هذا العدد الكبير .

فالجمهورية العربية المتحدة تعاني نمواً في السكان يجعل كل الإصلاحات الإقتصادية عاجزة عن حل أزمة البطالة فيها . لقد قامت الثورة بمنجزات هائلة في عهد الرئيس عبد الناصر ، غير ان هذه الإنجازات لم تستطع أن تحل مشكلة التخلف . فهي تقف عاجزة ، رغم محاولتها الجدية ، امام مليون مولود جديد كل سنة .

الأردن ضعيف المورد لم يستطع حتى الآن أن يوازن اقتصاده .

ولبنان رغم تطوره السريع من ناحيتي الزراعة والسياحة يظل غير قادر على استيعابهم . ولا ننس ان اللبنانيين كثيرو الهجرة لهذه الأسباب (عدد اللبنانيين في المهجر أكثر من عددهم في لبنان) .

قد تكون سورية أقدر البلدان على ذلك ، لكنها لم تتطور للحد الذي تستطيع فيه تشغيل عدد كبير من العمال . فقد كانت هذه الهجرة مفاجئة للتطور الاقتصادي والتصنيع في سورية .

عندما بدأت الهجرة لم تكن البلدان العربية المجاورة في حال من النمو تمكنها من أن تتقبل هذه الهجرة المفاجئة ، لأن تقبلها يفترض مستوى حضارياً معيناً أو ان يكون المهاجرون أنفسهم على مستوى تقني يلبون حاجة البلاد . والفلسطينيون ما كانوا يختلفون عن سكان البلاد المجاورة من هذه الناحية . فأضافوا لتلك البلاد مشكلة أخرى من مشاكل التخلف . ورغم هذا فقد قدمت لهم هذه البلاد مساعدات هامة بالنسبة لإمكاناتها . ويقدر ما دفعته الدول العربية للاونروا حتى سنة ١٩٦٥ بـ ٥٧ مليون دولار . كما انها أعطت الفلسطينيين حقوق المواطن كاملة ، ومكنته من تكافوء الفرصة مع بقية السكان ، فترى

الآن منهم العامل والموظف .

ومع كل ما تحدثت عنه تظل حالة اللاجئين الفلسطينيين في البلدان العربية المجاورة أفضل من حالة الذين بقوا في اسرائيل . فهم يعيشون هناك تحت وطأة نظام شاذ سأحاول وصفه .

تخضع المناطق التي يسكنها العرب في اسرائيل « للحكم العسكري » منذ قيام اسرائيل حتى الآن بحجة الحفاظ على أمن الدولة . يقوم هذا النوع من الحكم معتمداً على قوانين الدفاع والطوارىء التي صدرت في في عهد الانتداب الانكليزي وما زالت سارية المفعول بالنسبة للسكان العرب فقط .

يقول عن هذه القوانين الدكتور دونكلبلوم (الذي أصبح فيما بعد قاضياً في محكمة العدل العليا في اسرائيل) : « هذه القوانين تشكل نقصاً للمفاهيم المبدئية للقانون والعدل والقضاء . إنها تمنح السلطات الإدارية والعسكرية حق فرض عقوبات . إن هذه العقوبات ، حتى لو كان مصادقاً عليها من قبل هيئة تشريعية، تعتبر فوضى ومخالفة للنظام. إن قوانين الدفاع هذه تلغي حقوق الفرد وتمنح الإدارة سلطاناً لا حدود له . إن هدف مؤتمرنا هو التعبير عن موقفنا كمستوطنين وكمحامين من هذه القوانين التي تنطوي في أساسها على تجريد كل مستوطن من الحقوق الأساسية ... وعلى مخالفة للقانون والنظام والقضاء » .

وقال عنها أيضاً الدكتور دون جوزف (الذي أصبح وزيراً للعدل في اسرائيل) : « وبخصوص قوانين الدفاع ذاتها فإن السؤال هو هل نصبح جميعاً معرضين للإرهاب بترخيص رسمي ... أم تسود هنا حرية الفرد ؟ هل تستطيع الإدارة التدخل في حياة كل فرد دون أي ضمان لحياتنا ؟ ليس هنالك أي ضمان ألا يعتقل المواطن طول حياته دون محاكمة . ليس هناك ضمان لحرية الفرد . ولا توجد هنا أية إمكانية للتوجه لمحكمة العدل العليا ... إن حرية الإدارة في نفي أي مواطن في أية لحظة لا حدود لها . يضاف إلى هذا كله ان لا حاجة لأن يرتكب الإنسان مخالفة ما . يكفي أن يتخذ قرار في أحد المكاتب حتى

يتقرر مصير الإنسان . لقد وصل الآن مبدأ المسؤولية المتبادلة إلى درجة تخالف كل منطق . إن جمع الـ ٦٠٠ الف من المستوطنين العبريين معرضون للشنق بسبب مخالفة يرتكبها شخص ما في البلاد ... يجب ألا يطالب المواطن بالاعتماد على إرادة الموظف الطيبة . ويجب ألا توضع حياتنا في يد هذا الموظف . إن بين الحرية والفوضى لا يوجد اختيار . ففي البلاد التي تثير فيها الإدارة نفسها الغضب ضد القوانين والسخط عليها والاحتقار لها لا يمكن أن تتوقع احترام القانون . يجب ألا يطلب من المواطن احترام قانون يضعه خارج كل قانون . »

كانت تلك أقوالهما في مؤتمر المحامين العبريين يوم ٧–٢–١٩٤٦ ، أي قبل قيام اسرائيل . ومن الغريب أن يكونا بعد قيامها من المشرفين على تطبيق هذه القوانين .

تمنح قوانين الدفاع وزير الدفاع حق تعيين حكام عسكريين لمناطق معينة حسب تقديره . وبعد تعيينهم مباشرة يصبحون ذوي سلطة لا حد لها . وهنا أذكر نص بعض المواد لأعطي القارىء فكرة عنها :

« يسمح للحاكم العسكري أن يعلن بأمر عسكري أية منطقة محرمة لأهداف واضحة في القانون ومتصلة به . ومن يدخل هذه المنطقة أو يخرج منها ما دام الأمر العسكري ساري المفعول ، وما لم يحصل على إذن من القيادة العسكرية أو الحاكم العسكري ، يعتبر مخالفاً للقانون » .

المادة ١١٩ تنص على انه « يحق للحاكم العسكري أن يصدر أمراً بحق أي شخص كان ، لتنفيذ الأهداف التالية أو بعضها :

آ) ١ – لضمان عدم وجود الشخص في أية منطقة محددة حسب ما ذكر أعلاه ، إلا بأمر صدر عن السلطات او الشخص الذي يجب أن يذكر اسمه في الأمر .

٢ – ليسأل الشخص عن تنقلاته ، والسلطات أو الفرد الذي ذكر اسمه في الأمر .

٣ – ليمنع ، أو يحدد استخدام الشخص للأشياء المذكورة في الأمر .

٤ – لتفرض بعض القيود على ذلك الاستخدام ، وعلى أفعال

الشخص واتصالاته بالآخرين ، وتبادل الرأي معهم ، وخاصة بما يتصل بنشاطاته لنشر آرائه (الكتابة في الصحف ، نشر الكتب أو الترجمات) .

ب) إذا لم يذعن الشخص لمتطلبات الأمر الذي اتخذ بحقه ، اعتبر مخالفاً للقوانين .

والمادة ١١٠ تقول :

١ – يحق للحاكم العسكري أن يضع أي شخص تحت مراقبة البوليس خلال مدة لا تتجاوز السنة .

٢ – كل شخص موضوع تحت المراقبة كما هو مذكور أعلاه ، تتخذ بحقه القيود التالية أو بعضها حسب أمر الحاكم العسكري :

أ – عليه أن يقيم ضمن حدود المنطقة المحددة في أمر الحاكم العسكري .

ب – لا يحق له تبديل مكان إقامته في المنطقة نفسها دون إذن من مفوض بوليس المنطقة. أما تغيير المنطقة كلها فبأمر خطي من مفوض البوليس العام .

جـ – لا يحق له ترك المدينة أو القرية أو القطاع المحددة لإقامته إلا بأمر خطي من مفوض بوليس المنطقة .

د – عليه أن يبلغ ، حالا ، مفتش بوليس المنطقة عن البيت أو الملك الذي يقيم فيه .

هـ – عليه أن يمثل في أي وقت ويطلب اليه ذلك في أقرب دائرة بوليس .

و – عليه أن يلزم بيته منذ الساعة الأولى بعد غروب الشمس وحتى مطلع الشمس . وللبوليس الحق في أن يقتحم بيته في أية ساعة شاء .

٣ – لكل بوليس أو جندي في قوات الدولة الحق في توقيف أي شخص بأمر توقيف حسب ما جاء في الفقرتين (١ و ٢) ونقله إلى المكان الذي يجب أن يقيم فيه .

٤ ــ إذا رفض الشخص الذي صدر بحقه الأمر الانصياع لما جاء في هذا الأمر يحكم عليه بمخالفة القوانين .

يرى من هذا أن الحاكم العسكري يستطيع توقيف أي إنسان مدى الحياة ، دون الرجوع إلى سلطة أخرى . وهنالك مواد أخرى مثل المادة ١١٢ تمكن الحاكم العسكري من طرد أي إنسان من البلاد أو تمنعه من من العودة إذا خرج في سفر او غير ذلك .

وتمكنه المادة ١١٩ من هدم بيته ، والمادة ١٢٠ من مصادرة أملاكه ، والمادة ١٢١ تمنحه سلطة إجبار قرية من قرى أن تقدم الغذاء والسكن للشرطة التي ترسل للقرية . أما المادة ١٢٤ فتعطيه صلاحية إعلان منع التجول الشامل أو الجزئي .

أما المادتان ١٢٦ و ١٢٢ فتمنحانه حق فرض الطرق التي يتجول فيها الناس وحيواناتهم دون استخدام غيرها .

وتشرف على تنفيذ هذه القوانين محاكم عسكرية يعينها القائد العام. وهي غير المحاكم العسكرية العادية . أحكامها خاضعة لوزير الدفاع وحده الذي يستطيع تصديقها أو تخفيفها أو إلغاءها إذا شاء ، فهو إذن يملك صلاحية التشريع والقضاء والتنفيذ . يترك له التقدير في تطبيق تلك القوانين أو عدمه ، ودون رقابة ما عدا رقابة المحكمة العليا . وقد ثبت عملياً وفي كل مرة تدخلت فيها هذه المحكمة أن رقابتها ليست سوى إسمية . وقد جاء في قرار الاستئناف رقم ٥٩ــ١٢٦ ما يلي : « تجدر الإشارة إلى أن هذه الصلاحية واسعة جداً فالتقدير ممنوح للقائد العسكري وليس للمحكمة . فمن حقه إصدار الأمر حتى بمجرد أن يبدو له الأمر مفيداً » .

عين الحاكم العسكري بموجب هذه الصلاحيات حكاماً عسكريين لمناطق ثلاثة : الجليل والمثلث والنقب وهي المناطق التي يسكن فيها ٧٥٪ من العرب . وقسم الحكام مناطقهم إلى تقسيمات ثانوية أطلق عليها اسم « المناطق المغلقة » .

لا يعرف حدود هذه المناطق إلا الحكام العسكريين أنفسهم ، لأنهم

غير مضطرين لنشر ذلك في الجريدة الرسمية . وعلى المواطن إذا أراد الخروج من تلك المناطق أن يحمل تصريحاً ، وعليه أن يعرف حدودها ، وجهل ذلك لا يعتبر حجة في الدفاع . ووسيلته الوحيدة في ذلك مراجعة مكاتب الحاكم العسكري والشرطة ، وهذه تجهل في غالب الأحيان مثل تلك المعلومات . لكن الناس باتوا يعرفون تلك الحدود بمرور الزمن . فقد عرفوا مثلا ، سنة ١٩٦٣ ، أن حيفا ضمن منطقة الحكم العسكري منذ ١٩٥٦ عندما حوكم بعض الشبان العرب من سكان المدينة .

توجد في بعض تلك المناطق أقسام يهودية لا تخضع للحكم العسكري إلا من ناحية واحدة ، وهي منع العرب من دخولها ، مثل المنطقة رقم ١ من منطقة الجليل .

وفي منطقة الحكم العسكري في النقب أعلن عن منطقة مغلقة واحدة تمتد شمال وجنوب بئر السبع ، التي وهي يسكنها عرب بدو ولا تشمل بئر السبع لأن سكانها يهود (بعد ان طرد منها العرب سنة ١٩٤٩) .

والمناطق المغلقة على أنواع . منها ما يستخدم في تدريب الجيش الاسرائيلي ، ومنها ما أعلن انها كذلك لتسهيل مصادرتها من سكانها العرب مثل قرى سخنين ، وعرابه ، وديرالأسد ونحف ومجد الكروم . ومنها ايضاً ما هو قرى مهدمة أجلي عنها سكانها العرب ، اومناطق «مغلقة صغيرة » ضمن مناطق « مغلقة كبيرة » شبيهة بالغيتو ، غير ان الغيتو هذه المرة هو عربي لا يسمح لسكانه بمغادرته إلا بتصريح قلما يعطى لطالبه .

وهنا أورد جزءاً من تقرير مراقب الدولة الاسرائيلي :

« إن الأمر الذي يصدره القائد العسكري والذي يعلن فيه عن منطقة معينة كمنطقة مغلقة يسري حسب نصه العام والجامع على كل مواطن ومواطنة بدون استثناء ، سواء كان هذا الوطن من سكان المنطقة أم من خارجها ، لذلك فإن كل من يدخل منطقة مغلقة أو يخرج منها بدون تصريح خطي من القائد العسكري ، يرتكب في

الواقع مخالفة جنائية . لكن عملياً فإنه لا يطلب من اليهود تصريح كهذا وبصورة عامة لا تتخذ ضدهم إجراءات جنائية حين يخالفون نص هذه المادة (المادة ١٢٥) ... إن شيئاً غير لائق يكمن في هذا القانون الذي وضع بصورته العامة بحيث ينطبق على جميع السكان في البلاد ، ولكنه عملياً يطبق ضد قسم منهم فقط . »

بحسب هذه القوانين يحظر على العربي في اسرائيل أن يدخل المناطق المغلقة أو يخرج منها بدون تصريح خطي من الحاكم العسكري . وهذا بعض ما جاء في نص التصريح : « يحق لحامله البقاء خارج المنطقة المغلقة بين الساعة السادسة صباحاً والثامنة مساء فقط ، ولا يسمح لحامله بدخول المستوطنات الواقعة في طريق سفره ، وإنما يسمح لحامله بالسفر عن طريق شارع (...) فقط . ويعتبر هذا التصريح لاغياً في أيام السبت والأعياد...لا يحق لك الخروج من المنطقة المغلقة إلا للغرض المذكور في هذا التصريح ، ولا يحق لك تغيير مكان إقامتك كما هو مسجل في هذا التصريح بدون موافقة القائد العسكري .... »

وقد بلغت الغرامات التي دفعها العرب سنة ١٩٥٥ بمعدل ٤٠٠٠ ليرة اسرائيلية يومياً لعدم حملهم تصاريح .

وكثيراً ما توقف الشرطة الباصات وتنزل منها العرب وحدهم فتفحص هوياتهم بدقة ويساق من لا يحمل التصريح الى السجن .

في آب ١٩٥٩ تحسنت الحال قليلا ونشر الحاكمان العسكريان في الجليل والمثلث أمراً يمنح سكان هاتين المنطقتين حرية التنقل بين أمكنة سكناهم وبين المدن المركزية في المناطق التي يسكنونها ، وذلك في أثناء ساعات النهار فقط وبشرط أن يعودوا إلى بيوتهم قبل حلول الليل ، واقتصرت حرية التنقل على السفر في الشوارع الرئيسية فقط .

سنة ١٩٦٢ أعلن رئيس الحكومة « ان تصاريح التنقل ستمنح لسنة كاملة إلا إذا ظهر شيء غير مقبول في حامل التصريح » . وسمح للبدو في منطقة بئر السبع بدخول المدينة يوماً واحداً في الأسبوع دون تصريح .

وفي سنة ١٩٦٣ سمح بالتنقل ضمن المناطق المغلقة (أي دون الإنتقال من منطقة مغلقة إلى أخرى) إلا للذين توجد اسماؤهم « على القائمة السوداء » ، أي غير المرغوب في تنقلهم ، وهي قائمة تزداد وتطول يوماً بعد يوم . وهكذا تبين للعرب ان القيود لم تتبدل وإنما ازدادت ، مع العلم ان الحاكم العسكري يستطيع تبديلها في الوقت الذي يشاء .

وتصدر عن الحاكم العسكري أحياناً أوامر تبدو غريبة للقارىء الأوروبي ، أورد بعض أمثلة منها :

١ — في يناير ١٩٥٦ نفي عرب كثيرون من قرى المثلث إلى بيت — جن في الجليل الأعلى ، وأجبروا أن يمثلوا يومياً في مركز شرطة « معونة » التي تبعد عن منفاهم ٢٠ كم .

٢ — في أيلول ١٩٥٧ صدر أمر ضد خمسة من سكان باقة الغربية يفرض عليهم أن يمثلوا مرتين إلى مركز الشرطة في « بردس — حنا » يومياً ، وهي تبعد ١٥ كم عن قريتهم .

٣ — في آب ١٩٥٨ صدر أمر ضد بدوي اسمه أحمد حسن من من قبيلة عرب الوادي يقضي عليه أن يجلس كل يوم من طلوع الشمس حتى مغيبها ، وطوال ستة أشهر ، تحت شجرة كبيرة تقع غربي قرية دير حنا .

كان بوسعي أن أقدم أمثلة كثيرة ، غير اني اكتفيت بهذا . أما التهمة الموجهة فهي « خطر على الأمن » .

فرض منع التجول ١٤ سنة كاملة على قرى المثلث جميعاً من الساعة التاسعة مساء حتى الخامسة صباحاً . ثم خفف سنة ١٩٥٣ فأصبح من العاشرة مساء حتى الرابعة صباحاً ، وأخيراً ألغي في شباط ١٩٦٢ فأصبح يعلن أحياناً ويوقف أحياناً أخرى .

وترتفع بعض الأصوات أحياناً في اسرائيل تنادي بضرورة إلغاء الحكم العسكري ولكنها عبثا تفعل . ويقول نائب الكنيسيت موشيه كرمل في ٢٠ شباط ١٩٦٢ ، وكان قائد المنطقة الشمالية في حرب

١٩٤٨ : « لم يعد هذا الجهاز (الحكم العسكري) ضرورياً لأمن اسرائيل، بل يكمن في استمرار بقائه ضرر بالنسبة لإقامة علاقات صحيحة بين مواطني اسرائيل العرب واليهود ، وللنظام الديموقراطي الحقيقي القائم على المساواة بين المواطنين ، وكذلك بالنسبة لتنمية الوعي الديموقراطي التقدمي ، ولشعور الأقلية العربية بالمواطنة ، ولسمعة اسرائيل في العالم ... إن الحكم العسكري لم يعد ضرورياً الآن ، بعد مرور ١٥ سنة على قيام الدولة . إنه ليس ضرورياً لضمان الأمن الداخلي ولتأمين الحدود . إنه لم يعد يؤدي أية وظيفة إيجابية في الدفاع عن البلاد من الداخل ، ووجوده يضر أكثر مما يفيد » .

ويقول النائب يعقوب حزان في جلسة الكنيست ذاتها : « إننا مقتنعون ان الحكم العسكري لا يخدم أمن دولة اسرائيل وانه يتناقض مع أسس العدل والقانون ، ولذا فإننا نشجب وجوده . لقد عمل الحكم العسكري على عزل المواطنين العرب بواسطة التمييز ضدهم في مختلف مجالات الحياة وبتحويلهم عملياً إلى مواطنين من الدرجة الثانية . لقد عمق الحكم العسكري وقوّى خطر سيطرة العناصر السلبية على تصرفات المواطن العربي . إن الحكم العسكري يصنع بيديه من الاقلية العربية قلعة من الشعور بالإهانة القومية والتمييز والغربة . ونتيجة هذا كله هو : توليد الكراهية .

وكتب ميخائيل اساف في مجلة بتّريم الاسرائيلية : « هذه الأمور تقوم على أساس معاقبة أناس ليس بسبب مخالفات ارتكبوها او مؤامرات حاكوها ، وانما بسبب مخالفات كان يمكن أن يرتكبوها (حسب تقديرات الحكم العسكري) أي : معاقبتهم لمجرد كونهم عرباً . »

ونشر بيان وقعه بعض رجال الفكر في اسرائيل في ١٩٥٨ جاء فيه ما يلي : « إن حوالي ٢٠٠ الف مواطن في دولة اسرائيل ينتمون إلى دين وقومية أخرى لا يتمتعون بحقوق المساواة ويعانون وضعاً من التمييز والاضطهاد . إن الأغلبية الساحقة من السكان العرب في اسرائيل تعيش تحت نظام حكم عسكري يسلبهم الحقوق الأساسية

للمواطن . إنهم محرومون من حرية التنقل والسكن (لا يستطيع العربي تبديل مكان إقامته) ولا يقبلون كأعضاء متساويي الحقوق في نقابة العمال ، ولا كموظفين في أكثر المؤسسات . ان كل أسلوب حياتهم متعلق برغبات الحاكم العسكري ومساعديه » . إلى أن يقول : « إن عشر سنوات من التمييز والاضطهاد قد خلقت وأخصبت حالة من اليأس والسوداوية والمرارة بين السكان العرب . وهؤلاء السكان يقعون فريسة للقوى التي تستغل هذا الوضع لأغراضها الحربية . إن استمرار هذا الوضع يمكن أن يضيف أخطاراً أشد ، بالنسبة لأمن الدولة » .

يتبين من ذلك ، الوضع الذي يعيش فيه العرب في اسرائيل كما أخذته من أقوال بعض الاسرائيليين الذين حاولوا أن يعيش العرب معهم كمواطنين ، لإنهم يدركون ما يمكن أن يصنعه هذا الاضطهاد في المستقبل . غير انهم اتهموا ، من قبل بن غوريون خاصة ، بالجهل والغباء . إذ يقول عنهم : « يضحون بأمن الدولة ... ولا يرون المستقبل ! »

والحقيقة ان غاية القوانين التي تحدثت عنها هي الاستيلاء على ما بقي من أراضي العرب وإجبارهم على ترك اسرائيل . يقول صموئيل سيجف محرر الشؤون العربية في جريدة « معاريف » الاسرائيلية : « إن إلغاء المادة ١٢٥ المتعلقة بالمناطق المغلقة ، وهي أهم مادة في نظام الحكم العسكري يعني ، عملياً ، إلغاء القوة القانونية لإغلاق « (المناطق) .... إن إغلاق منطقة حسب هذه المادة يعني إعداد هذه المنطقة للاستيطان اليهودي الذي أصبح الآن أمراً عاجلا أكثر واكثر مع ازدياد أمواج الهجرة » .

ويقول شمعون بيرتس ، نائب وزير الدفاع ، « إن استعمال البند ١٢٥ الذي يقوم عليه إلى حد كبير الحكم العسكري هو استمرار مباشر للنضال من أجل الاستيطان اليهودي والهجرة اليهودية» . ويضيف قائلا : « إن في الجليل في أيامنا مئات الألوف من الدونمات غير المستوطنة . وهذه المساحات مكرسة لاستيطان مبرمج . لكن هناك محاولة لاستيطانها دون ترخيص ، فمئات من البيوت أقيمت على سلاسل جبال

الجليل بدون رخص . وإذا كنا متفقين على ان للاستيطان مغزى سياسياً ، بعيد المدى ، فإن علينا أن نمنع بناء بيوت عربية تتناقض مع مفهوم صهيونية دولة اسرائيل والقانون معاً . »

ويعني بيرتس ، في المقطع الأخير ، العرب الذين طلبوا رخص بناء على أراضيهم ، فرفضتها وزارة الداخلية . لكن الضرورة حملتهم على بناء بيوت دون ترخيص ، فهدمتها السلطات .

كتب بن غوريون في صحيفة دافار يقول : « إن الحكم العسكري قد جاء ليدافع عن حق الاستيطان اليهودي في جميع أنحاء الدولة » .

وسخر بيرتس من مطالبة العرب ببعض الحقوق قائلاً : « هل نغير نشيد هتكفا أيضاً لمجرد وجود عرب في الدولة ؟ »

إن مراجعة أي إحصاء لأملاك العرب في فلسطين بعد الهدنة يدل على أن حق الملكية غير مصون للعرب في اسرائيل . وها أنا أعدد بعض الحوادث الدالة على هذا القول :

في ٥–١١–٤٨ أخليت قرية (اقرت) من سكانها العرب .

في ١٥–١١–٤٨ « « كفربرعم من سكانها العرب .

في ٤–٢–٤٩ « « عنان أيضاً وطرد قسم من سكانها خارج حدود اسرائيل . وبعد ثلاث سنوات طالب الباقون في اسرائيل بالعودة إلى بيوتهم فنسف الجيش الاسرائيلي بيوتهم . وفي ٥–٦–٤٩ طوق الجيش الاسرائيلي قرى حسام ، وقطبة ، والجاعونة وطردهم منها إلى صفد .

في مارس ١٩٥٠ طرد سكان بطاط منها .

في ٧–٧–١٩٥٠ طرد سكان ابو غوش ونقل مائة من سكان القرية إلى جهة غير معروفة .

في ١٧–٨–١٩٥٠ طرد سكان المجدل المسماة الآن مجدل اشكلون .

في شباط ١٩٥١ طرد سكان ١٣ قرية عربية من وادي عاره إلى خارج حدود اسرائيل .

في ١٧–١١–٥١ طوق الجيش قرية البويشات وأخليت القرية

من سكانها ونسفت بيوتها بعد ذلك .

في ايلول ١٩٥٣ طرد سكان ام الفرج من قريتهم ونسفت .

وهنالك قرى عربية خالية في أماكن متفرقة من اسرائيل يعتبر سكانها لاجئون ، لا يسمح لهم بالعودة اليها مثل : عمقا، القابسية ، صفورية المنصورة ، ميعار الخ ...

وهنالك أيضاً قانون لا أظن ان له شبيهاً في العالم كله ، يسمى قانون أملاك الغائبين . أما الغائب فهو (حسب القانون) :

أ ـ من غادر البلاد إلى مكان ما خارج أرض اسرائيل قبل ١ ايلول سنة ١٩٤٨ .

ب ـ أو إلى مكان ما داخل أرض اسرائيل كانت تسيطر عليه في تلك الساعة قوات أرادت منع قيام دولة اسرائيل أو حاربتها بعد قيامها .

وهكذا يعتبر غائباً كل العرب الذين كانوا في المناطق التي كانت تحتلها القوات العربية خلال حرب ١٩٤٨ ، وفي المناطق التي احتلتها اسرائيل فيما بعد . وهو لذلك لا يحق له التصرف بملكه ، لأن القيم على أملاك الغائبين يتصرف بها . مثلا ، عندما يضع القيم على أملاك الغائبين يده على دار أحد العرب لا يحق له سكناها ولا قبض أجرتها ، ويدفع هو أجرة البيت الذي يسكنه . ويكفي أن تعلن السلطات أن عربياً « غائب » حتى تتحول كل ملكيته للقيّم على أملاك الغائبين . وقد مكن هذا القانون مصادرة أراض كثيرة . ويستطيع القيّم عدا ذلك أن يعلن ان إنساناً « غائب » متى شاء . وفي القانون مادة تقول : « لا يجوز التحقيق مع القيم حول مصادر المعلومات التي جعلته يصدر قراراً حسب هذا القانون . » ومادة أخرى تقول : « كل صفقة جرت بصورة عفوية بين القيم وبين إنسان آخر فيما يتعلق بملك ظنه القيم في ساعة إجراء الصفقة ملك غائب تعتبر باطلة وتبقى نافذة المفعول حتى ولو ثبت فيما بعد ان ذلك الملك لم يكن في تلك الساعة ملك غائب . »

اعتبرت أملاك الوقف الاسلامية من أملاك الغائبين . ولا يخلو

إخلاء قرية من سكانها من بعض حوادث العنف ، كما جرى لقرية كفربرعم : أعلنت هذه القرية منطقة مغلقة (أي لا يجوز الخروج منها ولا الدخول اليها إلا بتصريح) . فتوجه سكان القرية في سنة ١٩٥٣ إلى محكمة العدل العليا بدعوى ضد الأمر . وحكمت المحكمة بعودتهم إلى قريتهم ، فهاجمتها قوات الجيش والطيران ونسفتها .

وهنالك قانون آخر يسمى « المواد لساعة الطوارىء (مناطق الأمن) ١٩٤٩ » . هذا القانون يتجدد كل سنة حتى اليوم . تقول المادة ١٨ : من حق السلطة المختصة أن تأمر ساكناً ثابتاً في منطقة أمن أن يخرج من منطقة الأمن هذه » . وبعد ان تبلغه السلطة بذلك : « يكون ذلك الساكن مجبراً أن يخرج من منطقة الأمن خلال ١٤ يوماً من تبليغه بأمر الخروج » .

وهنالك لجان استئناف يتقدم اليها المأمورون بالخروج ، لكن طلبات الإستئناف لم تكن مجدية أبداً .

وهنالك أيضاً « مواد ساعة الطوارىء لاستغلال الأراضي غير المفلوحة » الذي يعطي وزير الزراعة الحق « بالاستيلاء على الأرض غير المفلوحة لتأمين فلاحتها » . وتسير العملية بأن يعلن وزير الدفاع ان قرية ما منطقة مغلقة أو منطقة أمن ، فيمنع الدخول اليها ، وتصبح أرضاً غير مفلوحة فتسلم إلى من يفلحها ، أي للمستوطنات اليهودية .

وهنالك قانون آخر يسمى قانون الاستيلاء على أرض في ساعة الطوارىء ١٩٤٩ ، يمنح الحكومة صلاحية تعيين « سلطة ذات صلاحية » من حقها « إصدار أمر بالاستيلاء على أرض » أو « إصدار أمر إسكان » ، وذلك من أجل « الدفاع عن الدولة وأمن الجمهور وتأمين تموين ضروري أو خدمات جماهيرية ضرورية أو استيعاب مهاجرين أو إسكان جنود مسرحين أو مشوهي حرب » .

وتزعم السلطات في اسرائيل انها تدفع تعويضاً عند المصادرة . وقد حددت ثمن الدونم ١٤٠ ليرة تقريباً ، مع ان إنتاج الدونم السنوي في بعض المناطق يتجاوز هذا المبلغ .

لقد حوّل « قانون أملاك الغائبين » وحده ٢٠ الف عربي إلى لاجئين في اسرائيل ، يسكنون قريباً من أراضيهم المنتزعة ولا يحق لهم الدخول اليها ، إلا إذا كانوا عمالا أجراء يشتغلون عند أصحاب الأرض الجدد ، ويسكنون بيوتاً من القصدير أو الخيش . وهم يرفضون قبول تعويضات عن أراضيهم . وكانت الاونروا تقدم لهم المساعدة ، ولما تبينت انهم ملاكون قطعت عنهم المساعدة . وحاولت دولة اسرائيل إسكانهم لقاء التنازل عن حقوقهم فرفضوا .

بقي علي أن أقول إن مثل هذه القوانين لا وجود لها في بلاد العرب وان القوانين الأخرى تطبق على المواطنين دون استثناء .

وهنالك كثير من الصحف الاوروبية تتهم العرب بالتمييز العنصري وباللاسامية دون دليل ما ، لأن هذا الدليل لا وجود له . ولا أنكر ان الحكومات العربية تنبه المواطنين إلى أخطار المستقبل .

يزعم البعض أن الطلاب العرب يتعلمون في مدارسهم الحقد ضد اليهود . والحقيقة ان العرب يتعلمون في مدارسهم ان اسرائيل تطمع في احتلال أرضهم ، وانها دولة مبنية على التعصب العرقي ، وان قيامها خطر عليهم . أما الحقد فهو نتيجة طبيعية لوضع مستمر ، ولدولة لم تصل إلى الحدود التي تحلم بها حتى بعد حرب الستة أيام . ولا ننس المرسوم الديني الذي اتخذه الحاخام الاكبر لاسرائيل (اتساك نسيم) في ٢٩ اكتوبر ١٩٦٧ والذي ينص على ان أرض اسرائيل (حسب ما جاء في التوراة) هي أرث اليهود جميعاً ولا تستطيع أيه سلطة أن تتنازل عن حدودها .

أظنني في هذا الفصل ومن مصادر اسرائيلية ، بينت للقارىء عقلية التمييز العنصري ، وبعضاً من أوضاع العرب في اسرائيل ، وما ينتظر البقية الباقية من الذين يقطنون « في الأرض التي يحتلها العدو » أي في سورية ولبنان والأردن ومصر وجزء من تركيا والعراق .

إن الشعب اليهودي جميعاً يتعلم انه شعب الله المختار في المدرسة وفي البيت وفي الكنيس . وأضافت الصهيونية لهذا المفهوم الديني مفهوماً

سياسياً أعطي فكرة عنه بكلمة قالها الصحفي الاسرائيلي نسيم رجوان : « في المدارس وحدائق الأطفال الاسرائيليين ، تعتبر اللفظة العربية سبّة . ثم إن المجتمع الاسرائيلي يعامل الأفراد العرب بتحفظ وتشكيك وإهانة أحياناً » . (مجلة الأزمنة الحديثة : العدد الخاص بالصراع الاسرائيلي العربي) . ويزداد هذا الشعور مع الزمن ومع الانتصارات العسكرية ، كما يزداد شعور العرب بالمهانة والخوف على مصيرهم . والعرب شعب فخور ، وهو يغفر الأذى ، لكنه لا يطيق الإهانة .

٧

خرجت الإنسانية من الحرب العالمية الكبرى الأولى مثقلة بالجراح . ومنذ ما هدأ صوت المدفع أخذت تبحث عن وسيلة تمنعه فيها من أن يلعلع مرة أخرى ، وكانت هذه الوسيلة عصبة الأمم . غير أن تجربة الحرب لم تكن من العمق بحيث تجتث أطماع السياسيين وطموح الاحتكارات . ومنذ بدأت تلتئم الجراح أخذت تظهر على مسرح السياسة العالمية عدم جدوى العصبة .

وبعد الحرب العالمية الثانية عاودت الإنسانية التجربة بالأمم المتحدة وحاولت أن تمنحها بعضاً من السلطة ، فأوجدت إلى جانبها أجهزة ، وزودتها باتفاقات عالمية . غير أن المؤسسة الجديدة لم تكن أجدى بكثير من الأولى . ولو تأملنا نمو التيار الذي يكافح ضد الحرب وامتداده عبر الجماهير البشرية ، لوجدنا انعكاسه ضئيلاً على الأمم المتحدة . فالمصالح ما زالت عاملاً أساسياً في العلاقات الدولية ، يلعب دوراً أهم بكثير من أمل الإنسان في إزالة شبح الحرب . وبقدر ما يتعاظم تيار السلم يتسارع التسلح ويتزايد النهم إلى أسلحة اشد فتكاً . وكأنما يحفز المد السلمي قادة الدول على التفكير بحرب سريعة لا تجد الإنسانية المتسع من الوقت لردعها .

ولقد خرج العرب بتجربتهم في الأمم المتحدة بانها مؤسسة الأمر الواقع .

ففي ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٨ دعا مجلس الأمن الفرقاء المعنيين في النزاع الفلسطيني للبحث عن اتفاق بمفاوضات مباشرة أو بواسطة

الوسيط الدولي يحقق ما يلي :

١. تحديد خطوط دائمة للهدنة لا تتجاوزها الأطراف المتنازعة .

٢. سحب وتخفيف القوى العسكرية بحيث تصبح الهدنة فعلية وتنقلب فيما بعد إلى حالة سلم دائمة في فلسطين .

وقامت بعد ذلك مفاوضات بين الحكومات العربية : مصر ، والأردن ، وسورية ، ولبنان من جهة وبين السلطات الإسرائيلية من جهة أخرى تحت رعاية وسيط الأمم المتحدة الدكتور رالف بانش .

علمنا من الفصول السابقة أن خطوط الهدنة تجاوزت بكثير قرار الأمم المتحدة بالتقسيم ، وأخذت إسرائيل تجهد في أن تصل إلى صلح مع العرب مبني على الأمر الواقع . ثم راحت تطالب بتوقيع معاهدات صلح مستمدة من اتفاقيات الهدنة ، بينما رأى العرب أن سياسة الأمر الواقع هي سياسة عدوانية ، لا يمكن أن تحل المشكلة الفلسطينية ، خصوصاً وقد رأى العرب منذ قيام إسرائيل أنها لا تتوقف عن الامتداد خارج الحدود التي وضعتها اتفاقيات الهدنة ، وخاصة في المناطق المجردة من السلاح . وهي المناطق التالية :

١. منطقة مجردة على الحدود السورية .

٢. منطقة حول الجامعة العبرية ومستشفى هداسا على جبل سكوبس .

٣. منطقة جبل المكبر في القدس المشتمل على بناء الحكومة القديم والكلية العربية ، وهي منطقة أعطيت للجنة الهدنة .

٤. منطقة العوجه على الحدود المصرية .

وهنالك منطقتان ثانويتان مجردتان من السلاح : أولاهما في القدس كي تفصل بين القدس العربية والقدس الإسرائيلية ، والأخرى في اللطرون على طريق يافا ـ القدس .

كانت هذه المناطق المجردة سبباً دائماً من أسباب التوتر . فقد أخذت إسرائيل تحتلها شبراً شبراً ، وبأناة وصبر ، لأنها اعتبرتها جزءاً من أرضها ، فأخذت تقيم في بعضها مستعمرات زراعية شبه عسكرية . وأظن أن أفضل وصف لذلك ما قالته جريدة « التايمس » في عددها

الصادر في ١٠-٣-٦٥ : « منذ إنشاء مستعمرة « الماغور » شبه العسكرية المطلة على وادي الأردن عام ١٩٦١ ، وإسرائيل تستولي بالتدريج على أرض لم تتمكن من السيطرة عليها قبلاً ، وهي الأرض التي كان الفلاحون العرب يقومون بزراعتها ».

وقد أشرت في فصل سابق إلى احتلال النقب ومفاوضات الهدنة قائمة . أما بعدها فقد قامت حوادث تختلف اتساعاً بين فترة وأخرى.

ففي آذار ١٩٥٠ احتلت إسرائيل « بئر قطار » في منطقة العوجة . وفي ٢٠ من هذا الشهر تقدمت مصر بشكوى للجنة الهدنة المشتركة فاعتبرته هذه خرقاً لاتفاقيات الهدنة . واستأنفت إسرائيل القرار فجاء الحكم مؤيداً للأول . ثم رفعت القضية لمجلس الأمن فقرر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٠ أن على إسرائيل أن تنسحب فانسحبت ، ولكن بعد أن طردت أكثرية السكان .

وفي ٢٨ أيلول ١٩٥٣ قام الجيش الإسرائيلي بالهجوم على المنطقة ، وقتل عدداً كبيراً من السكان وأقام معسكر (كتسويت) . وفي ٢ تشرين الأول قررت لجنة الهدنة المشتركة دعوة إسرائيل إلى الانسحاب وتهديم المعسكر . وفي ٥ أيلول ١٩٥٦ قدم كبير المراقبين تقريراً يقول فيه أن المعسكر لا يزال موجوداً وهو يتوسع باستمرار .

وفي ٢٧ آذار ١٩٥١ قامت قوات إسرائيلية بالتمركز في جنوب المنطقة المجردة على الحدود السورية . فطلبت لجنة الهدنة إلى رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الانسحاب . لكن القوات الإسرائيلية في ليل ٣٠-٣١ آذار ١٩٥١ طردت ٨٧٥ عربياً . وفي أوائل نيسان قام الطيران الإسرائيلي بهجوم جوي على قرية الحمة . وفي ٤ أيار فتحت القوات الإسرائيلية نيرانها على السكان العرب في المنطقة المجردة ، فأعلن كبير المراقبين أنه لم يحصل أي تحرش من الجانب السوري يبرر الهجوم . وبعد يومين قامت القوات الإسرائيلية بهجوم آخر ، وقصف الطيران قرية المطلة ، واحتلت إسرائيل جزءاً من المنطقة المجردة .

وفي ذلك قال الجنرال بيرنز كبير المراقبين : «أدعى الإسرائيليون السيادة

على المناطق المجردة من السلاح ، لكنهم وافقوا على عدم وضع قوات عسكرية فيها ، ثم تدرجوا كلما سنحت لهم الفرصة إلى التراجع عن هذا التخصيص ، اي عدم وضع قوات عسكرية ، وبدأوا يخلصون أنفسهم منه نهائياً كما فعلوا بالنسبة للمنطقة المجردة في العوجه » .

كلما احتلت إسرائيل منطقة من المناطق المجردة ، وضعت السكان في شروط حياة يصفها تقرير كبير المراقبين بما يلي : « لا يسمح لهم بالتجول وراء حدود قريتهم إلا بإذن من البوليس الإسرائيلي . وهم يعيشون تحت الخيام وفي أكواخ من الطين لأن قراهم الأصلية قد دمرها الإسرائيليون في آذار ١٩٥١ » .

واصدرت لجنة الهدنة السورية الإسرائيلية قراراً في ١٢ كانون الأول ١٩٥٤ دعت فيه : « السلطات الإسرائيلية إلى إتخاذ الإجراءات الفورية لوقف جميع أعمال الاستفزاز والعدوان ضد المدنيين ، وسحب مراكز البوليس الإسرائيلي من المنطقة المجردة الجنوبية» . فلم تستجب إسرائيل وأقامت تحصينات عسكرية دائمة . وفي ٢٩ حزيران ١٩٥٦ طلب كبير المراقبين إزالة هذه التحصينات . وفي ٣ أيلول ١٩٥٦ أجاب رئيس وزراء إسرائيل بن غوريون قائلا : « إن إسرائيل لا تستطيع الاستجابة لطلب كبير المراقبين ».

وسنة ١٩٦٦ بلغ ما احتلته إسرائيل من المنطقة المجردة على الحدود السورية أكثر من ثلاثة أرباعها .

ولم تشترك إسرائيل في اجتماعات لجنة الهدنة السورية الإسرائيلية منذ ١٩٥١ ، وقاطعت الاجتماعات الطارئة منذ ١٩٦٠ ، لأنها على حد قول وزير الخارجية الإسرائيلية في ٢٨ كانون الأول ١٩٦٦ : « تستعملها سورية لتتحدى سيادة إسرائيل على المناطق المجردة » .

وضعت هنا بشكل مختصر جداً كيفية استيلاء إسرائيل على المناطق المجردة ، محتجة طبعاً بأنها تقوم بأعمال تأديبية ، مجيبة على اعتداءات عربية . غير أن من يتتبع تطور الأحداث يرى أن هنالك سياسة خاصة

ومنهجاً معيناً للاستيلاء على أراض جديدة ، يلخصها موشه بريليانت المعلق العسكري الإسرائيلي بقوله : « نادراً ما تكون حوادث الحدود مجرد مصادفة . إنها جزء من سياسة الانتقام ، وجزء من خطة واضحة لإجبار العرب على القبول بالسلام مع إسرائيل ... إن سياسة الاعتداءات هذه هي نتاج تفكير سياسي وسيكولوجي بارد وغير عاطفي ».

وقد أصدر مجلس الأمن قراراً في ١٩ آب ١٩٤٨ ينص : « لا يسمح لأي طرف أن يخرق الهدنة على أساس أنه يقوم بعمل انتقامي أو رادع ضد الطرف الآخر » .

وجهدت الأمم المتحدة والمؤسسات المنبثقة عنها في وضع حد لحالة التوتر القائمة في منطقة الشرق الأوسط ، ولكنها لم تصل إلى أية نتيجة. ولو شئت أن أذكر ذلك تفصيلاً لملأت مجلدات . ولذلك أكتفي بجدول يبين حوادث الحدود والإدانات بالعدوان . ولا بد من الإشارة إلى أنه لم تصدر أية إدانة عن الأمم المتحدة ضد أية دولة عربية .

وفيما يلي جدول بقرارات إدانة إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة ، بين ١٩٤٩ و ١٩٦٤ .

على سوريا	٤٤٢١٠
على الأردن	١٤٩٠٣
على لبنان	١٩٣٦
على المتحدة	١٢١٢

وتراوح هذه الاعتداءات بين تبادل إطلاق النار وحشد الجيش ؛ أعطي مثلا الحدود الأردنية :

تبادل إطلاق النار	١٣٧٥
إختراق الحدود	١٧٢
حشد الجيش	٧٤
طرد العرب	٧٧
هجمات على القدس	٥٣١
غارات الطيران	٤٢٩٩

قرارات إدانة اسرائيل في هيئة الأمم المتحدة

سبب الإدانة	السلطة	تاريخ الاعتداء	تاريخ الإدانة	رقم القرار
اغتيال الكونت برنادوت	مجلس الأمن	١٩٤٨/ ٩/١٧	١٩٤٩/ ٩/١٨	س/١٠٠٦
غياب التحقيق في اغتياله	» »	١٩٤٩/١٢/١٢	١٩٤٩/١٢/٢٠	س/١٠٤٥
احتلال بير خطار في منطقة العوجا	» »	١٩٥٠/ ٣/١٥	١٩٥٠/١١/١٧	س/١٩٠٧
غارة جوية على حمامه	» »	١٩٥١/ ٤/ ٥	١٩٥١/ ٥/١٨	س/٢١٥٧
اعتداء على قبية	» »	١٩٥٣/١٠/١٤	١٩٥٣/١١/٢٤	س/٣١٣٩
» » غزة	» »	١٩٥٥/ ٢/٢٨	١٩٥٥/ ٣/٢٨	س/٣٣٧٨
» » سوريا شرقي طبريا	» »	١٩٥٥/١٢/١١	١٩٥٦/١١/١٠	س/٣٥٣٨
احتلال غزة وسيناء	الجمعية العامة	١٩٥٦/١٠/٢٩	١٩٥٦/١١/ ٢	٩٧٧
عدم تطبيق القرار ٩٩٧	» »	» » »	١٩٥٦/١١/ ٤	٩٩٩
» » » »	» »	» » »	١٩٥٦/١١/ ٧	١٠٠٢
» » » »	» »	» » »	١٩٥٦/١١/٢٤	١١٢٠
» » » »	» »	» » »	١٩٥٧/ ١/١٩	١١٢٣
» » » »	» »	» » »	١٩٥٧/ ٢/٢	١١٢٤
دخول القوات الثقيلة إلى القدس	مجلس الأمن	١٩٦١/ ٣/١٧	١٩٦١/ ٤/١١	س/٤٧٨٥
اعتداء على سوريا شرقي طبريا	» »	١٩٦٢/٣ /١٧	١٩٦٢/ ٤/ ٩	س/٥١١١
اعتداء على السموع والقرى المجاورة	» »	١٩٦٦/١١/١٣	١٩٦٦/١١/٢٥	؟

ويقل يوماً بعد يوم إيمان العرب بالأمم المتحدة وبقدرتها على حل الأزمة .

بعد قرار التقسيم الأول لم يقم لدى العرب دليل ما على توفر النية للسلم . يوضح ذلك ما كتبه الجنرال جورج فيلدغ في صحيفة نيويورك بوست من تصريح لأحد قادة الهاجانا : « إن حماية حدود الدولة اليهودية بشكلها المرسوم خرافة عسكرية » .

يتساءل الأوروبي لماذا لا يقبل العرب الصلح مع إسرائيل . ذلك يعود إلى أسباب عديدة أولها أنهم يرفضون الخضوع لسياسة الأمر الواقع ؛ وثانيها أنهم لا يصدقون عروض الصلح التي تتقدم بها إسرائيل ، بل يعتبرونها مناورة وتغطية لعدوان . وفي كل مرة نادت بالسلام جابهت الدول العربية عدواناً وتوسعاً . وتعرض القضية على مجلس الأمن فيمنع إطلاق النار في الحدود المؤقتة ، ريثما تبت الأمم المتحدة بالخلاف. وتطول المناقشات فتصبح الحدود المؤقتة حدوداً جديدة دائمة . وثالثها أن إسرائيل تسير على برنامج ثابت ، دقيق ، طويل النفس ، بطيء للوصول إلى غايتها . لقد صرح أشكول بجريدة لوموند : « أنه على استعداد ليقابل أي مسؤول عربي في أي وقت وفي أي مكان ، ولكنه يؤكد في الوقت ذاته أنه لن يتنازل عن إصبع واحد من أرض إسرائيل ، ولن يسمح للاجيء واحد بالعودة. » أي أن إسرائيل تضع الدول العربية في موقف لا يمكنها فيه قبول الصلح ، ثم تنادى بضرورته ، وتطلب من الدول العربية أن تجيئها مستسلمة خاضعة . والواقع أننا عندما نتعمق بدراسة تاريخ المنطقة نجد أن حالة الحرب هي في مصلحة إسرائيل ، منسجمة مع مخططها في الهجرة ، ومع حلمها بإسرائيل الكبرى . ونحن نجد أنها هي الرابحة دائماً من حالة التوتر . وهأنذا أضع جدولاً آخر أبين فيه عروض السلم وما رافقها من اعتداءات :

دعوة إلى السلام	إعتداءات	إنذار بالحرب أو اللجوء إلى القوة
أعلنت قيادة الهاجانا في ١٩٤٨/٣/٢٠ : « نحن نمد أيدي الصداقة الحميمة للعرب . »	مذبحة دير ياسين ١٩٤٨/٤/٩	
في ١٩٤٨/٤/١٢ أذاع المجلس الصهيوني نداء صداقة وسلم إلى العرب وصرح : « اليهود شعب مسالم يبني اسرائيل بالسلم » .	مجزرة قرية ناصر الدين . ذبح كل السكان إلا أربعين منهم (١٩٤٨/٤/١٣)	
في إشارة لبن غوريون بمناسبة قيام اسرائيل « إن اسرائيل تمد يد السلام والعلاقات الطيبة إلى البلدان العربية المتاخمة . »	ذبح عشرين رجلا في قرية القبو(٤٨/٥/٣) وذبح كل سكان بيت دارس (٤٨/٥/٣) وذبح كل سكان بيت الشوري (٤٨/٥/٥) جمع كل أهالي قرية الزيتون في جامعها ونسفوا. فلم يبق منهم حي . (٤٨/٥/٦)	في ٤٨/٦/١٠ أعلن بن غوريون : « سنحتفظ بكل ما نحتله . »
وجه وزير خارجية اسرائيل إلى الكونت برنادوت كتاباً يجدد فيه « دعوة الحكومة الاسرائيلية إلى مؤتمر مع ممثلي الدول العربية لتحقيق السلام . »		أعلن بن غوريون (٤٨/٨/١٣) : « يجب أن ننهي الحرب بنصر حاسم . لم ينته بناء الدولة . وعلينا أن نتابع المعركة لنحقق قدرنا . وإن حدودنا لم تعين بعد .»
أعلن موسى شرتوك ، الذي غدا شاريت ، وزير الخارجية الاسرائيلية ، في الأمم		بعد أسبوعين من ذاك أعلن مناحيم بيغن في نيويورك : « على الشعب الاسرائيلي في

المتحدة بتاريخ ١٩٤٨/١١/١٥ ان«اسرائيل مستعدة للصلح . »		معركته أن يعمد إلى وسائل جديدة وأسلحة جديدة لتحرير اسرائيل . »
أعلن شاريت في ١٩٥٠/١١/٣٠ : « لا نجد أي مبرر موضوعي يحول دون السلام .»		قال شاريت في اجتماع حزبي، وذلك في التاريخ ذاته تقريباً : « أنصح حكومة بلادي أن تشن حرباً على العرب ، فإنها فرصتنا لتحقيق أحلامنا . وإلا فات الوقت لسحق العرب . »
صرح ممثل اسرائيل في الأمم المتحدة في ٩/ ١٩٥٢/١١ : « تظل المفاوضات مع العرب من أهدافنا الرئيسية » .	الهجوم على بيت جاها . طردت اسرائيل ٤٠٧١ بدوياً من قبيلة ساني .	صرح دايان من الإذاعة الاسرائيلية (١٢/ ٥٢/٢) ان على الشعب أن يستعد للمعركة ، وإن كانت مسؤولية القتال في موضوعية استمرار سياستنا في تحقيق الامبراطورية الاسرائيلية ، هي مسؤولة الجيش . »
صرح بن غوريون (٥٣/٥/١٣) « اسرائيل مستعدة لتوقيع معاهدة صلح لمائة سنة مع البلدان العربية . »	٥٣/١٠/١٤ مجزرة قبية . إدانة مجلس الأمن . الهجوم على علامة (٢٨ و ١/٢٩/ ٥٣) . مهاجمة صيروف ووادي فوقين (٥٣/٨/١١) بناء مستعمرة في كسوة (٥٣/٩/٢٨) .	حوالي نهاية ١٩٥٢ صرح بن غوريون في مؤتمر البام : « أقبل أن أؤلف وزارة شرط استخدام كل طاقاتنا للتوسع صوب الجنوب . »

دعوة إلى السلام	إعتداءات	إنذار بالحرب أو اللجوء إلى القوة
في رسالة من أبا ايبان إلى سكرتير الدولة في وزارة الخارجية الأميركية ، يؤكد : « إن رغبة اسرائيل هي في تأمين حدود آمنة مع جيرانها . »	٥٤/٣/٤ هجوم على وادي تار . ٥٤/٣/٢٨ هجوم على قرية نحالين الأردنية. قتل ١١ وجرح ١٩ . إدانة من لجنة الهدنة .	
في ٥٤/٩/١٧ ألح شاريت على رغبة اسرائيل في اتفاق سلام ، وقال : « إنه صلح مع اسرائيل ضمن حدودها الحالية وسكانها دون تغيير .» أي دون عودة النازحين .	في ٥٤/٧/٢٨ هجوم على مخيم النازحين في عزون من الأراضي الأردنية . إدانة لجنة الهدنة .	
في ٥٤/٩/٢٥ أعلن جدعون رافاييل مدير القضايا الشرقية في وزارة الخارجية الإسرائيلية « اسرائيل مستعدة أن تجعل من أرضها معبر اتصال بين الدول العربية . »	إدانة اسرائيل بخمسة عشر عدواناً على الأراضي الأردنية في الفترة الواقعة بين ٣/٢٣ و ٣٠/ ٥٤/٦ .	
صرح أبا ايبان في ٥٤/١١/٣ في مجلس الأمن : « تعترف اسرائيل باتفاقيات الهدنة. وهي مستعدة للاتفاق مع أية دولة عربية ، على أمل تحويل هذا الاتفاق إلى معاهدة دائمة أو تطوير علاقات السلام . »	٥٤/١١/٢ الهجوم على دير عيوب في الأردن ٥٤/١٢/٨ مهاجمة الحدود السورية ٥٥/١/١٢ إدانة لجنة الهدنة	اقتراح الجنرال بيرنز بمنع تسرب الفدائيين رفضته اسرائيل .

كتب موشي دايان في مجلة العلاقات الخارجية في كانون الثاني ١٩٥٥ : « ليست لدى اسرائيل نوايا أو خطط عاوانية ضد البلدان العربية . إنها تقترح معاهدة عدم اعتداء معها كمرحلة أولى في سبيل معاهدة صلح . »	٥٥/٢/٢٨ هجوم على غزة ، إدانة لجنة الهدنة ومجلس الأمن .	٥٥/٧/١٠ صرح موشي دايان لمجلة ها آرتز : « علينا ألا نضيع دقيقة واحدة . علينا أن نعد لمعركة مفتوحة ضد أعدائنا».
اقترحت اسرائيل على رؤساء الدول الكبرى في الأمم المتحدة في دورة نيسان ١٩٥٥ ، عقد مؤتمر على أرفع مستوى مع مصر لدرس الوسائل الفعالة لتحسين أوضاع الحدود .	هجوم على خان يونس ٥٥/٥/٣١ ومقتل ٢٠ مدنياً .	صرح الجنرال بيرنز : « يريد الإسرائيليون صلحاً حسب شروطهم ، وإلا فإنهم يفضلون استمرار سياسة العدوان والتهديد واللجوء إلى القوة .
كتب بن غوريون في جريدة دافار الإسرائيلية بتاريخ ٥٥/٨/١٤ : « علينا أن نحترم اتفاقات الهدنة مع سوريا ومصر والأردن ولبنان ».	٥٥/٧/١٤ هجوم على قرية الغرندال ٥٥/٨/٢٢ احتلال المرتفع ٧٩ في غزة . ٥٥/٨/٣١ هجوم على خان يونس وبني شلا . و ٤٥ قتيلا مدنياً . ٥٥/٩/٢٠ إحتلال قسم من الأرض المجردة من السلاح .	أجاب بن غوريون على مقترحات إيدن في ٥٥٤/٤/١٥ « إن قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين ماتت ودفنت . ولن تبعث . ولن تتبدل الحدود الإسرائيلية إلا بعد فناء شعب اليهود في حرب دموية ، حرب حياة أو موت .
نداء آخر للسلم وجهه بن غوريون في ١٩٦٠/٣/٢٤	اعتداء على التوافيق ، وإدانة مجلس الأمن ٦٢/٣/١٧	

دعوة إلى السلام	إعتداءات	إنذار بالحرب أو اللجوء إلى القوة
أعلن مندوب اسرائيل في الأمم المتحدة أن السلام في الشرق الأوسط قريب جداً ٦٤/٤/٨	١٤ اعتداء ضد سوريا ما بين ٧/١٠ و ١٢/٦٤/١١ في ٦٤/١١/١٣ لأول مرة تلقي طائرات اسرائيل قنابل النابالم على الجبهة السورية .	صرح مدير التدريب العسكري الإسرائيلي في ٦٤/٦/١٥ : « للمناورات القادمة سبعة أهداف . أبرزها الإعداد للحرب » . في ٦٤/٩/١٣ أعلن رابين رئيس أركان الجيش : « ستجد اسرائيل الوسائل لحماية أمنها ولو بالسلاح . »
صرح ليفي أشكول في ٦٤/٤/٩ : « آذاننا منفتحة لسماع الكلام عن السلم . »	١٧ و ٦٤/٢/١٨ الهجوم على الحدود السورية . ٦٤/٣/١٧ هجوم آخر وحشد جيوش . ٦٤/٥/١٣ هجوم على مراكز تحويل المياه في سوريا .	أعلن ليفي أشكول : « ليس للبنان شأن في مشاريع تحويل المياه التي ستكلفه استقلاله .» ٦٥/٣/٢٦ دعا موشي دايان السلطات الإسرائيلية لاتخاذ تدابير عسكرية لمنع العرب من تحويل مجاري مياههم .
صرح ليفي أشكول في ٦٥/٥/١٧ « خطتنا للسلام هي في احترام استقلال وسيادة ووحدة كل دول المنطقة . نريد أن نعيش بسلام ، وعلى علاقات طيبة مع جيراننا . »	في ٦ ، و ١٥ ، و ١٧ و ١٨ و ٦٥/٥/٢٢ هاجمت الجيوش الإسرائيلية مناطق تحويل الموارد المائية على الأراضي السورية . أدينت كل هذه الأعتداءات . ووقعت اعتداءات مماثلة في نفس الفترة على الأردن .	أعلن رابين في ٦٥/٧/١٤ : « إذا استمر لبنان في التحويل ، كان عليه أن يتحمل المسؤولية . »
في ٦٦/١٢/١٣ صرح أبا إيبان أنه متفائل حول إمكانيات السلم في المنطقة .	هجوم على قرية السموع وقتل مائتي مدني .	أعلن أبا إيبان في ٦٦/١٢/١٤ : « إن سياسة المجابهة خير ما تطبقه اسرائيل لتحمي حدودها . »

بقي أن أقول أن المنظمة الصهيونية أعلنت سنة ١٩١٩ أنها « مصممة على العيش بسلام مع الفئات غير اليهودية في فلسطين ». وأعلنت في الوقت نفسه عن إنشاء صندوق يهودي ليجعل أرض فلسطين بأكملها ملكاً للشعب اليهودي ».

وأعتقد أن التصويت الذي جرى في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) في يوم ٩ حزيران ١٩٦٦ هو أصدق تعبير عما ذهبت إليه . جرى هذا التصويت على مشروع قرار هذا نصه : « إن الكنيست يؤمن بالسلام كحل وحيد للنزاع العربي الإسرائيلي ويناشد الحكومة أن تعمل بهذه الروح .» وقد رُفض المشروع بأغلبية ٤٣ صوتاً ضد خمسة واستنكف ٣٢ عن التصويت .

٨

أحدثت هزيمة ١٩٤٨ هزة كبيرة في البلدان العربية خلخلت الأنظمة القائمة وأطاحت ببعضها . واعتبر العرب وخاصة العسكريون ، ان السياسيين هم سبب الهزيمة . وراحت الأقلام تكتب ، والخطباء يتحدثون عن الخيانات المفضوحة ، وكان من نتيجة ذلك ان حصل انقلاب عسكري في سورية يقوده الجنرال حسني الزعيم سنة ١٩٤٩ ، أطاح بحكم الزعامات القديمة . لكن حكمه لم يطل فقتل بنتيجة انقلاب آخر ، وحصلت بعد ذلك عدة انقلابات وعكسها ، لم تكن في حقيقتها غير صراع بين الزعامات القديمة الرجعية وبين اتجاه جديد في البلدان العربية أخذ يتبلور مع الزمن .

في مصر قام الضباط الأحرار بانقلاب ضد العرش ، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٢ .

وفي الجزائر قامت ثورة سنة ١٩٥٤ .

هذه الحركات اتسمت جميعاً بطابع مميز . كانت جميعاً ثورية اشتراكية ، تنادي كلها بالوحدة العربية . وأخذت تتقارب ، بعضها من بعض ، قليلا واتسمت بتصميمها على المطالبة بحقوق بلادها ولو أدى ذلك إلى المغامرة .

وبنتيجة انتهاج سياسة التقارب هذه ان نشأت بين سورية ومصر ، في ١٩ تشرين الأول ١٩٥٥ ، القيادة العليا المشتركة : تلك الاتفاقية التي كانت مقدمة للوحدة بين البلدين . ثم انضم الأردن بعد عام لهذه الاتفاقية .

يقول بن غوريون في كتابه سنوات الكفاح: « مرت اسرائيل في تلك الفترة بأحرج ساعاتها » . ويقول موشيه دايان في كتابه مذكرات حملة سيناء : « وهكذا وجدت اسرائيل نفسها محاطة من جهاتها الثلاث (الجنوب والشرق والشمال) بجيوش عربية ، تحت إمرة موحدة . لذلك لا تشك حكومة اسرائيل بخطط هذا الكيان العدوانية ، ولا بالأهداف المنوطة به . وما كان يجدر بنا أن نضل عن هذه الحقيقة » .

يرى من ذلك ان اسرائيل ترى في أية بداية وحدوية بين العرب خطراً عليها ، والعرب يعتبرون الوحدة غايتهم الأولى . ويظهر من الكتابين ان الاتفاقية التي أشرت اليها كانت من أسباب حرب ١٩٥٦ المباشرة .

أعدت هذه الحرب من الناحية السيكولوجية والدعائية اعداداً مركزاً واتخذ الفدائيون ذريعة لها . وسأعود إلى بحث من هم الفدائيون.

ففي ٤ تشرين الأول ١٩٥٤ أعلنت اسرائيل ان عمليات التخريب التي تنطلق من غزة في ازدياد سريع وضخم .

وفي ١١ تشرين الثاني ١٩٥٤ تقدم الجنرال بيرنز كبير المراقبين الدوليين باقتراح لإنشاء سياج من الشريط على طول خط الهدنة بين مصر واسرائيل ، للقضاء على حوادث « التسلل » . فرفض هذا الاقتراح من جانب اسرائيل .

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٥٤ أعلن شاريت في الكنيست في بيان رسمي عن احتمال شن هجوم مسلح ضد مصر .

وفي ١٩ كانون الثاني ١٩٥٥ أبلغت الحكومة الاسرائيلية كبير المراقبين انها لن تتعاون مع المصريين بأي شكل من الأشكال لحل مشكلة التسلل .

وفي ليل ٢٨–٢٩ شباط ١٩٥٥ قامت كتيبتان من قوات المظليين الاسرائيلية بالهجوم على غزة .

وقامت في تلك الفترة حملة دعائية واسعة تتحدث عن خطر تسلل الفدائيين على دولة اسرائيل . وفي ١٧ كانون الثاني ١٩٥٥ أعلن

رئيس وزارة اسرائيل ان الحدود شهدت فترة من الهدوء النسبي في الأشهر الماضية .

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٥ أعلن بنحاس لافون وزير الدفاع آنئذ أمام الكنيست أن التوتر على الحدود انخفض بشكل حاد في الشهرين الماضيين .

وأعلن موشيه دايان رئيس الأركان العامة للجيش الاسرائيلي آنئذ مقالة نشرت في جريدة « الجروزالم بوست » في كانون الثاني : « انه حصل انخفاض ملموس في التوتر في الأسبوع الأخير وخاصة منذ تعيين الجنرال بيرنز كبير المراقبين » . غير ان موشيه دايان يقول في كتابه : « نتجت حرب سيناء عن تفاقم الصراع بين اسرائيل والعرب لأسباب سياسية وأسباب أمن . يضاف إلى ذلك عزم بريطانيا وفرنسا على فرض رقابة بالقوة على منطقة قناة السويس .

« ودون هذه العملية كان من المشكوك فيه أن تجرد اسرائيل حملتها ؛ ولو فعلت لكان للحملة طابع حربي وسياسي مختلف . » ويضيف بعد ذلك قائلا : إن الأسباب الأساسية للحملة ثلاثة : الاستعدادات المصرية من أجل حرب مفتوحة ضد اسرائيل ، وأعمال الإرهاب التي يقوم بها بعض المدربين العرب ، والحصار المفروض على السفن الاسرائيلية في العقبة .

يبدو في القولين بعض التناقض . فقد كان يشك في امكانية قيام حرب لولا تدخل فرنسا وانكلترا . على أن مقارنة بسيطة في ميزان التسلح حسب قوله تستدعي كثيراً من التفكير من جانب اسرائيل قبل خوض الحرب . فهو يشير في الكتاب إلى أن ميزان التسلح قد احتل في المنطقة بعد ان بدأت مصر وسورية تشتريان الأسلحة من الشرق .

وما كان بوسع العرب أن يعلنوا حرباً على اسرائيل لأن اميركا وانكلترا وفرنسا قد ضمنت حدودها سنة ١٩٥١ (الاتفاق الثلاثي) .

كانت الدول العربية على يقين من أن القيام بمغامرة عسكرية لا يؤدي

إلى أية نتيجة إيجابية ، بل على العكس ، يؤلب عليها قوى دول الاتفاق الثلاثي . فحتّى لو نجحت في مثل تلك المغامرة ، ردتّها الدول الكبرى إلى مواقعها الأصلية .

تحدثت في فصل سابق عن نشأة الفدائيين وعن مؤسسهم القسام . لم تتوقف تلك التنظيمات عن الاستمرار . كانت خلال سنوات الحرب تنمو بطيئة ، واستمرت بعدها ، غير انها كانت أضعف من أن يظهر أثرها إلى جانب المنظمات الصهيونية الكبيرة .

وفي حرب ١٩٤٨ اشترك اعضاؤها في مختلف الجبهات والقطاعات كمتطوعين عاديين . وبعد هذه الحرب ، وبعد ان زالت الزعامات التقليدية ، لم يعد المفتي الأكبر ولا آل النشاشيبي ولا الأحزاب الأخرى غير ذكريات مرة وبات جميع الفلسطينيين تقريباً لاجئين فقط ، طبقة اجتماعية واحدة فقيرة يؤلف بينها البؤس والرجاء بالعودة ذات يوم إلى أرض الوطن .

كانت البلدان العربية التي لجأوا اليها مجال نشاطهم الرئيسي ، كل واحد منهم حسب قدرته واختصاصه ، من الجندي الى الموظف الى الضابط الحربي . لكن هذه النشاطات ظلت ثانوية إلى جانب نشاطهم الرئيسي ، وما كان ذلك إلا لدفع الهيئات السياسية أو العسكرية لتبني قضيتهم . فاشتركت منهم عناصر في كل الانقلابات السورية ، وفي جميع الأحزاب ، وفي الثورة الجزائرية ، وفي كل المنظمات السياسية . ولذلك نرى أن قضية فلسطين تجمع العرب جميعاً رغم كل الخلافات . وبات كل فلسطيني مع الزمن جزءاً من هذا النشاط السري . وكان المحظوظ منهم هو من استطاع أن يكون فدائياً بالفعل.

أما التمويل فيحصلون عليه بوسائلهم . ويجهل عنهم الناس كل شيء إلا ما ارتأوا هم أن يطلعوا الآخرين عليه . وهم يصلون إلى ما يريدون بوسائلهم الخاصة .

اتهمت اسرائيل مصر انها كانت في تلك الفترة تدير عملياتهم

داخل اسرائيل . ومن يتتبع حوادثهم يكتشف ان مصر حاولت السيطرة عليهم والانسياق معهم فترة من اجل ضبطهم . ولكني أقدر أنها لم تستطع كما لم تستطع أية دولة أخرى ، وكما يتبين في الفصول القادمة من الكتاب .

وتذرعت اسرائيل أيضاً بمشكلة تيران . وقد قلت في فصل سابق من الكتاب ان اسرائيل احتلت النقب أبان مفاوضات الهدنة بينها وبين الأردن ، فوصلت بذلك لايلات . لكن المنطقة لم تكن ضمن مخطط التقسيم ولم تعطها اتفاقيات الهدنة الحق في الوصول إلى ذلك المكان . غير انها اعتبرت أن الأمر الواقع هو حدودها ، واعتبرت ان لها كل الحقوق التي يخولها إياها الاحتلال . يقول موشي دايان في كتابه : « بين ١٢ أيلول و ١٠ تشرين الأول ١٩٥٦ ردت وحدات الجيش الاسرائيلي على الاغتيالات التي قام بها الإرهابيون العرب ، وقامت بأربع هجمات ، ونسفت مركزاً للشرطة في الرهاوة ، وغرندال ، وحسين ، وقلقيلية . وكانت خسارتها بين قتلى وجرحى أكثر من مائة ، بينما ارتفع عدد القتلى والجرحى العرب إلى مائتين » .

وأرى من واجبي أن أذكر حادثين انتقاميين آخرين . الأول أترك الحديث عنه للأب رالف غورمان وهو راهب اميركي كاثوليكي : « في ٥ نيسان ١٩٥٦ ، وكان يوم سوق في مدينة غزة ، قصفت السلطات الاسرائيلية المدينة بقنابل المورتر فقتل ٥٦ مدنياً وجرح ١٠٣ انتقاماً لتبادل إطلاق نار عادي . وادعت السلطات الاسرائيلية « ان القصف كان موجهاً ضد مركز القيادة المصرية في غزة » . وعلق على ذلك كبير المراقبين « انه ليس هناك دليل واحد يثبت وجود مثل هذا المركز » .

بقي أن أقول انه في ٤ نيسان أصدر مجلس الأمن قراراً بالاجماع يطلب فيه من الأمين العام للامم المتحدة « بالتوجه إلى فلسطين لاتخاذ الترتيبات اللازمة مع الأطراف المعنية لتبني أي اجراء يخفف من التوتر القائم على خطوط الهدنة » .

في الفترة التي أتحدث عنها لم تكن اسرائيل تشك في تسلل فدائيين من الجبهة السورية ، ومع ذلك هاجمت القوات الاسرائيلية في ١٢ كانون الأول ١٩٥٥ الحدود السورية شمال بحيرة طبرية وأعلن مندوب اسرائيل في مجلس الأمن أن هذا العمل : « كان انتقاماً لمنع السوريين للصيادين الاسرائيليين من الاصطياد في بحيرة طبرية » . وعلى هذا علق الكوماندور هاتشسون أحد مراقبي الأمم المتحدة : « انه لم يكن هناك في الواقع شيء من هذا القبيل » . وأضاف أن الإنسان لا يحتاج لخبرة عسكرية واسعة ليدرك ان هذا العدوان قد جرب ورتب إلى درجة الكمال قبل تنفيذه . لقد كان الاعتداء مدبراً باعثه رغبة اسرائيل في التأكد من قوة ميثاق الدفاع المشترك بين مصر وسورية وفي إعاقة الوحدة العربية وفي دفع الدول العربية إلى عمل مسلح بالقنابل ، يعطي فرصة لاسرائيل لاحتلال مزيد من الأراضي . إن أياً من هذه الأعمال والأهداف لا يمكن أن يكون لأمة راغبة في السلام بإخلاص » .

كان الجو في اسرائيل جواً حربياً ، فقد كتبت « الرسالة الإخبارية اليهودية في ٢ كانون الثاني ١٩٥٦ عنه ما يلي : « إن الحكومة الاسرائيلية تقود مواطنيها إلى حرب حتمية ، وذلك بسبب هستيريا الحرب التي تقودها مدفوعة بموقفها السياسي غير المستعد للتفاوض أو التنازل ، وبسياستها المتعمدة في تنفيذ سلسلة من الحوادث الدموية على الحدود . كل هذا سيؤدي حتماً إلى اشعال الحرب الوقائية التي يريدها بن غوريو ن والماباي » .

وكتبت النشرة نفسها تقول في ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٦ ما يلي : « إن حكومة اسرائيل تتخذ الخطوات التي ستضع البلاد على أساس شن حرب . وقد اتخذت عدة اجراءات لاعلان حالة الطوارىء في البلاد ، ومن بين الإجراءات : تخفيض هائل بعدد المهاجرين من ٤٥ الفاً إلى ٢٠ الفاً ، ووقف إعطاء تأشيرة خروج لكل من هم ضمن السن المؤهل للخدمة العسكرية ، واستدعاء الطلاب الاسرائيليين في الخارج ، وتعبئة الأطباء والمدرسين والممرضات للعمل في المستعمرات

على الحدود ، وزيادة ساعات العمل بالنسبة لموظفي الحكومة ، وإعلان عدم شرعية أي اضراب ، وتجميد أسعار المواد الغذائية . وبالإضافة إلى كل ذلك تشكلت لجنة طوارىء من حزب الماباي برئاسة بنحاس لافون وزير الدفاع السابق المعروف بتطرفه . وقد أصدرت هذه اللجنة نداء الى الامة ، « لدخول حالة من الاستعداد للطوارىء ولاختصار الكماليات وتكثيف برنامج الدفاع المدني » .

وقال بن غوريون في خطاب ألقاه أمام اللجنة التنفيذية للهستدروت : « اسرائيل تهيء نفسها لدعوة ٢٥٠ الف رجل في حالة الحرب مقابل ١٠٠ الف اشتركوا في حرب ١٩٤٨ » . وقال في كتابه « سنوات التحدي » : « لقد اقتنعت بأن الحرب حتمية مع العرب وقد عبرت عن وجهة النظر هذه باسم أعضاء الحكومة إلى الكنيست في أوائل كانون الثاني ١٩٥٦ . وقلت بأن علينا أن نوجه نداء إلى الأمة ندعوها فيه لاتخاذ جهد تطوعي ومركز لتقوية قدرتنا العسكرية ورفع الروح المعنوية لتحصيناتنا على الحدود ولضبط اقتصادنا » .

وكتبت نشرة « الرسالة الإخبارية اليهودية » في ١٢ آذار ١٩٥٦ تقول : « إن الخوف من الحرب لا يعبر عنه بصراحة في الصحف أو في مجالس النقاش العامة أو الخاصة . والناس يعتمدون تجنب الحديث عن الحرب ، لكنها في الهواء . وأي إنسان يتوفر عنده إحساس بسيط ويقضي أياماً قليلة في اسرائيل ، يستطيع أن يشعر بالحرب . بها ، وذلك في الأعصاب المشدودة والمتوترة لراكبي الأوتوبيس ما أن يتركوا المدينة ، وفي التوتر المكبوت بين الناس ، وفي الشوفينية العدوانية ، وفي تأليه الذات التي تجعل الاسرائيلي العادي أعمى ، وفي ارتفاع حمى الحرب ، وفي الاستعداد العسكري الفعال الواضح في كل المجالات » .

أما الجو في البلدان العربية فلم يكن في أي حال جواً حربياً . ففي سورية كان التناقض على أشده بين الجيش والحكم ، رغم المظاهر . وعاد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية ، وأخذ الضباط ، وبخاصة الصغار منهم ، يوجهون انتقادات كثيرة إلى الحكم الذي سمي بحكم

التجمع الائتلافي ، المهدد بصورة مستمرة بالسقوط . ولم تكن قيادة الجيش تؤمن بأن مثل هذا الحكم قادر على الثبات أمام هزة قوية .

أما عبد الناصر فقد كان يعاني صعوبات كثيرة تمنعه عن التفكير بحرب ، حتى لو شاء .

فقد قام بانقلابه ضد فاروق سنة ١٩٥٢ ، فجابه مشاكل داخلية لاحصر لها ، وبخاصة مع الذين شاركوا بالانقلاب ومع الاخوان المسلمين. وقامت ضده سلسلة من المحاولات الانقلابية ، ولم يستتب له الحكم إلا في شباط ١٩٥٤ عندما نحى اللواء نجيب عن الحكم .

كان عليه إنقاذ مصر من تركة فاروق المثقلة . كان يحلم بإقامة السد العالي والأنتصار على الصحراء الواسعة بمياه النيل . وكان يفاوض اميركا والبنك الدولي فلا يصل إلى نتيجة .

وفوق كل هذا ، كان عليه تصفية الاستعمار البريطاني واسترداد حقوق مصر بقناة السويس . ومصر لم تكن حرة حتى تموز ١٩٥٦ ، أي عشية حرب السويس .

ومن يتتبع بدقة حرب السويس ير ان الاستعداد لم يكن في مصر لحرب كلاسيكية ، وإنما لحرب عصابات ، كما ثبت بعد ذلك في معركة بور سعيد .

ففي ٢٦ تموز ١٩٥٦ أعلن عبد الناصر في اجتماع شعبي كبير تأميم القناة ، فاستقبلت الجماهير العربية النبأ بحماسة شديدة ، وانتقل عبد الناصر من ضابط مصري شاب جريء إلى بطل قومي ، ذلك انه جابه الاستعمار البريطاني في أهم شريان من عروق جسده ، ولم يكن يجهل أحد خطورة المغامرة .

وقد ثبت فيما بعد أن التأميم كان معداً ومدروساً ضمن حلقة ضيقة من المسؤولين في مصر ، لكنه كان معداً كما ينبغي ، ولذلك كان مفاجأة كبرى للعالم جميعاً .

وبدأت انكلترا تعد العدة لاستعادة القناة بأيه وسيلة ، مستخدمة كل الأساليب . ذلك أن القناعة في مختلف المحافل الدولية أعطت مصر

الحق بشكل أو آخر؛ وفي نفس الوقت كانت اسرائيل تعد العدة للحرب، فاتصلت بفرنسا من أجل القيام بعملية مشتركة، وببريطانيا التي كانت تحضر نفسها لحرب مع مصر. وكان لكل من الدول الثلاث أهداف مختلفة، لكنها اتفقت فيما بينها على القيام بعملية عسكرية.

وكانت بعض الأوساط في فرنسا ترى ان الثورة في الجزائر لم تكن لتستمر لولا حكم عبد الناصر في مصر، وأخذت تلك الأوساط تنادي بضرورة القضاء عليه.

يقول الجنرال بوفر: «مما لا شك فيه ان هدف فرنسا هو عبد الناصر، فثورته تهدف إلى بعث الثورة العربية ووحدة العرب. يجب القضاء على الجيش المصري وبلوغ القاهرة.»

وارتأى الفرنسيون على الانكليز عملية إنزال بالاسكندرية تتجه إلى القاهرة وتستولي عليها. غير ان الحكم في فرنسا كانت تسيطر عليه أهواء كثيرة، فكان غير مستقر، وغير علمي في نظرته إلى نمو القومية العربية. فحركة الوحدة وجدت قبل عبد الناصر، وستستمر بعده. وكان من نتيجة ضعف الحكم في فرنسا، أن ترك المسؤولون فيها آنئذ قيادة العجلة لبريطانيا في الميدانين السياسي والعسكري.

وكانت بريطانيا تريد ربح المعركة السياسية أولا، وان تكون العملية محدودة في القناة ذاتها فلا تتعداها، وكان أمامها معركة سياسية دقيقة.

وكان المستر ايدن يريد أن يستحصل على قرار من محكمة العدل العليا أو الأمم المتحدة يدين عبد الناصر بالعدوان، ففشل. وأراد أن يقوم بالعملية بعد أن يحصل على موافقة الولايات المتحدة ودعمها الأدبي، ففشل أيضاً. وحاول بتدبير من مكتب المستعمرات أن يهيء عمليات فدائية، تدفع عبد الناصر للقيام بعملية عسكرية ضد اسرائيل، فتتدخل فرنسا وبريطانيا باسم الاتفاق الثلاثي المعلن سنة ١٩٥١ لضمان حدود اسرائيل [١]. غير ان هذه الخطط فشلت جميعاً ولم يبق أمامه إلا أن

(١) حملة السويس، الجنرال بوفر، ص ١٢٠.

تهاجم اسرائيل مصر بحجة التوتر على الحدود ، فتتدخل بريطانيا وفرنسا بحجة دعمها والمحافظة على القناة بعملية انزال هناك .

كان عبد الناصر يقدر أن فرنسا وانكلترا لن تقوما بتلك العملية ، فلم يهتم بالتهديدات المستمرة . ذلك انه كان يقدر بعد فشل انكلترا السياسي أن الرأي العام الدولي لا يسمح بمثل تلك العملية ، وانه ربح جولة القناة الأولى . وكان يدرك بما لديه من معلومات ان اسرائيل تستعد لمغامرة عسكرية ، فترك قواه الرئيسية في سيناء . وكانت الحكومة الفرنسية تضغط على انكلترا للاستعجال ، وهذه تتردد .

ورأت اسرائيل في ذلك فرصة ذهبية تمكنها من الاستيلاء على شريط غزة وسيناء بعملية عسكرية سريعة . ثم تنتظر نهاية معركة سياسية طويلة تجعل من احتلالها تلك المناطق أمراً واقعاً .

وكان الجيش المصري مؤلفاً من خمس فرق ، إحداها مصفحة ، ومنها فرقتان في قطاع غزة وسيناء .

وفي ٢٩ اكتوبر تحركت القطعات الاسرائيلية ضد الجيش المصري وبدأت هجومها بعملية كفر قاسم الموجودة في المثلث الصغير على الحدود الأردنية الاسرائيلية ، فأعدمت ٥١ مدنياً ، بينهم الرجل والمرأة والطفل .

وهاجمت القوات الاسرائيلية « ميتلا » فتكبدت خسائر جسيمة ولم تستطع تجاوزها ، ثم رفح والعريش ، غير أن المقاومة كانت شديدة ولم تستطع القوات الاسرائيلية احتلال أي موقع .

بدأت القوات السورية والأردنية بالحشد على الحدود ، بانتظار أوامر القيادة المشتركة للتحرك .

وفي ٣٠ اكتوبر تلقى عبد الناصر الانذار الفرنسي البريطاني فلم يحفل به .

وفي ٣١ اكتوبر هاجم الطيران الانكليزي الفرنسي مطارات مصر فأصدر عبد الناصر أوامره للقوات المصرية الموجودة في غزة وسيناء بالانسحاب السريع والارتداد إلى القناة ، كما أبلغ الجيشين السوري

والأردني بعدم الحركة . وبدأ عبد الناصر يعد حرب مقاومة شعبية فطلب من الجيش السوري أن يفجر أنابيب البترول ففعل .

وأرسل إيدن إلى الجنرال ايزنهاور يطلب دعمه ، فكان الجواب ان طلب منه وقف إطلاق النار . وطرح مندوب اميركا في مجلس الأمن مشروعاً بوقف إطلاق النار فدعمه المندوب السوفيتي ، فاضطرت فرنسا وانكلترا للفيتو . وعلى ذلك دعت يوغوسلافيا إلى عرض الموضوع على الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١ تشرين الثاني ، فصوتت الجمعية على قرار يقضي بوقف القتال وبإرسال قوة من البوليس الدولي للشرق الأوسط . ثم تأزم الوضع بانكلترا ذاتها ، فهاجمت المعارضة الحكومة هجوماً عنيفاً واستقال الوزير ناتنغ .

وأعلنت واشنطن انها « اتخذت بالاتفاق مع الاتحاد السوفياتي التدابير العاجلة الحاسمة الكفيلة بوضع حد للعدوان ومنع الحرب » .

كانت هذه الحرب سياسية عسكرية . ولقد ربحها عبد الناصر بقدرته على المقاومة وذكائه ، فأعطى العرب أملا كبيراً وثقة بأنفسهم. وهكذا خرج منها زعيم العرب الأول .

أما اسرائيل فوصمتها هذه الحرب بالعدوان ، وأمرتها الأمم المتحدة بسحب قواتها على ألا تستفيد من نتائج هذا العدوان .

ولم تسمح اسرائيل لقوات الأمم المتحدة بالعمل ضمن حدودها بينما سمح لها عبد الناصر ، شريطة أن تنسحب في الوقت الذي يطلب منها ذلك .

وأقامت تلك القوات الدولية في شرم الشيخ ، مما مكن السفن الاسرائيلية من العبور بحرية في مضيق تيران .

وأعلنت مصر في ١٩٥٨ ان اسرائيل إذا عبرت لوجود قوات الأمم المتحدة هناك ، فلا يعني ذلك ان هذا حق لها ، ما دام مضيق تيران هو من الجانبين أرضاً مصرية ، وما دامت مصر في حالة حرب مع اسرائيل . ولا ننس أن انكلترا منعت السفن الألمانية من عبور السويس في الحربين ، كما ان الولايات المتحدة منعت بواخر الصين الشعبية

من بناما .

وكتب إيدن إلى ايزنهاور يقول له : « إن قراره ليس سوى وضع اليد على القنال بانتظار وصول قوات الأمم المتحدة » .

وفي ٥ نوفمبر ، وبعد تمهيد طويل ، بدأت عملية الإنزال الفرنسية الانكليزية حول القنال : الفرنسيون على الجانب الشرقي والانكليز على الجانب الغربي .

واستطاع الفرنسيون الاستيلاء على مدينة بور فؤاد الصغيرة ، وأخذت القوات الانكليزية تهاجم بور سعيد ، ثم بدأت عمليات الإنزال والمقاومة الشعبية بعد أن وزع الجيش المصري السلاح على السكان .

ووجدت القوات الانكليزية ان ميناء بور سعيد لم يكن ملغوماً ، مما يدل على عدم الاستعداد . واستطاع الانكليز احتلال جزء من المدينة في ٥ و ٦ نوفمبر . ثم بدأت المقاومة الفعلية في ٧ منه وأخذت تشتد حتى بلغت الذروة في ١٣ منه ، عندما اضطرت القوات البريطانية للتراجع والتزام الدفاع .

وفي ٢٢ نوفمبر انسحبت القوات الفرنسية والانكليزية وتركت مكانها لقوات الأمم المتحدة، مع انها كانت تهيء لهجوم كبير في ٢٤ منه.

كان العامل الحاسم في نهاية تلك الحرب الرسائل التي بعث بها ، في ٥ نوفمبر ، المارشال بولغانين إلى باريس ولندن وتل ابيب وواشنطن يقول فيها : « من واجبي أن أبلغكم ان حكومة الاتحاد السوفيتي قد قررت قراراً حاسماً استخدام القوة للقضاء على المعتدي وإعادة السلام إلى الشرق الأوسط » .

وعادت الأوضاع بين البلدان العربية واسرائيل إلى سابق عهدها : حالة حرب اوقفت عملياتها هدنة لم تتحول إلى سلم ، تتعقد مشاكلها يوماً بعد يوم . واستمرت اسرائيل على تشجيع الهجرة .

٩

سنة ١٩٤٦ أي بعد الاستقلال ظهر في الأوساط الحكومية السورية ميل إلى تخفيض الجيش ، والاكتفاء بقوة بوليسية في سورية من أجل الأمن فقط . ذلك ان بعض المسؤولين اهتموا بالتنمية قبل كل شيء ورأوا أن أعباءها المادية كثيرة وفضلوا الإنفاق على مشاريع تطوير الزراعة والتعليم ثم البدء بالتصنيع .

عندما بدأت معركة فلسطين الأولى ١٩٤٨ كان تعداد الجيش السوري كالتالي : القوة البشرية ٨٤٦٠ ، بما فيهم حرس الحدود والكلية العسكرية ، والتسليح ٩٠٠٠ بندقية قديمة . والرشاشات ٥٢٠ .

كانت هذه الاسلحة قديمة قليلة الذخيرة .

كانت الدول العربية تشتري سلاحها من الغرب ولا تجرؤ على استقدامه من الشرق لأن الدول الغربية لم تكن تسمح لها بذلك ، وكانت الحكومات جميعاً مرتبطة بشكل أو آخر بالغرب .

ولم تكن مصر حتى ذلك الوقت مستقلة ولا الأردن ولا العراق استقلالا تاماً . وكانت سورية ولبنان خاضعتين للنفوذ الغربي . وارتبطت معركة التسلح بمعركة التحرر .

وسنة ١٩٥٠ صدر البيان الثلاثي الذي وقعه وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، الذي تعهد بحماية الحدود الحاضرة بين الدول العربية واسرائيل والمحافظة على الهدنة . وأعربت الدول الموقعة عن استعدادها لبيع الدول العربية واسرائيل السلاح لحماية نفسها وضمان أمنها وسلامتها . واشترط البيان ألا يستعمل هذا السلاح ضد أحد

من الطرفين .

ودرجت السياسة الغربية على سياسة التوازن ، تعطي لاسرائيل ما تعطيه للبلدان العربية مجتمعة ، على شرط ألا يستعمل ضد اسرائيل .

كانت الدول الغربية في حرج ، تريد من جهة تسليح البلدان العربية لتجعل منها قاعدة انطلاق ومرور ضد الاتحاد السوفيتي في حرب ممكنة ، ولا تريد من جهة ثانية أن يختل توازن القوى بينها وبين اسرائيل . واستفادت من ذلك اسرائيل لأنها تتمتع بأفضليات تجعل توازن التسلح لمصلحتها : وحدة القيادة ، سهولة الحركة ، تدريب مستمر ، إمكانية استقدام العناصر الضرورية في الفترة التي تريد .

وأرادت أميركا ربط البلدان العربية بحلف المعاهدة المركزية (السنتو) الذي تبنت مشروعه الولايات المتحدة وجاء في أعقاب البيان الثلاثي .

حتى سنة ١٩٥٥ كان السلاح العربي بمجموعه غربياً وكان دائماً سلاحاً مشروطاً : باعت بريطانيا لمصر ٤٠ دبابة بدون ذخيرة ، واشترطت فرنسا على مصر أن تتخلى عن ثوار الجزائر ، واشترطت الولايات المتحدة دخول مصر في حلف السنتو وقبول لجنة اميركية تتولى الإشراف على الكيفية التي يستخدم فيها السلاح .

وقد لاحظنا من الفصول السابقة ان تلك الفترة كانت قلقة على الحدود المصرية الاسرائيلية ، فكان لا بد للدول العربية من أن تبحث عن طريقة لشراء السلاح دون شروط . وهكذا أعلن عبد الناصر سنة ١٩٥٥ عن الاتجاه للشرق في التسلح ، فقامت دعوة في الغرب عن تدخل الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط وعن خطر اتجاه شيوعي فيه ، وعن التسرب الشيوعي للمنطقة .

ولوحظ في تلك الفترة محاولات كثيرة في مصر للاطاحة بحكم عبد الناصر . وتعددت المؤامرات ضده ، كما كثرت الاعتداءات الاسرائيلية التي أشرت اليها في فصل سابق ، وجاءت حرب السويس كي لا تتيح لمصر الفرصة لإعداد نفسها .

وبدأت سورية أيضاً بشراء السلاح من الاتحاد السوفيتي . وشهدت في تلك الأثناء أكثر الفترات خصباً بالمؤامرات الداخلية ، ولكن الشعب في مصر وسورية وجد في هذه الخطوة ظفراً سياسياً وعملا تحررياً قوى حكم عبد الناصر في مصر والحكم في سورية .

وحصلت مصر على طائرات ميغ وقاذفات أليوشن ، كما حصل الجيش السوري على التسلح اللازم له .

وأخذت دول الغرب تسلح اسرائيل بحيث لا يختل التوازن . فكلما اشترت الدول العربية كمية ، حصلت اسرائيل على ما يعادلها . وأخذت نسبة التسلح تزداد في الميزانيات العربية فوصلت إلى ٦٣٪ في سورية . لكن المنطقة نعمت بفترة هدوء نسبية حتى جاءت الاتفاقية المعقودة سنة ١٩٦٠ بين الحكومة الألمانية واسرائيل ، التي احيطت بالسرية الكاملة .

عقد الاتفاق بين الرئيس اديناور وبن غوريون في نيويورك لا المانيا ، وهو أمر يخالف السياسة الألمانية الغربية التي أعلنت في بيان رسمي في ٢٧ كانون الأول ١٩٥٧ عن قرارها بعدم ارسال الأسلحة إلى مناطق التوتر ، كما نصت اتفاقية التعويضات سنة ١٩٥٣ على ان الأسلحة ليست مما تصدره المانيا لاسرائيل .

أرادت الحكومة الألمانية أن تكفر عما اقترفه بعض الألمان ضد اليهود أبان الحرب بتعويضات مالية ... ذلك شيء له مبرراته . أما أن تشتري المانيا جريمة بعض الألمان بتعويض من دم العرب ، فذلك شيء صعب فهمه : التكفير عن الجريمة لا يكون بجريمة أخرى ، كما لا يجب أن يحل محل معسكر اعتقال في الأرض الألمانية معسكر لاجئين على الأرض العربية ، وبحجة التكفير عن الخطايا .

وهنا اعطي مقارنة عن وضع التسلح الاسرائيلي والدول العربية التي اشتركت في معركة ٥ حزيران . لكنها تظل معلومات تقريبية ، والإحصاءات متناقضة ، غير ان التحليل يمكن أن يوصلنا إلى نتائج معقولة : تستطيع اسرائيل خلال ٤٨ ساعة حشد ٣٠٠ الف جندي

وهي من أكثر دول العالم تقدماً من هذه الناحية . جيشها مدرب تدريباً جيداً وحديثاً : استطاعته العلمية من ناحية المختبرات ودور الصيانة الحربية راقية جداً : جهاز الاستخبارات عندها متشعب ونام ، تعتمد فيه على أعضاء الحركة الصهيونية المنبثين في العالم كله . وقد استطاعت جذب عدد كبير من اليهود من مختلف الجنسيات يدينون لها بالولاء قبل الدولة التي يحملون جنسيتها . وقد ظهر في معركة ٥ حزيران ان الاستخبارات الاسرائيلية كانت من الدقة بحيث تستلفت النظر . عدد الدبابات يقدر بـ ١٤٠٠ ، منها ٦٠٠ المانية طراز م ٤٨ ، و ٢٠٠ باتون ، والباقي دبابات فرنسية خفيفة وسنتوريون وشيرمان . وقدر عدد الطائرات بـ ٨٠٠ ، والقطع البحرية بـ ٢٠ .

وكان جيش الجمهورية العربية المتحدة يقدر بـ ١٠٠ الف جندي . والدبابات بـ ٦٠٠ والطيران بـ ٣٢٥ تقريباً من مختلف الأنواع . منها ٥٠ ميغ و ٣١٧ لم تكن صالحة ساعة المعركة .

وكان جيش الجمهورية العربية السورية ٥٠ الفاً ، والعراق ٧٠ الفاً ، والأردن ٢٥ الفاً .

وكان الاحتياطي في الجمهورية العربية المتحدة وسورية ضخم . دربت سورية بعد سنة ١٩٤٩ ما يزيد على ٤٠٠ الف جندي ، غير ان طاقتها الاقتصادية لا تمكنها من استخدام هذا العدد في حالة حرب .

وتبلغ نسبة التسلح للميزانية في العربية المتحدة ٣٠٪ (٤٣٧ مليون دولار) ، وفي سورية ٦٣٪ ، في الأردن ٦٠٪ ، أما بالنسبة لاسرائيل فهي تعتمد أولا وآخراً في ميزانيتها العادية وفي تسلحها على المساعدات التي تأتيها من أعضاء الحركة الصهيونية في العالم .

أخذ الوضع الاقتصادي بعد حرب السويس يتحسن في البلدان العربية : في سورية نمت زراعة القطن نمواً مطرداً حتى بلغت ثلث إنتاج مصر منه ، وأقيمت فيها سدود على نهر العاصي ، وقامت مشاريع أخرى بالغة الأهمية مثل مشروع الغاب ، وأخذت البلاد تتصنع . وفي ١٩٦٥ وقعت مع الاتحاد السوفياتي اتفاقية سد الفرات ، كما اعلنت

تأميم البترول ، وأخذت تجهد في استثماره وسيصبح جاهزاً للتصدير في مطلع ١٩٦٨ .

وفي العربية المتحدة حركة إنماء هائلة : السد العالي انتهت منه مرحلتان ، وحركة الصناعة نامية مطردة ، والسياحة باتت مورداً هاماً : ففي سنة ١٩٦٤ أخذت مصر تبني كل شهر فندقاً جديداً . وظهر انها تملك في أرضها ثروة بترولية .

أما اسرائيل فقد أخذت تعاني ضائقة اقتصادية بعد أن ركد حماس المتبرعين لها وانتهت التعويضات الألمانية وخفت الهجرة اليها . وبلغ عدد العاطلين عن العمل فيها ٩٩ الفاً ، من أصل ٩٥٣ الفاً ، أي بنسبة ١٠،٣٪ في أواخر سنة ١٩٦٦ .

ومنذ أوائل نيسان ١٩٦٧ تعددت الاضرابات في اسرائيل احتجاجاً على طرد العمال والموظفين ، أو مطالبة بالعمل والخبز ، وتكررت الحوادث بين المتظاهرين والشرطة وتعددت حوادث الإفلاس .

تقول مجلة « هاعولام هازيه » : انه قد اتضح في هذا الأسبوع بشكل لا يقبل الجدل ان الإشراف على بنك اسرائيل ما هو إلا خديعة كبرى ، الأمر الذي اتضح من خلال افلاس مصرفي « فويختفانجر واليرن » و « كريدي » ، رغم المحاولات الفاشلة التي بذلها بنك اسرائيل لمساعدة مصرف كريدي .

وكثرت حوادث الإفلاس الاحتيالي . تقول صحيفة ها آرتس في ١٧ أيار ١٩٦٧ بأن إدارة « التحقيق الاقتصادي في دائرة الشرطة العامة ، كانت تصادف عشرة إفلاسات تحمل المسؤولية الجزائية سنوياً ، في حين صادفت في الأشهر الأربعة الأولى من عام ١٩٦٧ ثلاثين إفلاساً جزائياً ، وان العدد في ازدياد مستمر » .

واوضح التقرير المالي للمحاسب العام في اسرائيل ان عجز ميزانية الدولة خلال الأشهر التسعة الأولى من السنة المالية ١٩٦٦ — ١٩٦٧ ، بلغ ٣٧٢ مليون ليرة اسرائيلية وان المصروفات زادت عما كانت عليه في العام الماضي مبلغ ٤٤٨ مليون ليرة اسرائيلية . فبلغت الزيادة في

ميزانية الدفاع وحدها ١٠١ مليون ليرة اسرائيلية . وصرح اشكول ان العجز في ميزانية ١٩٦٦ – ١٩٦٧ قد بلغ ٤٠٠ مليون ليرة اسرائيلية .

وكتبت مجلة اكسبرس الفرنسية في شهر نيسان ١٩٦٧ مقالا تصف فيه الوضع الاقتصادي في اسرائيل ، جاء فيه : « لقد أفلست بنوك في اسرائيل ، وأقفلت المعامل أبوابها ، وأصبح العشرات من العمال بدون عمل . إذن ، فهناك حادث مريع يجتاح الحياة في الدولة الاسرائيلية للمرة الأولى في السنوات الأخيرة ، فسيل الهجرة يتوقف إلى اسرائيل وفي الوقت نفسه يتدفق سيل الهجرة منها . ففي كل شهر يهاجر من اسرائيل آلاف الأشخاص هم في غالبيتهم من المهندسين والفنيين ويهيمون في الخارج ، بحثاً عن العمل . وقد استبدت الأزمات الاجتماعية ، واتخذت أشكالا رهيبة ، من مظاهرها ما تشهده المدن الاسرائيلية من مظاهرات تجتاحها صباح مساء ، كرد فعل للجوع الذي راح يعض جميع الكادحين الاسرائيليين بنابه . »

ثم ازدادت الجرائم الاقتصادية ، مما حمل المفتش العام للسجون ، السيد ريس ينر ، على التصريح بقوله « لم تبق أماكن في السجون لاستيعاب موجة الزائرين الجدد » .

كان على اسرائيل أن تجد حلا ، ذلك أن الأرض التي كانت تحتلها حتى حزيران كانت غير كافية لاعاشة كل مواطنيها .

ذلك هو سبب الحرب الحقيقية .

كان سهلا دائماً عبر التاريخ على الشعوب أن تجد السبب المباشر للحرب ، فتتخذه ذريعة . لكن هذا لم يكن في أي حرب سببا حقيقيا : لقد أدارت اسرائيل معركة الاعلام بحذق دقيق وذكاء ، واستخدمت بعض الأقوال العربية بشكل مشوش ، فظهرت وكأنها معتدى عليها .

سئل عبد الناصر قبل الحرب مباشرة في مؤتمر صحفي : ماذا تفعلون إذا اعتدت عليكم اسرائيل فأجاب : لن نعتدي عليها ، أما إذا اعتدت علينا فسنحطمها . وظهرت الصحف في اليوم التالي في العالم بمانشيتات كبيرة تشير إلى أن العرب يريدون تحطيم اسرائيل .

وصرح أحمد الشقيري قائلا : سنحطم اسرائيل ، وإذا بالشقيري يقفز دفعة واحدة من شخص عادي إلى مسؤول كبير ، وناطق باسم العرب ، مع انه لا يملك الحق بالتصريح حتى باسم الفلسطينيين الذين يتهمونه اتهامات كثيرة . وقد لاقى تصرفه من الاستهجان عند العرب أكثر مما لاقى في اوروبا .

ومنذ بداية ١٩٦٧ شهدت اسرائيل نشاطاً كبيراً وزيارات أميركية بصورة خاصة ، وشنت حملة دعائية كبيرة ضد الفدائيين الفلسطينيين . وأخذت التهديدات تتكرر . وصرح رابين بتاريخ ١٢ أيار ١٩٦٧ : إننا سنشن هجوماً خاطفاً على سورية وسنحتل دمشق ونسقط نظام الحكم فيها ، ثم نعود .

وهددت اسرائيل لبنان والأردن أيضاً . واتخذت الدول العربية مقررات في أروقة الجامعة العربية لمنع الفدائيين من القيام بنشاطهم ، وخاصة في لبنان والأردن ، لكن دون جدوى ، لسبب سياسة اسرائيل المتعمدة في خلق سلسلة من الحوادث الدموية على الحدود ، كذريعة لإشعال الحرب الوقائية التي يريدها بن غوريون والماباي .

١٠

قيل لنا : « لا تبدأوا بإطلاق النار ! » كل الدول الكبرى على اتفاق حول هذه النقطة . على ان هذا التحذير كان يخفي تهديداً عرف العرب كيف يفضحونه .

لقد طلب من العرب هذا المطلب ، كما لو كانوا هم الذين يعدون للمعركة ويسعون اليها. بيد ان الخيار لم يكن لنا . كنا نحدس أن نار الحرب تحت الرماد . ولما شعر زعماء العرب أن التهديد حقيقي ، دعوا الشعب إلى الاستعداد . وكان أملنا بالنصر ضعيفاً جداً . ومع ذلك فقد فسر استعدادنا على انه مبادأة بالعدوان .

يزعم بعضهم اننا لم نكن على علم بقوى العدو . لا أنكر اننا لم نكن نقيمها حسب حجمها الحقيقي ، لكننا كنا نعلم أن الأعداء أقوى منا وأكثر استعداداً .

أسوق هنا بعض الوقائع التي لا تدع مجالا للشك في ما قلت .

قامت في سوريا ، في ٨ آذار ١٩٦٣ ، ثورة ضد حكم قائم ، وحل محله حكم جديد ، تسلم السلطة فيه حزب البعث . وانتخبت في هذه الفترة عضواً في قيادة الحزب القطرية ، وعينت وزيراً للثقافة والإرشاد والاعلام ، وعضواً في مجلس قيادة الثورة ، وناطقاً رسمياً باسم هذا المجلس . وكانت مسؤوليات المجلس فوق الطاقة . فقد وجدنا سوريا معزولة سياسياً عن العالم أجمع ، وخاصة عن العالم العربي . وكان علينا أن نضع برنامجاً سياسياً لننهي العزلة .

القينا على أنفسنا أسئلة كثيرة ، وناقشنا كل القضايا ، ومن بينها

القضية الفلسطينية التي كانت دائماً محور السياسة العربية الرئيسي والأساسي ، وخاصة الدول المتاخمة لاسرائيل . وفي وعينا انها أخطر القضايا ، فهي مكمن خطر كبير ، كما هي مصدر خوف جماهيري .

ولأعطي فكرة عن موقف سوريا تجاه هذه القضية ، يكفي أن أنوه بأن ٦٣٪ من الميزانية مكرس للتسلح ، مما يشكل نسبة ضخمة بالقياس إلى بلد في طريق التنمية . سألنا أنفسنا هذا السؤال الدقيق : « ماذا نفعل لو هاجمتنا اسرائيل ؟ » طلبنا أدق المعلومات السرية لنستطيع تقييم قوة العدو وقوتنا . وفوجئنا بالفرق الشاسع بين القوتين . وقدرنا ان الجيش السوري ، رغم تسلحه الجيد ، وتمرسه وشجاعته ، ليس في وضع يسمح له أن يصمد أكثر من ساعات أمام أي هجوم اسرائيلي .

وثمة واقعة أخرى تبدو لي ذات أهمية .

في ١٧ نيسان ١٩٦٣ عقد في القاهرة ميثاق لتحقيق اتحاد فدرالي بين مصر والعراق وسوريا ، وقعته وفود الدول الثلاث . وأذكر ان صديقاً لي من أعضاء الوفد السوري ، قال لي في تلك المناسبة : « سأكون جد فخور حين أقول لابني الوحيد : كنت واحداً ممن وقعوا الميثاق الذي وحد بين أربعين مليون عربي ! » وكنا نحن في سوريا نعول كثيراً على هذه الوحدة .

وفي ٩ تموز ١٩٦٣ قدم المهدي بن بركة إلى دمشق ليتصل بالمسؤولين على وجه السرعة . وطلب مقابلتي شخصياً . وقال لي : « يريد الرئيس عبد الناصر الإنسحاب من ميثاق ١٧ نيسان » . كان ذلك أعظم وأشمل خيبة أمل لدى السوريين جميعاً ، بل كان خطراً يتهدد تطلعنا القومي ، فاجتمع مجلس قيادة الثورة رأساً ، وقرر أن أن يرسل إلى القاهرة وفداً مؤلفاً من ثلاثة عسكريين ، ومني .

وصباح ١٨ تموز ، غادرت الطائرة بنا دمشق إلى القاهرة . وبعد أربعين دقيقة من اقلاعها ، قامت محاولة فاشلة لقلب نظام الحكم في دمشق ، يقودها صديق للرئيس ، هو الكولونيل جاسم علوان . كان الرئيس عبد الناصر حزيناً ، لأنه كان في خشية على أصدقائه ...

وأنا أعرف أن عبد الناصر يحب أصدقاءه .

لقيت الرئيس عبد الناصر مراراً ، وفي مناسبات استثنائية ، مما جعلني أعرفه وأفهمه . في ساعات الأسى والضيق ، وحين تعكس المرارة الإنسانية ظلالها على عينيه المتوقدتين ، يتكلم كثيراً ، ويقول كل ما يخفيه في الحالات العادية ، ويقول آراءه بصراحة نادرة .

استمر النقاش من السابعة مساء حتّى الخامسة صباحاً . واستؤنف في الثامنة والنصف صباحاً ، ولم ينته إلا في الثانية عشرة والنصف . استعرضنا كل القضايا العربية ، وكل المواضيع التي تستحوز على اهتمام شعبنا . سأله أحد الضباط السوريين هذا السؤال : « ما رأيك ، سيدي الرئيس ، في حرب قد تقع مع اسرائيل ؟ نحن ، السوريين ، نعتقد انها تعد لحرب ! » قال الرئيس : « ليس لنا إلا أن ندافع ! وإذا شئنا أن ننتصر ، فإن علينا أن نملك قدرنا ، وأن نحدد مكان المعركة وزمانها ! »

قد يبدو هذا الجواب طبيعياً في نظر الأوروبي . لكنه لم يكن كذلك في نظرنا . وحتّى يستطيع الأوروبي فهم ما أردت أن أقول ، لا بد له أن يتصور عنفوان الضابط السوري ، والأفكار التي رسختها فيه سياسات ديماغوجية خلال عشرين عاماً متعاقبة . كان أي زعيم آخر يختار جواباً سياسياً ، أما عبد الناصر فقد اختار أن يكون واضحاً وشريفاً . كنت أحدق في عينيه اللتين ما أن تلمعا بذلك البريق حتّى يسيطر على محدثه ويكاد يشله . كانتا صافيتين ساهمتين ، تستطلعان آفاقاً أخرى . وخيل إلي انه كان يحدث نفسه ، وكأنه لم يكن ينظر إلى أي منا .

سأسوق واقعة أخرى ، علّها أكثر تعبيراً .

حضر الزعماء العرب عدة مؤتمرات قمة ، بقصد مواجهة قضية فلسطين متحدين ، ومن تلك المؤتمرات مؤتمر الدار البيضاء . تحدثوا هناك عن تحويل مجرى نهر الأردن ، وعن عزم اسرائيل على إعلان الحرب ضدنا . أبدى كثيرون حماسة عظيمة ، مكبرين الكرامة القومية ، منتشين بحمية المنطلقات الرومنطيقية ، ثم جاء دور العسكريين . فقدم

الجنرال علي علي عامر تقريره . فنظر كل من الزعماء إلى أخيه ، في خيبة أمل كبرى ! كان عليهم أن يواجهوا الحقيقة المرة . إنهم قادة شعب من مائة مليون عربي ، غير مسلحين تقريباً، ضد دولة من مليونين ونصف مليون ، مسلحين كامل التسلح !

ثم قدم الجنرال علي علي عامر بيانه الحربي فقال : « إذا تحملت الدول العربية مسؤولياتها كاملة ، فستصبح قواتنا معادلة لقوات اسرائيل خلال ثلاث سنوات . فإذا شئنا التفوق عليها لزمتنا ثلاث سنوات أخرى ، لأن تعادل قواتنا لا يعني النصر حتماً . ذلك ان التدريب الاسرائيلي متفوق على تدريب جيوشنا . وثمة عوامل عدة في صالح اسرائيل في كل معركة هي : وحدة الأرض ، سهولة ادارة المعركة ، سهولة الحركة . أضف إلى ذلك وحدة القيادة . ولا ننس أبداً وسائل الاتصال الجيدة . فلتحشد اسرائيل جيوشها لا تحتاج إلى استقدام وحداتها المسلحة من مسافة آلاف الكيلومترات » .

صدق الزعماء العرب على تقرير علي علي عامر ووقّعوه ونفذ المخطط ، حرفياً ، خلال ستة أشهر . ثم نجم من جديد الخلاف بين الزعماء وعبر الإذاعات . وتوقف المخطط ، حتى هذه الساعة . إذن ، لم يكن العرب مستعدين للمعركة .

قد يتساءل الناس : « ما تعني ، إذن ، هذه الخطب المطولة التي نسمع ، وتلك المقالات التي نقرأ في الصحافة العربية ، والنداءات الثورية ؟ » لكم أحب أن أمحو حقيقة خطيرة من تاريخنا ، وطيها في مطاوي الصمت ! غير ان إخلاصي للقارىء يحتم علي قول الحقيقة ، كل الحقيقة .

نحن شعب خرج حديثاً من السجن . فالحرية أشد ما يعنينا . فثمة خمسمائة سنة من الإحتلال عانينا فيها ألوانا من الاضطهاد . ثم إذا نحن في زمن يسير نغدو احراراً . السجين وحده قمين بتذوق الحرية في معناها الحقيقي . فإذا خرج من خلف الجدران ، أحب أن يتملى من متع قد لا يستسيغها الآخرون . يريد أن يرى ما كان ينقصه

في السجن، أن يلمسه بيديه ، بشفتيه، بأعصابه ليتأكد من واقعيته، ومن حريته هو . قد يذهب إلى الحانة ، لمجرد أن يرى السكارى ويسمعهم ، ويشتم رائحتهم الإنسانية . وقد ينهار سكران بتأثير القدح الأول ، الغبات الأولى . فالشراب ، والمتع الأخرى ، قد خص بها من يحيا ملء الدنى ، ويعب من شعاع الشمس .

حين خرجت من سجني ، وددت أن استحم في الشمس ، لأني افتقدت أشعتها ! ظللت مريضاً عدة أيام ، لأن العتمة خلال شهور قد تسربت إلى أصغر ذرات جسدي .

تلك هي حالنا نحن العرب . فالحرية تعدل لدينا الحياة . لكن الحرية تقتضي الكثير من شعب بقي أسيراً خمسمائة عام ! نريد أن نتذوق كل ما يمكن أن تتيحه الحرية والاستقلال . الورق ، وموجات الأثير ليست وسائل للتعبير عما في أنفسنا فحسب ، إن هي إلا متعة كذلك . إنها تتيح لخيالنا أن يطوف آفاقاً أخرى أكثر اتساعاً من آفاق السجن . وقد تكلمنا كثيراً لأن كبت السجن يبيت في حياتنا . ولقد أفادت اسرائيل من ضعفنا هذا لتنفذ مخطط هرتزل .

سأسوق بعض المعلومات التي ظهرت في كتاب طبع مؤخراً باللغة العربية . ورغم ما ينضح به من تفاؤل كبير ، فإن مجرد قراءته تقنع القارىء بأننا لم نكن مستعدين للمعركة استعداداً كافياً . يشير الكتاب إلى أن تعداد جيش اسرائيل كان مائتين وخمسين الفاً . أما الجيش المصري ، فمائة الف ، بالإضافة إلى خمسين الف حارس قومي . أما الجيش السوري فكان خمسين الف جندي ، وخمسين الف احتياطي . وأما الجيش العراقي فكان سبعين الفاً ، والأردني ثلاثين الفاً .

أنبأتنا المخابرات السرية — وهذا ما أثبتته المعركة — ان اسرائيل كانت تملك ثمانية وعشرين لواء مدرعاً ، ولواءين من المظليين ، وأربعة الوية نقل ، وكان بمقدورها أن تحشد كل احتياطيها في ٤٨ ساعة فقط . ألا تدعونا هذه الأرقام إلى التفكير منذ البدء ؟ يعتقد الرأي العام الأوروبي أن الاتحاد السوفياتي حوّل الشرق الأوسط إلى ترسانة

حربية . هذا منطق يمكن قبوله بسهولة ، لما يبدو عليه من ارتكاز على واقع فعلي . إن الستراتيجية السوفياتية – وحين نتحدث عن ستراتيجية حرب عالمية محتملة ، نتجه في تصورنا إياها حسب قواعد الحروب السابقة الكلاسيكية – ترى انه إذا اتفق يوما أن هوجم القوقاز السوفياتي ، فإن الهجوم لا بد أن يعبر سوريا ومصر . لذلك كانت صداقة هذين البلدين ضرورة دفاعية بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي . لهذا السبب زعمت صحف كثيرة أن الإتحاد السوفياتي ضد اسرائيل ، وانه يسعد بأن نحذف اسرائيل من خارطة العالم . وتستند الصحف هذه في رأيها إلى صداقة الاتحاد السوفياتي للعرب . أنا نفسي اقتنعت برأيها في البدء .

كلفني مجلس قيادة الثورة عام ١٩٦٣ الاتصال ببعض ممثلي الاتحاد السوفياتي لإقامة علاقات صداقة بين بلدينا . وقد كلفت بذلك لأني كنت مقتنعاً بأن الاتحاد السوفياتي هو الدولة الوحيدة التي ستدافع عنا ، والحامية الوحيدة للاشتراكية .

قال لي المسؤول الديبلوماسي الروسي في لقائنا الأول : « تعلم ، إن الإتحاد السوفياتي معترف باسرائيل . ونحن ضامنون بقاءها » . قلت له ضاحكاً : « من ترى بحاجة إلى حماية حدوده ؟ » فأجابني بصراحة تامة : « أنتم ... ومع ذلك فنحن لا نسمح بعدم توازن القوى في في الشرق الأوسط » .

لقد واصلنا تسلحنا ، على نحو طبيعي ، ولم يكن تسليحنا مجانياً ، وأشدد على ذلك ! وقد أكدت معلوماتنا دائماً أن سلاحنا الدفاعي لم يتجاوز قوى اسرائيل أبداً . كان الغرب يمنحها ، بقدر ما كان الشرق يبيعنا . ولم يتحقق التوازن من حيث الكمية منذ نشوء اسرائيل ، بل كانت الزيادة في صالحها دائماً .

اليكم واقعة أخرى ، ذات أهمية حاسمة :

تظل القوة القادرة على فتح ثغرة في الأراضي الاسرائيلية ، في أي حرب مع اسرائيل ، وشطر اسرائيل إلى شطرين ، واجبارها على

القتال على عدة جبهات ، هي قوة الجيش الأردني . غير ان الملك حسين حتى أوائل حزيران ، كان على خلاف مع سوريا ومصر . وقد هاجمته الإذاعة السورية صبيحة الرابع من حزيران ، وقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين .

ولقد أعلنت اسرائيل انها ستشن علينا الحرب. وها أنا أعرض عدة تصريحات لعدة مسؤولين اسرائيليين .

حين زار موشي دايان باريس عام ١٩٦٦ ، صرح في السادس والعشرين من أيار : « إن الحكم السوري الحالي يزعج اسرائيل » (جريدة لوموند) .

وكرر اسحاق رابين رئيس الأركان الاسرائيلي القول نفسه : « السوريون هم الاباء الروحيون لفتح ، الذين يجمعون الإرهابيين الفلسطينيين العرب . لذلك فالمعارك التي يمكن أن تشنها اسرائيل على سوريا ، تأديباً على هجمات التخريب ضدها ، تستهدف الحكم السوري . فسوريا وحدها قررت أن تسمح بعمليات عسكرية ضد اسرائيل ، وهي وحدها التي اعتزمت تحويل مياه الأردن . أما باقي العرب كمصر ولبنان والأردن ، فيفضلون تأجيل مهاجمة اسرائيل حتى يستكملوا استعدادهم . ولذلك فإن اسرائيل سترد بطريقة محدودة وضيقة على عمليات التخريب المنطلقة من مصر والأردن ولبنان ، وتحاول جاهدة أن تفرض على هذه الدول أن تتخذ الإجراءات لردع هجمات الإرهابيين المنطلقين من أراضيها . الأمر يختلف جداً بالقياس إلى سوريا ، التي تساند وتنظم هجمات فتح . وبالتالي فإن ردنا يستهدف تغيير النظام السوري ، والقضاء على سبب الهجمات . » (جريدة لوموند ، ١٣ أيلول ١٩٦٦) .

في الوقت ذاته زار الأسطول السادس الأميركي بيروت .

وبعد العرض الاسرائيلي العسكري في القدس ، في السادس من أيار ١٩٦٧ ، ردد اشكول ورئيس أركانه التصريحات السابقة نفسها ، مؤكدين مجدداً ان مواجهة جدية مع سوريا لا بد منها إذا استمر

الارهاب الذي تقوم به جماعات عربية فلسطينية ، تحت إمرة السوريين .

كان حظنا في النصر رهناً بأن نكون أول من يطلق النار . لكن القوى العالمية الكبرى كانت هناك . وكان دفاعنا الحقيقي في أن نبدأ الهجوم ، لكننا أنذرنا وهددنا . نحن نعلم أن الحروب الحديثة هي حروب الضربة الأولى ، ولهذا يظل طيران الولايات المتحدة في حال قتال دائمة .

أذاع الجنرال ديغول بيانه بكلمات جلية ، وبمقدوري أن أكتب صفحات وصفحات حول التقدير الكبير الذي يكنه العرب له . فالعربي يشعر بتقديس تقليدي نحو الرجال أمثال ديغول . وآمل أن يكون الجنرال على ثقة من أبعاد هذا التقدير . على اني أستطيع أن أؤكد أن بيانه كان السبب في الحيلولة دون تفجر الحقد العربي .

في السابع والعشرين من أيار ، أرسلت أنا نفسي البرقية التالية لحكومتي : « علمت من مصادر وثيقة الإطلاع ان الطيران الاسرائيلي سيهاجم مطاراتنا ومطارات الجمهورية العربية المتحدة ، قبل الرابع من حزيران على أبعد تقدير » .

ووردت معلومات أخرى تؤكد ذلك . فقرر عبد الناصر أن يكون البادىء بالهجوم ، ولكن سفيري دولتين كبيرتين نصحاه بتبديل موقفه .

وفي العشرين من أيار ، تم اتصال بيني وبين موظف كبير في وزارة الخارجية السورية . وتداولنا في موضوع العرض العسكري الاسرائيلي بمناسبة الخامس عشر من أيار ، ذكرى قيام اسرائيل .

قال لي : « لا تنسَ أن العرض لم تسمح به اتفاقات الأمم المتحدة لاسرائيل ، وان الدول الكبرى منعت أياً من ممثليها حضور العرض . وأضاف : « ولو كانت هذه الذكرى هي العشرين لقيام اسرائيل لكان الأمر خطيراً في اعتقادي . لكنها الذكرى التاسعة عشرة » .

قلت : « لست من رأيك . فكلما كانت ثمة خطة في رأس اسرائيل ، فإنها تعد لها إعداداً تاماً . إني أحذرك من أحداث خطيرة ستقع قريباً ، وتسبق الذكرى العشرين لقيام اسرائيل . وليس العرض الأخير إلا مقدمة لعرض الذكرى العشرين . لا تنسَ أن الاسرائيليين ،

حين يتحدثون عن القدس كعاصمة لهم ، فإنما يعنون اورشليم القديمة ، لا الحديثة . أكرر القول إن العرض القادم سيكون هاماً جداً ، وان أحداثاً خطيرة جداً ستسبقه . أما في ما يتصل بعدم مشاركة الدول الكبرى في حضور العرض ، فإني لا أرى فيها إلا مجرد تظاهرة دبلوماسية غير كافية على كل حال لردع اسرائيل . لماذا لم تعلن الدول الكبرى اتخاذ موقف ضد العرض ؟ لماذا لم تعلن انها ترى في العرض خرقاً لاتفاقات الهدنة ؟

في صباح العدوان الاسرائيلي ، قابلت وزير الخارجية الفرنسية ، وسألته : « من بدأ بإطلاق النار ؟ » أجاب : « يزعم كل من الخصمين أن الآخر هو البادئ . » وأضاف : « لماذا سحب عبد الناصر قوات الأمم المتحدة ؟ »

لقد عرفت اسرائيل كيف تخوض الحرب . ..

١١

ومع ذلك ... ففي صباح الخامس من حزيران أغار الطيران الإسرائيلي فجأة ، وفي وقت واحد ، على ثلاثة عشر مطاراً في الجمهورية العربية المتحدة ، وثلاثة مطارات في سوريا . وكان القصف بالغ الأثر : فطائرات المتحدة وسوريا دمّرت على الأرض . ولم يفوت الطيران الإسرائيلي الفرصة ، بل انقض على طرق مواصلات الجيش المصري في سيناء يقصفها قصفاً شديداً .

كانت كثافة الغارات غير متوقعة . وقد أكدت المصادر العربية وجود طائرات أجنبية ، وإن لم يعط الدليل الكافي على ذلك ، لأن معركة الطيران جرت بسرعة مفاجئة لم تسمح بتقصي الدلائل الثبوتية على تلك الفرضية . ولا بد أن نلاحظ أن أي مصدر للمعلومات لم يشر إلى أن إسرائيل تملك كل تلك الأعداد من الطائرات . وقد أعلن طيار أسير في العراق أنه نقل على متن هيليكوبتر مع بعض رفاقه إلى حاملة طائرات أميركية ، ومنها أقلعوا بطائرات مطاردة . ومن جهة ثانية ، فإن طائرات من طراز كامبيرا لا تملك إسرائيل مثلها ، شوهدت في أثناء المعركة ، وثمة طائرات لم تحمل أية شارة .

وكانت ثلاث حاملات طائرات بريطانية هي «فكتوريوس» و«البان» «وايكل» تجوب المتوسط . وكان الأسطول السادس وبينه حاملة الطائرات «كونستليشن» يحاذي شواطىء البلدان المتحاربة . كذلك باخرة التجسس الأميركية «ليبرتي» التي شلت شبكة رادار المتحدة ، فقصفتها الطائرات الإسرائيلية خطأً ، على بعد ١٥كم من

سيناء . وأعطيت إشارة التأهب لكل القواعد العسكرية الأميركية في الشرق الأوسط . وقد أكد شهود أنهم شهدوا فيها حركة طيران غير عادية . غير أنه لا بد من بعض الوقت لدراسة الروايات المختلفة عن تلك الحرب دراسة عميقة .

أما القوات العربية ، فرغم أنها كانت في حالة تأهب ، فإنها لم تكن مستعدة لخوض المعركة . وكان العرب متيقنين من الانكسار لاسباب عدة .

ولعل من باب أولى أن نشير إلى وسائلنا الإذاعية . كان كل المذيعات والمذيعين ، في الإذعات والتلفزيونات العربية ، في هذيان مطبق ، فأوقعوا الجماهير في البلبلة . وكانت النشرات تروي بحماسة تحركات الجيوش العربية . حتى أن الجيش الإسرائيلي كان يكتفي أحياناً بمعلومات النشرات العربية ليهاجم . ذلك ما حدث لقوة عراقية كانت تتقدم صوب الأردن ، فدمرت في الطريق .

لقد تدخل بعض المسؤولين في الإعلام ، دون أن تكون لهم تجربة كافية في مجاله ، فزرعوا فيه الفوضى الشاملة . وما يجنيه المسؤول من ذلك يترك أثره على الجمهور . لقد كان عديدون من الجنود السوريين يحملون ترانزستور أثناء المعركة ، ويستمعون إلى النشرات المختلفة ، فإذا لم يستطيعوا الاستماع إلى الإذاعات العربية ، استمعوا إلى راديو إسرائيل .

أضف إلى ذلك أن القيادة العربية ، رغم كل الجهود ، وخاصة جهود عبد الناصر ، لم تكن موحدة. لأن إسرائيل لم تترك للعرب الفرصة — بينما على الجبهة الثانية كان موشي دايان سيد الموقف الوحيد . كل الأسماء غير اسمه انحسرت ، حتى اسمي رئيس الوزراء وبيغن . الجرائد نفسها لم تكن تتحدث إلا عن دايان . وقد حاول أشكول عبثاً أن يطلق إسم رابين . بل لقد تحدثت الصحف عن ابنة دايان أكثر مما تحدثت عن رئيس الأركان الإسرائيلي .

خطأ عبد الناصر الكبير هو أنه لم يتسلم زمام القيادة العليا للجيوش

العربية بنفسه . فهو ، في ما أعلم ، أكثر العسكريين العرب كفاءة .

وقد تحدث الي ، آخر مرة قابلته فيها ، عن إيديولوجية مصر الإشتراكية ببلاغة لا تحد ، كأفضل ما يكون العقائدي . أذهلتني حدة ذاكرته . ولقد استحوذ عليه التفكير الإيديولوجي أكثر مما يتوقع من عسكري .

أما القائد الأعلى لجيش المتحدة ، المرحوم عبد الحكيم عامر ، فإنه كان شهماً ، وشجاعاً ، ولطيفاً ، وذكياً ... لكنه خلق ليكون وزير خارجية .

كان عبد الناصر وحده ، في تلك الظروف الحرجة ، جديراً بقيادة المعركة ، وإعطاء الأوامر ، وتحمل أضخم المسؤوليات ، كما فعل أبان معركة السويس . وقد يكون أدرك ذلك ، لكن بعد فوات الأوان . ولعل ذلك سبب استقالته في التاسع من حزيران . وقد خيل للأوروبيين أن في الأمر لعبة سياسية عمد إليها في استقالته . لكن المحنة لم تكن تسمح بالمزاح ، ففي خطاب استقالته أعلن عن رغبته في العودة إلى الجيش كضابط بسيط .

كان عبد الناصر بعد الهزيمة بين خيارين : الزعيم أو العسكري . ولكن ! من يحل محل عبد الناصر الزعيم ؟ هذا سؤال لا جواب عليه عند الأزمات . لكن الجماهير التي تعرف عبد الناصر الزعيم اتخذت القرار الأخير ، وهي تجهل كل شيء عن عبد الناصر العسكري .

الإسرائيلي أكثر اندماجاً بالآلة من العربي . فثمة قسم كبير من السكان الإسرائيليين أوروبي الأصل ، مثقف ثقافة جيدة ، مكون تكويناً علمياً صحيحاً . وهو مجتث من أرضه ، يحاول أن يستقر في غيرها ، ولهذا التناقض يظل دون وطن .

ولقد تطورت العسكرية الإسرائيلية تطوراً كبيراً . فالاحتياطي يتدرب يوماً في الإسبوع وشهراً في السنة . وقد نجحت إسرائيل في جعل شعبها جسماً عسكرياً ، بينما العرب أنأى ما يكونون عن ذلك ، ولا بد من وقت حتى يحققوا ذلك المستوى . هذا ، وليست المستعمرة ، وهي مبدأ النظام الإسرائيلي ، إلا ثكنة عسكرية .

تحدثت الصحف العالمية عن أربع دول عربية ، وأحياناً عن سبع أو ثلاث عشرة ، ضد الدولة الناشئة إسرائيل . لكن المعركة كانت في الحقيقة بين التطور وعدمه ، بين الشعب العربي المستيقظ حديثاً ، وبين نخبة منتقاة من العالم أجمع .

عبر هذا التفاوت ، استدرج العرب الى حرب لم يكن لهم فيها الحق أن يطلقوا النار إلا ساعة قدّروا أن إطلاقها ضروري . وقد فرض عليهم أن يكونوا مدافعين حتى قبل أن يعتدى عليهم .

ذكرت الصحافة أنها حرب الأيام الستة . والواقع أنها حرب ساعة ، ساعة واحدة فقط ، أما الوقت الباقي فلم يكن إلا مقاومة مستميتة يائسة . انتقد الجيش المصري مراراً ، بل اتهم بالنذالة . لقد جرت معارك سيناء على نحو يختلف عن المعارك في اي منطقة في العالم . كانت حرب ماء . من يشرب أولاً ، يحرز النصر . يتساءل بعضهم : « والطيران المصري ، ألم يكن غافياً ؟ » ستجيب على ذلك المحكمة العسكرية التي وجهت تهمة الخيانة إلى قيادة الطيران !

أصبح الجيش المصري ، بعد كارثة الطيران ، لقمة سائغة للطيران الإسرائيلي القوي ، ولسبعة عشر لواء : خمسة عشر لواء مدرعاً ، واثنين من المظليين . وقد ضربت طرق مواصلات الجيش المصري ، وقطعت المياه عنه ، وما كان لإنسان أن يقاوم الظمأ أكثر من ثلاث ساعات في حرارة تبلغ درجتها الخمسين . لقد فقدت الجمهورية العربية المتحدة عشرة آلاف جندي على أرض المعركة . أما اليوم الثالث فكان يوم الضياع والفوضى : فالجنود المصريون تائهون ، ظمأى ، جياع ، على أرض فسيحة لا حدود لها ، ورمال محرقة . كانوا يبحثون عن مخلوقات إنسانية أخرى ، ولو كانوا أعداء ، ليسألوهم الماء . وقد أسر خمسة آلاف مصري ! لا شك أن مقاومة يومين ، في مثل تلك الظروف ، أمر كثير الإرهاق .

أما الأردن ، البلد الفقير الذي يقطنه شعب شجاع ، فقد أعلن الحرب في الساعة العاشرة من صباح الخامس من حزيران ، يقود

جيشه ملك شاب شجاع ونبيل . غير أن تجهيز الجيش الإردني لم يكن مكتملاً ، لذلك كان يعتمد على الطيران المصري . ولقد كان الملك حسين أكثر القادة هدفاً لإنتقادات مختلف الإذاعات في المنطقة . لكنه خرج من المعركة وقد حظي بتقدير العرب جميعاً ، رغم أن شجاعته وإقدام رجاله كبد البلاد خسائر ضخمة .

احتل الجيش الأردني صبيحة الخامس من حزيران جبل المكبر . وكانت المسافة بينه وبين تل أبيب ١٦ كم . لكن الطيران الإسرائيلي أصابه إصابات ساحقة ، فاضطر إلى المقاومة بدل الهجوم . وجرى القتال بالسلاح الأبيض في القدس . وكانت الخسارة ضخمة . ولم تصل القوات العراقية إلا بعد وقف إطلاق النار .

وبعد وقف إطلاق النار ، وجهت القوات الإسرائيلية كل ثقلها ضد الجيش السوري ، الذي حارب ثلاثة أيام ضد قوة أفضل تسلحاً ، وتعادل أضعافه عدداً .

والجندي السوري مدرب تدريباً جيداً ، صلب وصامد . وهو متطور كالجندي الإسرائيلي لكن الاحتياطي ليس في مستوى الجيش ، لأن الإقتصاد لا يتيح استدعاءه بانتظام .

كانت فرصة الجيش السوري الوحيد لاختراق أرض إسرائيل هي في اجتياز الحدود اللبنانية ، لكن لبنان لم يسمح له بذلك . أما من الجانب السوري ، فيتعذر اختراق الحدود الإسرائيلية ، لأن على الجيش السوري عندئذ أن ينحدر إلى سهل ضيق ، تليه تلال محصنة أشد تحصين .

كان الهجوم صعباً . وقد صرح دايان أن السوريين يحاربون كالأسود .

لم تخل المعركة من وحشية . ففي سوريا دمرت القنيطرة وقرى الخشنية ، والمنصورية ، وعين فيق ، وخسفين ، ثم نهبت . ومحيت عن آخرها قرى بانياس وجباتا الزيت ، وكفر حارب ، والنخيلة ، بعد وقف إطلاق النار .

وجرد كثيرون من المدنيين من هوياتهم وأموالهم . وجردت النساء من حليها . وأرغم آخرون على الزعم أنهم عسكريون ، وأعدم بعضهم ، وبقيت جثثهم في العراء عدة أيام ، وخاصة في المنصورية . وسجن آخرون .

كان النزوح ضخماً . وكان عدد النازحين ساعة بدأت هذا الكتاب تسعين ألفاً ، وقد بلغ اليوم أكثر من مائة ألف .

لعل أفضل كتاب حول نتائج الحرب في الأردن والقدس ، هو كتاب « القدس ودم الفقراء » الذي كتبه الاب «بول غوتييه » المسؤول عن «اخوة المسيح » والأخت ماري تيريز المسؤولة عن « أخوات المسيح ».

تقول الاخت ماري تيريز :

« لقد اعتقل الإسرائيليون ، بعد وقف إطلاق النار ، أناساً معظمهم من المدنيين ... وكنت لا تجد أية سيارة ، فكل السيارات سرقها الإسرائيليون. وحيثما توجهت يطالعك النهب ، والشقاء ، وجرحى النابالم في نابلس خاصة ... وذهبنا إلى قلقيلية نستطلع ما حدث : كان إحساسي بالفجيعة كبيراً . كان الإسرائيليون قد نسفوا المدينة بالديناميت . وكان المدنيون الإسرائيليون قد نهبوا كل شيء . »

وحين سألت أحد الضباط الإسرائيليين : أين قلقيلية : أجابها : «كانت قلقيلية هنا . أما الآن فاسمها كفرسابا . »

ثم تقول الأخت :

« إليك ما لم يكن الإسرائيليون يريدون أن نشاهد : ثلاث قرى دمرت على التوالي بالديناميت والجرافات . ووسط صمت الموت ، كانت الحمير وحدها تجوب الدمار . وبين الحين والحين ، تنسحق قطعة أثاث ، أو تتمزق وسادة ، وقد انبثقت من ركام الحجارة والأسمنت والجفصين . وثمة قدر أو غطاء متروك في عرض الشارع . لم يكن للنازحين الوقت ليحملوا كل شيء ... وحوالي العاشرة صباحاً ، قصدنا قرية صريف : ثلاثة عشر بيتاً كانت قد نسفت بالديناميت بعد

أن قال الإسرائيليون للسكان : « جاء زمن تصفية الحساب . فغادروا بيوتكم إن كنتم تودون الحفاظ على حياتكم . »

« منذ اليوم التالي لدخول الجيوش الإسرائيلية الأرض المحتلة ، سرقت جميع السيارات ، ونهبت بعض المخازن ، واستبيحت ونهبت بيوت مخصوصة ، رغم وجود عائلات عديدة فيها . وانتزع كثيرون من الجنود الساعات والأساور والمال والترانزستور .

« وبعد وقف إطلاق النار في القدس ، أرغم مئات الرجال على الخروج من بيوتهم ومخابئهم مرفوعي الأيدي ، ووجوههم إلى الجدار . وقد فتشوا وسيقوا . وإذا كان قد أطلق سراح بعضهم في الغد ، فإن معظمهم سيقوا إلى تل أبيب ، حيث سيقوا في عرض كبير في الشوارع ، ثم أخلي سبيلهم بعد يومين . وكانوا جميعاً مدنيين ، ومن أحياء القدس الفقيرة .

«وكثيراً ما أوقف الرجال ، ففرض عليهم أن يضعوا أكفهم على رؤوسهم ، ووجهوههم إلى الجدار . أو أن يركعوا . ثم سيقوا بعد ذلك والرشاشات في ظهورهم» .

وكتب الأب غوتييه :

« كانت حال مواكب النازحين شبيهة بمواكب النازحين حيثما وجدوا . فثمة صفوف طويلة لا تنتهي ، على طول الطرق ، جائعة عطشى . شيوخ مشردون أو ميتون على الطرقات ، وأطفال ضائعون أو قد جنوا ، ونساء يضعن على جانب الطريق وبينهن جريحات في المعارك الأخيرة ، كتلك التي فقدت حليبها ، إثر رصاصة اخترقت صدرها . »

ورغم ذلك تنعت الصحف الأوروبية الفدائيين بالإرهابيين .

قال الجنرال إسحق رابين في جريدة لوموند ، ٢٣ أيلول ١٩٦٧ :

«علمنا في شهر حزيران أن علينا أن نعتمد على أنفسنا في حفظ أمننا . أما اليوم فحدودنا مكونة من حصون طبيعية : السويس ، ونهر الأردن ، ومرتفعات الجولان في سوريا . فليس يكفينا ، كما دلت التجربة ، جيش قوي فحسب لاتقاء اعدائنا . في المعركة التي فرضت علينا ،

كنا مستعدين ، وعرفنا كيف نستخدم آلياتنا ، وكانت ستراتيجيتنا جيدة ، إذ وجهنا الضربات القاصمة بواسطة طيراننا . ربما لم يكن عبد الناصر يريد الحرب ، لكنه فعل كل شيء لإستدراجها ، بحشد قواته الأساسية في سيناء ، وإغلاق مضايق تيران في خليج العقبة . وحين طرد قوات الأمم المتحدة ، ارتكب خطأً فادحاً ، لاعتقاده أننا لن نجابه هذا الوضع الخطير . »

هل تحسنت الأوضاع في المنطقة ؟

إذن ، لم تنته الحرب .

الخاتمة

كنت أبحث عن خاتمة للكتاب عندما جاءني نبأ انتحار المشير عبد الحكيم عامر . لم أصدق النبأ بادىء ذي بدء ، لكنني تتبعت الحادثة فتأكدت من ذلك .

استقال عبد الناصر فاستقال معه عبد الحكيم عامر ، ذلك أنه اعتبر أنه لا يجوز له البقاء في الحكم بعد ذهاب صديقه الذي لم ينفصل عنه منذ كانا ضابطين صغيرين . وعاد بعد ذلك عبد الناصر عن استقالته ، وظلت استقالة المشير سارية المفعول ، مما أثاره ، وهو الذي كان يعتبر أنه وعبد الناصر لا ينفصلان . فعمد إلى مؤامرة يعود بنتيجتها إلى قيادة الجيش رغماً عن الرئيس ، ولكن دون أن يمس سلطاته أو مركزه . كانت المؤامرة محكمة دقيقة . ولما اكتشفها عبد الناصر وجد أنه وحيد ، ليست لديه أية قوة عسكرية غير الحرس الجمهوري ، فجمعه وأعطى أوامره للحرس بالحركة ، وقاده بنفسه فهاجم الأركان العامة ، وقبض سريعاً على أركان المؤامرة ووضع المشير تحت الحراسة مقدمة لمحاكمته .

رأى المشير نفسه المسؤول الأول عن هزيمة جيشه ، واحتلال جزء من بلاده ، ثم عن مؤامرة ضد زعيمه وقائده وصديقه ، فحاكم نفسه بنفسه وحكم عليها بالموت .

يبدو هذا التسلسل طبيعياً بالنسبة للأوروبي . أما بالنسبة إلي ، فقد وجدت فيه شيئاً بعيداً عن روح الشرق الأوسط ونذيراً بميلاد عالم جديد .

•

عرفت المشير مسلماً بدينه ، يقيم يومياً الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، متقيداً بحرفية الدين والقرآن . وقلما ينتحر المسلمون . فلو رجعنا إلى تاريخ الإسلام لما وجدنا حوادث انتحار . عندما طرد سليمان بن عبد الملك قواد الوليد ، كموسى بن نصير وطارق بن زياد ، من القيادة عاش هذان القائدان عيشة بؤس وفقر . كان طارق يشحد من الناس . والوحيد الذي انتحر هو أبو القاسم ، فاتح الهند الذي قاد أول جيش وهو ابن ستة عشر عاماً .

سمعنا قبل الإسلام بانتحارات كثيرة ، مثل انتحار هانيبال الذي قال : بيدي لا بيد قيصر ... أما بعده فلا أرى غير انتحار أبي القاسم . كنت أنتظر أن يفعل المشير أي شيء إلا الإنتحار . إن المسلم يظل في تماس مع الدين أكثر من أي مؤمن آخر ، ذلك أنه يصلي خمس مرات في فترات متقطعة من اليوم ، فلا ينقطع عن ذكر الله . لكن العوامل التي دفعت المشير إلى سلوك هذه السبيل ، كانت أكبر من الأثر الديني على عمقه ، وأرى في ذلك مغزى كبيراً .

كانت مرارة الهزيمة الشيء الوحيد المسيطر على حياة إنسان وفكره . انتزعت كل القيم وأحلت محلها « ماسوشيتيّته » لا تقهر . والجندي عندما تعميه المعركة يطلق النار من أجل أن يطلق . يقتل دون هدف ، وقد تصل الرصاصة فتخترق سبيلها إلى قلبه . عندما يتسرب الحقد إلى قلب إنسان يصبح حاقداً فقط . الغرور المحطم ، الإهانة تزرع شهوة الانتقام ، ومن تسيطر عليه هذه الشهوة ينتقم لمجرد الإنتقام : إن أكثر الإسرائيليين حقداً على العرب هم الذين نجوا من معسكرات الاعتقال .

رأى الكثيرون في انتحار المشير حدثاً عادياً ، أما أنا فرأيت فيه بداية عالم جديد من الحقد ، وزوال المعتقدات القديمة لتنشأ مكانها أفكار جديدة .

سيصبح الإسلام غير الإسلام ، والمسيحية غير المسيحية ، واليهودية غير اليهودية .

يصلي المسلم في الشرق الأوسط خمس مرات كل يوم ، ولكنه يفكر بأخطار المستقبل بقية يومه . وقد بدأ بتفسير القرآن بشكل يسمح له بالحقد .

ولا ننس أن المسيح رسول الحب وقد قال : « ما جئت أحمل سلاماً ، جئت أحمل سيفاً ».

بحثت الصهيونية في التوراة وأخذت منها ما يدعم وجهة نظرها : لم تأخذ بباطل الأباطيل ، وكل شيء باطل ، ولا بشعرك قطيع من المعز على جبل جلعاد ، بل أخذت بقول : من النيل إلى الفرات . لكن التوراة لم تقل من النيل إلى الفرات بالحديد والنابالم .

قامت إسرائيل على فكرة عرقية دينية ، والخطر أن تجر هذه الحرب إلى تعصب ، فيصبح عداؤها دينياً .

هللت أوروبا لانتصار إسرائيل في الحرب الأخيرة ، وأبدت كثيراً من ضروب الاحتقار للعرب . ذلك أن البشر يجتنبون الضحية ، لأنها تحملهم مسؤوليات وجدانية ، حتى إذا انقلبت ذئباً معتدياً صفقوا لها . لقد استنكر العالم طويلا اضطهادات اليهود في أوروبا ، ولكن الأصوات لم ترتفع عندما كانوا يضطهدون . لقد انتظرت حتى أصبحوا قوة .

كانت مواقف الاعضاء في الأمم المتحدة عجيبة أثر هذه الحرب . تبنت العدوان وشدت ازره، كما صمتت صمت الموتى تجاه أزمة فيتنام . ذلك أن الشرق الأوسط والفيتنام ضحيتان . إنها تنتظر اليوم الذي تصبح فيه الضحايا قتلة ، لتسفح عبرات الحزن .

إن سبب هزيمة العرب الأولى أنهم لم يستطيعوا حشد طاقاتهم كلها : الثروة العربية لم تأخذ دورها في المعركة . إن المال الكويتي في بنوك أميركا وبريطانيا كان وحده كفيلا بكسب المعركة .

جرت هزيمة ١٩٤٩ إلى انقلاب شامل في الشرق الأوسط كان من نتائجه اتجاه البلدان العربية إلى الشرق والاشتراكية . أما هزيمة ١٩٦٧ فستجر إلى أحداث أكبر لا أستطيع التنبؤ بها ، لكني أظن أن

تحولات كثيرة ستحدث ، فالأرض هناك تهتز لتبدأ أشياء جديدة .

إن التاريخ مليء بالضحايا التي انقلبت إلى جلادين . وإسرائيل خير شاهد على ذلك . ترى ما هو مستقبل الشرق الأوسط ؟

أعلن مسؤولو إسرائيل أن الحدود التي وصلوا إليها هي نهائية . وأمر مجلس الأمن بإيقاف إطلاق النار عبر الحدود الجديدة ، وأخذت إسرائيل تقيم المستعمرات في المناطق المحتلة وتدعو لهجرة جديدة .

وصرح المسؤولون الإسرائيليون أنهم على استعداد لمقابلة أي مسؤول عربي . واقترح عبد الناصر حلا معقولا ، وكذلك الحسين ، غير أن إسرائيل رفضتهما . إذن لا صلح ... معركة رابعة . وقد أعلن عنها رابين منذ شهور حين قال : إن الضربة التي تلقتها الجيوش العربية لا تسمح لها بالحركة قبل ١٩٧٠ ، وعلينا أن نستعد لها منذ الآن . ولمح أشكول إلى أن مياه الحاصباني غير مستغلة ، مع أنه هدد لبنان بفقدان استقلاله إذا استغلها ...

أرى من ذلك أن خطوط المعركة سنة ١٩٧٠ قد أصبحت واضحة ، وإسرائيل غير مستعدة للعودة إلى خطوط حزيران .

بقي على العرب أن يستعدوا إما لرحيل آخر ، أو لحرب أخرى . وقد لا نستطيع التنبؤ الآن كيف تكون النتيجة ومن ينتصر . شيء وحيد أستطيع التنبؤ به : معركة أشد قسوة وضراوة . المنهزم الوحيد فيها هو القيم الإنسانية التي ولدت في الشرق الأوسط .

إن تدخل الدول الكبرى ممكن الآن . أما سنة ١٩٧٠ فإنه سيكون مستحيلا لأن امتداد الجبهات وتوسع المعركة سيجعلان منها مجزرة بين ضحيتين وجدتا نفسيهما وجهاً لوجه، وكل منهما تريد أن تسحق الأخرى .

نحن المؤمنين بالحب نرى الخطر يزداد يوماً بعد يوم ، ونرى أن دولة شريعتنا آخذة بالانهيار . ولكننا مع ذلك نحلم بانها لا بد ان تعود . ولذلك نرفض أن نكتب بريشة من حقد .

على الرغم مما حدث ، آبى على نفسي أن أغمس قلمي في محبرة الحقد. أنا انسان بسيط ، ومع ذلك فالاحداث الاخيرة هزت مني اعمق أعماقي ، وبدلت من رؤيتي الامور . وها أنا اجترّها واستعيدها ، حتى لغدت جزءاً أصيلا من ذاتي . ويوماً بعد يوم ، يكبر شعوري بالمرارة ويغزو السواد قلبي . فثمة احداث صغيرة تصدعني وتصفعني بسياطها الهوجاء ، وتدفعني إلى تبديل موقفي الذي علقته منذ سني العقل الاولى ، فكان في اسّ حياتي نفسه . اخترت هذا الموقف ببساطة القروي السوري . فهو ليس ثمرة الدراسات الفلسفية المعمقة ، إذ لم أكن في العمر الذي يتيحها لي . علمتني جدتي وامي أن احب . اذ كانت الأولى تحفظ أشعاراً صوفية ، ترويها على مسمعي ، كلما لجأت إلى حضنها . وكانت أمي تروي لي ما حفظته عن جدتي ، في إصرار المؤمن بكلمة الآباء والأجداد . قالت لي ، آخر مرة رأيتها فيها : « يا بني ، احبب هذا العالم ، هذا العالم هو الله » . وامتزجت هذه الجملة مع روائح الحصيد خلّفه الحاصد. ودغدغت صبا الصيف قلبي ، فاحسستها زرقاء ، زرقة ليالي بلادي ، كنفحة من سمائنا المستيقظة على غروب الشمس ، لتغرقنا بالاف النجوم .

الثمن : ليرة لبنانية او ما يعادلها